لا تقرب النساء

قبل سن الخامسة والعشرين

معاذ جهاد



SOFT BUSINESS

لا تقرب النساء

قبل سن الخامسة والعشرين

لا تقرب النساء

قبل سن الخامسة والعشرين

معاذ جهاد مسالمة

رواية

إهداء

إلى طفلتي التي لن تأتي.. لا تكوني كأبيكِ ولا كأمكِ ، أبوكِ رجلٌ فاشلٌ وأمك هي السبب في عدم مجيئك .

إلى مخدتي التي رافقتني منذ أربع سنواتٍ ولا زالت كما هي دون أن تتغير علي ودون أن أجد سواها موئلاً أرتمي إليه في كل ليلةٍ وأحضنه..

إلى معلم الكيمياء الذي طردني من إحدى المحاضرات وقال لي " خلّي الكتابة تنفعك "، فأخذت بنصيحته ..

إلى سائق حافلة خط رام الله _ سنجل الذي اعتاد التأخر في الطريق منذ ثلاث سنوات ولكنه أعطاني الوقت لأكتب هذه الرواية ..

إلى الفتاة التي حاولت تعليمي كيفية ربط حذائي في عامي الأول في رياض الأطفال، لكنها عبثاً قد حاولت ..

إلى أول الأصدقاء والوحيد الذي أوقن أنه لن يقرأ الرواية أصلاً ، وإن قرأها فإنه لن يفهم نصفها، إلى صديقي عماد ابو نعيم.

إلى الذي أوقد فيّ حساً ووهبني الحياة في عدة شهور، وقال لي يوماً " نفذ وصيتك وانشر روايتك بنفسك، فإن لم تستطع فأنا نفسك "

مقدمة

أولاً :_ كاتب هذه الرواية مريضٌ نفسياً .. ومغرورٌ جداً فلذا لا تؤمن بأية فكرة من أفكار هذه الرواية، وأهل مكة أدرى بشعابها ..

ثانياً:_هذه الرواية هي الرواية الوحيدة التي لن تستفيد منها شيئاً، أنا أكتب هذه الرواية فقط لأحصل على الشهرةِ وبعضاً من النقود، إذا كنت تقرأ هذه الصفحة قبل أن تشتري الكتاب فلا تشتره، إذا كنت تقرؤها وقد اشتريت الكتاب، فعلي أن أقول لك أنك قد وقعت ضحيةً لنصبٍ واحتيالٍ للتو، أنا أعتذر.

شكر خاص :_

الى من أهدت الرواية رونقاً خاصاً بصورة الغلاف الفنانة الصديقة خولة عبد جبعيه/كحلة .

إلى يزن الهندي.

إلى التي ورثت عنها عيني قبل أن أرث عنها الكتابة، ثم منعتني الكتابة لاحقاً، إلى معلمة اللغة الانجليزية التي ضربتني يوماً في صفي الرابع ثم أعتذرت عندما وصلنا البيت.. إلى أمي .

إلى الذي لولاه لما كنت ولا كانت هذه الرواية، إلى الذي علمني منذ البدء أن لا أصبر وأن أمضي قدماً، وأدخلني رياض الأطفال باكراً لكنني خذلته وأعدت رياضي مرتين، لأكون من الناس القلائل جداً الذين يدخلون صف "التمهيدي " مرتين ..

إلى تلك الآنسة التي لطالما أقنعت والديّ بأنني إنسانٌ ناجحٌ ولست فاشلاً كما ظنوا كثيراً، إلى التي الآن أعترف بأنني سرقت سماعات الأذن منها وكانت تدرك أنني من فعلت ذلك .. لكنها غضت النظر عن الأمر .. إلى صديقتي وأختي ميس.

وإلى تلك التي كنت أتمنى لو تأتي ذكراً، لكن الله بعثها من عنده ملاكاً . إلى أختي الصغيرة ملك.

إلى الرائعات مها وهديل وأوديل ومريم ورغدة ولما وعرين وأسيل، اللواتي كان لهن الأثر الأكبر في أن أكمل طريقي إلى هذه اللحظة.

وإلى ستةِ وعشرين صديقاً كان يمكن أن توقَّعَ أسماؤهم أولاً، لكن القدر حال دون ذلك وحال دون أن يبقوا أصدقائي ..

إلى التي تملك مجرتين في عينيها ..

قواعد وتحذيرات :ـ

١ مرحباً، اسمي معاذ جهاد، جهاد اسم أبي لا اسم العائلة، لكنني لولاه لما كنت، لذا أنسب اسمي إليه لا إليها. اسمها مسالمة، عائلةٌ تنحدر من أصلٍ مسيحيٍ، أسلم واحدٌ منها فسُمّي خلفه بالمسالمة .. وها أنا ذا، إنسانٌ أحمقٌ واهمٌ أعيش في اللاوقع ثماني عشرة ساعةً من اليوم، أما الست ساعاتِ الأخرى فأنام فيها.

٢- إذا لم تقرأ هذه الرواية فإنك لن تخسر شيئاً على الإطلاق، وإذا قرأتها فأنا لن أخسر شيئاً إطلاقاً، في الحالتين لقد سبق وأن أخذت ثمنها.

٣- ما بين الأقواس سأعطيك ما تستمع له في قراءتك وسألعب أنا دور الناقد لك لا لروايتي، ستراني أقفز لك في كل مرةٍ لأبين مدى غباءك وجهلك، سألعب دور القدر وأنت الضحية، أتعرف كيف يأتي صوت القدر ؟ مثلا " أنا أحمق " قلها رويداً رويداً، وشُدَّ على الأحرف، أطلق الحاء، وقل الميم والقاف كمن يقبِّلُ حوريةً مغمضاً عينيه، أعدها لأكثر من مرة.

٤- كم أنت أحمقٌ فعلاً !! أنت مُصِرٌ على الأمر ؟

٥- ستبقى الرواية رواية إلى أن تتعلق بشخصياتها، عندها ستصبح هوساً ويمكن أن يؤدي ذلك إلى مضاعفاتٍ كثيرةٍ قد تؤدي إلى الجنون إذا لم

تؤدي إلى الموت.

٦ في الرواية لعبة ولغز ورسائل إذا أردت حلها فيمكن أن يأخذ الأمر منك ثلاث سنواتٍ، أنا غير مسؤولٍ عن ارجاعها.

٧- اهتم بالأرقام والتفصيلات كثيراً، آمن أن لا شيء ذكر في الرواية عبثاً، فإذا ذكر الرقم ١٣ مثلاً، ضع تحته خط، ستحتاجه فيما بعد.

٨- ضع خط تحت الرقم ١٣ فوق، عنيت الأمر حرفياً، ستحتاجه فيما بعد، قلت لك كن دقيقاً يا غبي.

٩- الأحداث في الرواية ليست مرتبة، وفهم الرواية جزأ منها.

١٠- الرواية ليست يتيمة، ستبقى بعض الأشياء عالقةً من هنا ومن هناك إلى أن أصدر الأجزاء التالية إذا نجحت الرواية هذه في إيصال مكنونها، وإذا لم تنجح ستكون آخر روايةٍ للكاتب.

١١- هناك ثلاثة أشياءٍ يجب أن تعرفها قبل أن تقرأ هذه الرواية، أولا : قليلٌ من الفيزياء، ثانياً : لعب الشطرنج، وثالثاً : ما معنى اشتراكية.

١٢- إذا أحسست في أي جزءٍ من الرواية أن هذا الأمر بالذات قد حدث معك .. لا تكمل القراءة، الكاتب غير مسؤولٍ عن ما سيحدث تباعاً.

١٣- في يومٍ من الأيام، هزم أيمن لينا في لعبة الشطرنج، هي ردت له الأمر لاحقاً على أرض الواقع، لكنني أنا تبرعت في أن أعلمها الشطرنج. ستجد قبل كلِّ فصلٍ ملحوظةً لتتعلم الشطرنج .. لاحقاً ستكتشف أنها أكبر من ذلك بكثير.

١٤- في لعبة الشطرنج هناك قطعٌ مركزية " لكل لاعب، تكون الوزير والحصان في أغلب الأحيان، وهناك قطع جامدة" دورها في أن تكون صنماً ونادراً ما تتحرك، لكن اللاعب من دونها يخسر، وكذا الرواية .

١٥- الرواية تتحدث عن قصص حقيقية مجموعة في بعضه البعض، في هذا الجزأ ستنتهي قصة واحدة من هذه القص فقط ، وساكمل القصص الباقية في الأجزاء التالية.

١٦- لتصل إلى لينا خاصتك، كن أكثر جرأة من أيمن.

كن جندياً بقلب جيش .

يزن الهندي

كان لا بدَّ أن تقوم القيامة ليوقن الكافر أنه قد أخطأ، وكان لا بُدَّ أن تقوم قيامته لتعلن هي حبها ويعلن هو موته.

قال لها قبل أن بدأ بالابتعاد شيئاً فشيئاً " اعترفي بجريمتك "، لكنها أخذت الكثير من الوقت قبل أن تعترف، إحدى عشرة سنةً استلزمت تلك الكلمة لتصل حلقها، موتُ أحدهم وزواجها وحفلةٌ صاخبة ولم تكد تكفِ كي تعترف بشرعية حكومته وقيام دولته التي لم تلبث طويلاً قبل أن تنهار بعد ساعات .

***

كانت تصعد الدرجات واحدةً تلو الأخرى وكأن غيمةً أمطرت على عينيها فقط ، فستانٌ أسود ، وقليلٌ من أحمر الشفاه الذي لطخ شفتيها . على الطاولة البعيدة ، كان هو رجلٌ في أول الثلاثين يبتسم ، وكأنه بدأ العيش للتو . ووراء كاميرةٍ كان هو مختبئاً يرجو الرب أن تنتهي هذه الليلة على خير . أما أختها فكانت حاقدةً عليها ، هي تخطف حبيبها منها ، وهي ، الله يعلم كم كانت تعاني ، كان كل شيء قد رتب ليحدث شيئاً .

***

- والان ماذا !؟

الان لا شيء .. (قالت له وهي تتطلع إلى عينيه).

" لقد أحضرت الكنافة ، تناوليها على الأقل وبعدها ارحلي (قال لها بعد أن رقق لهجته) .

لكن الطيور يومها قد عانت من المغص في بطنها ..

***

هذه ثلاثة مقطوعات تلخص الرواية ، إنتهت الرواية فعلياً ، ولكنك إنسان ساذج تحتاج الى المزيد من التفاصيل ، لنتفق في البداية ، أنا إنسان مريض ، وأنت .. مجرد لا شيء ، الان أفرغ عقلك واستمع الى هذا المجنون الذي يحادثك الآن ، كأن هذه الرواية هي أول روايةٍ تقرأها وكأنها الاخيرة .. لنبدأ يا صديقي ..

١- من لا يلعب الشطرنج هو يفعل أنصاف الأشياء دوماً.

"ضع موسيقى moonlight sonata "

هل يمكن أن تنسى حاسة الشم في ركام أحلامه؟! فرائحة الحب الأبديةِ ستبقى تطارده دونما رأفة، واعوجاج غرامياته لن تنقذه من شروده، فلسفياته القديمة في العشق اللاإرادي هي من ستشنقه على شباك التعاسة، وتعطي لموته برستيجاً خاص، مقتول لينا اللعين الحاذق، أحقاً ستهاجر تلك الفتاة ذي الشعر القمحي المسود و العينين المغموستين بالعسل المحنط، والوجه الأبيض القمري بتوشيحةٍ من تفاحة سنووايت السامة ؟! أسترحل الى بلاد اللارجوع وتترك بلاد الحب ما بين الرصاصات؟! أيّ حبٍ هو الذي سيبقى مقيداً أربع سنينٍ ونيف، ريثما تنهي هي فلكلوراتها وأهوائها ؟! يا سيدتي ذلك القصير ذو العينين السوداوتين لن يحتمل، كان يسأل نفسه كل هذه الاسئلة قبل أن يدرك أن كل تلك السنوات قد انقضت الى أجلها.

كانت أحلامه العقيمة تتمنى لو يعشق فلسطينيةً كاملة الجنسية، لا ابنة نصف دولةٍ عظمى ونصف أرملة، كان يتمنى لو تعيش معه على هامش الأوراق، ويعيشان حياة التقشف البدائية، يأكلان زيتاً

وزعتراً، تكون نزهاتهما في الأرياف، ويصليان في الأقصى ولو تهريباً، فماذا فعلت عيناك القاسيتان ؟! أعطت لحبك القدسية وسلبت منه وجوده، ثم طلبت منه الأبهة اللاموجودة في دياره، والان ترحلين ؟!بربك ؟

"ما الوطن ؟ " سألته يوماً، " الوطن أن نموت بالسكري لا بالضغط " أجاب، "الوطن أن نعيش أنا وأنتِ كلينا أو نموت، الوطن يا لينا تلك الدالية التي تجمع اثنين تحت ظلها، وتلك الخيمة التي تحمي طفلاً لم يبلغ السادسة من قطرات الماء التي يعشقها الكتاب، والوطن تلك الحافلة التي تصل بغداد بحيفا، والوطن تلك القصيدة وتلك اللوحة وانقسامات الكثيرين حول أمرٍ لا أفهمه، وذلك الصارخ فوق جلده، وتلك المشتهاة وتانك العينان الباسمتان حتى ولو كانت جائعةً عندما تغني في الصباح موطني، بائع الخبز على ناصية الطريق، وسائق التاكسي الولع بالأخبار الذي يكاد يفهم كل شيء، العجوز ذو العكازة الذي لم ينجُ بعد من الحرب بعد مضي ستين عاماً وأكثر، والمذياع القديم، ومعلم المدرسة الذي يتمرد على الحدود ويعلم طلبته بأن الوطن بلا حدود، الوطن كل الوطن من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى حتفه، الوطن يا لينا عينيك وشعرك وجمود عقلك وانكساري تحت ظلمك، ومحاولاتي الكثيرة في الوصول الى قلب امرأة أو عنقها، الوطن أن نعيش لا أن نموت وأن نموت هنا لا هناك، وأن يعيش فينا أينما كنا نعيش، الوطن هو البقاء يا لينا ..

أتريدين الرحيل بعد كل هذه التعريفات الطويلة عن الوطن ؟ أتعاقبينني

على ذنبٍ لم أقترفه وعلى جريمةٍ آلت الي زوراً وبهتاناً ؟! أتعاقبين أحداً التصقت بحذائه قطعةٌ نقديةٌ بتهمة السرقة؟!

أترى، أيدخل النار أحدهم من معصيةٍ لم يكن يقصدها ؟ أتندثر ذاواتنا ونحن لا ندري؟ أنضمحل في عصيان امرأةٍ ونتوه في عينيها خجولتي اللغة؟ أنصبح حرف علة؟! واواً تائهة نست نفسها أو تناست لتضحي في نهاية النص وحيدة.. بلا معنى.

عاملها هو كما يعامل الإنسان وطنه، فأحبها، فعاملته هي كما يعامل الوطن أبنائه فهجرته.

قال لها في وداعها الأخير "خمسون عاماً يا سيدتي، خمسون عاماً وسنلتقي كعادتنا عند مفترق الطريق، سأصبح أنا عجوزاً هرماً على عكازة، سيكون الموت قد أخذ مني ما أخذ ولم يبقِ لي إلا القليل من جسدي المهترأ، وأنت يا سيدتي .. ستكبر نظارتك كثيراً، ربما لأن من عادة الأشياء أن تكبر مع الوقت إلا عقولنا، سيكون وجهك قد جعد، عيناك أتلفتا، والشعر الطويل سيبيض ويقصر ذاتياً، ضحكتك الساخرة هي من ستبقى على حالها، سنتلاقى، سأنظر في عينيك ثلاث ثوانٍ، تنظرين في عيني ثلاثاً أخرى، ألتفت الى يميني، تلتفتين الى يسارك، في تلك اللحظة بالذات لن نفعل شيئاً، سينتهي الأمر بابتسامة، مجرد ابتسامة لا أكثر .. مجازاً لم تتحقق نبوئته، فها هما المترفان القديمان يلتقيان البارحة، على مفترق الطريق نفسه، وكأن القدر لم يستطع أن يصبر أكثر، لم تكن قد

تغيرت البتة، هما العينان العسليان نفسيهما، الوجه الأبيض، الشعر الطويل، والقامة الرفيعة، وكأسطورته القديمة، لم يتجاوز الأمر ثلاث ثوانٍ، تلاقت العينان، تصافحتا بصمت، تابع كل منهما طريقه دون وعي، ومر شريط ذكريات أيمن أمام عينيه، من لحظة ما جلس بجانبها في المخيم اللعين ذاك، لقاؤها في الجامعة، وكيف أحبها وكيف انتهى الأمر في الوداع الأخير ذاك، كل ذلك في ثلاث ثوانٍ فقط، ثلاث ثوانٍ كانت كافيةً لتلقي تعويذتها تلك وتسلبه النوم ليلتها.

سأل أيمن نفسه : أوتكون وضعت هي سم العشق في كأس شايه عندما كان يحاول أن يشرح لها مسأله فيزياءٍ عالقة؟! أو قد تكون دست له عشقها في تلك المسألة بالذات؟! أو قد يكون عدوه اللدود اينشتاين قد دبر له هذه الأحجية لينغمس في عشق امرأة ويترك حب الفيزياء جانبا ؟! رحيق الفيزياء كان سماً لمن يجرؤ على استنشاقه، أما هو، فكانت الفيزياء بالنسبه له شغفاً.

قوانين كيرشوف وحماقته التي تغزل نفسها في مسارٍ مغلق ، تيارٌ مستمرٌ من الحب، إتفاقيات غزة الأخيرة، وإعلان العرب نعاجاً ، قطار مصر الذي وصل الى الهاوية، وعيناها التان تغرقانه، وجنتاها التان لطختا بدمه، وشعرها الذي طال حتى أصبح لا نهائيّ الطول، شحناتٌ من العشق تنتقل في وسطٍ لا ناقلٍ أصلاً ، وهو.. ما زال ينتظر، محاولاً إقناع نفسه بأنها تحبه أو إقناعها ببطلان ذلك، ويحدد مصير قصته الخيالية، بأن

روميو قد يموت بحثاً عن طعام يأكله، وأن جولييت ليست بذلك الجمال الذي يزعمون، كل ما في الأمر أن صورتها التقطت من مصور محترف ليس إلا.

سألته يوماً :" لماذا ينكمش العشاق على أنفسهم عندما يتطلب الأمر عدمه ؟"

أجاب : " الحب كالفيزياء، نفهمها جيداً عند الدراسة، ولكن شيئاً فينا يتلبد عند ورقة الاجابة، وها هو .. الفيزيائي القديم، الذي تمدد بالوصل يتقلص اليوم بالهجران، يقف عند باب أحلامه الليلية، ويطلب الغفران.

كان رحيق حبها دوما يذكره برحيق الفيزياء حتى كتب في نهاية روايته " ذلك الفيزيائي .. إستطاع حل كل تلك المسائل وعجز عن حل مسألة عشقه".

يضمحل هو من تلقاء نفسه، يتذكر ما قد جرى في السنوات العقيمة تلك التي لم تنجب إلا وجعاً يعلو آخر، رفع وسادة وقد إتكأ على أخرى.

أكان يحبها؟ لا قطعاً ، كان يعشقها، كان يدمنها، إن كلمة الحب بالنسبة الى ما كان يعانيه هي بمثابة تجريده من كل شيء، حمقاءٌ تلك الكلمة، هو كان مريضاً بها.

غازلها هو يوما بوصفها تشبه الشمس لا لجمالها ولكن لاستحالة الوصول الى قلبها.

وها هو، الكوكب ذاك الذي دار ألف دورةٍ حول معشوقته، لا يمكنه الاقتراب أكثر، هو كان أرضاً بالنسبة اليها وقبله كوكبان، عطارد ذلك الذي سيتزوجها قريباً، والزهرة صديقتها تلك.

ألم يصاب بالدوار الى الان؟! ألم يتعب من دورانه بلا فائدة ؟! أيكفي جمالها لناظرٍ من بعيد، أنصبح قنوعين قليلاً ؟! أنكتفي بدولةٍ على حدود السابع والستين ؟ أنصبح خائنين لأنفسنا قبل أن نكون خائنين لهذا الوطن؟! يا للوطن ويا لعينيك يا لينا.

من ذا يمكن جعله يقاوم إلا كحلاً من عينيك يعبئُ به بندقيته، أوتبخلين عليه بقليلٍ من الكحل يا ذات عيون السمكة؟! لا تقبليه، فقط خصصي له خمس ثوانٍ لا أكثر في صلاتك التي تشبه صلاة التراويح في طولها، أوتبخلين عليه بخمس ثوانٍ ؟! ابتسمي له دون تكلفٍ وتطلعي إليه كيف سيرفع الراية البيضاء وينسى حدوده ويعلن التقوى والحب.

إن لم يكن ثائراً، علميه أنت الثورة، كوني وطنه الأبدي لا خيمةً يرحل عنها بعد انبلاج الليل، ولترسمي عينيك علمه الأزلي، وتراتيل الصلاة نشيد دولتكم، أطعميه الحب مع الزيت والزعتر، خبئيه في عينيك فكم عانى من قبلك في الشتات من البرد والقسوة، لا تقسي عليه، عامليه كما تعامل الرياح الخفيفة ورقاً، تأخذها إلى ما شاءت دون أن تزعجها.

لا تعقدي الاتفاقيات معه، إن شخصاً مثله أخذت منه أوسلو نصف دولته لا يثق بالاتفاقيات بتاتاً، لا تتغني باللقاء الأول، لا تتغني

بكونك الرصاصة الأولى التي اخترقت فؤاده، هناك غيرك من أطلق الرصاصة الأولى ثم .. ، اجعلي الأمر يسير هكذا عفوياً، ولا تجعلي أي شيءٍ تافهٍ يحول الى الحرب بينكم، وقتها، إن كل إتفاقيات السلام لن ترضيه. لا تجعلي قلبك أو بيتك سجناً له، قاوميه بالحب لا بالرصاص، اجعليه يحبك كما لاجئ، يحب أرضاً واحدةً حتى لو ابتعد عنها الآف الأميال، وقتها لن تُغني عنك ألف امرأةٍ ولا ألف مدينة.

كوني أنت وهو أرضاً واحدة، لا تجعلوا شيئاً يجعلكم تصبحون كما الضفة وغزة، الضفة مريضة جداً، وغزة معها ضيقٌ في التنفس، وما بينكم ستنسونه كما نسيه سياسيو وطنكم، اجعلي منه مقاوماً قد يضحي بحياته من أجل عينيك، وضحي من أجله.

ورغم كل ذلك، لا تكوني حاكمته أبداً، لا تطلبي منه أن يناديكِ أميرتي ، عربيٌ هو مل الحكومات الاستبدادية الظالمة، سيعلن وقتها الثورة التي تعلمها منك عليك وستركب الموجة وقتها امرأةٌ أخرى سيرى فيها حريته، كوني حريته وكوني فوضاه

كان البيت الأزرق القرميدي ذو الطابق الواحد، المكون من غرفتي نوم ومطبخٍ صغير، وصالةٍ قلما استخدمت كغرفة استقبال، ففي السنوات الأخيرة لم تزرها إلا التعاسة وأفواج المقبلين على الزواج، أربع كنباتٍ سوداء وواحدةٌ بيضاء تعلوها الوسائد البيضاء المربعة، تتوسطها الطاولة الأم العذراء، التي تبنت قبل أربعة أشهر طفلتين يتيمتين، وقد

وضع على صدر الأم بعض الأواني الزخرفية، وعلى احدى صدر الصغيرتين نبتة الزنبق العجيبة السوداء تلك التي طالما رافقته مبشرةً إياه بحتمية مصيره مذ كان في السادسة من عمره.

كان البيت ذا مدخلٍ يتيم، وساحةٍ اتسعت لزهرتين من الأوركيد، ومقعدٍ خشبيٍ عتقته سنوات الرحيل الطويلة، يتسع لثلاثة أشخاصٍ على الأكثر، وشجرة الرمان التي قد أحضر قصفتها من بيتهم العتيق منذ هجرانه آخرَ مرة، كانت أرضية الساحة من الحجر النابلسي الذي يزداد جمالاً كلما اتسخت أرضيته، ربما شخصية أيمن الفوضوية والعفنة جعلت جماله لا يضاهى - أقصد الحجر وأيمن - ، تبدأ الساحة بالبوابة الزرقاء الصغيرة وتنتهي بدرجتين إثنتين تصعدان الى الباب الرئيسي شديد الغيرة في لونه من أمه.

طُرِقَ الباب على عجل، وعلى عجلٍ أيضاً فُتح .. وإذا استثنى الليلة الماضية، كانت تلك الخمس عشرة ثانيةً الأكثر صمتاً والأكثر مطراً منذ السنين الخمس العجاف.

نطقت :" مرحباً ، أقصد السلام عليكم وضحكت "، آهٍ لو التقطت ضحكتها تلك، قال أيمن في نفسه وأجاب : "وعليكم السلام تفضلي ".

- شكراً ، هيا بنا ، هل أنتما جاهزان ؟

- نعم، انتظري دقيقتين فقط.

- سأنتظر بالسيارة خارجاً، أرجوك لا تتأخر كعادتك.

استنشق أيمن الهواء وكأنه يستنشقه لأول مرة، نعم إن الذين يقعون في الحب نادراً ما يعرفون طعم الهواء، عبثاً يحاولون تذوق الطعام أصلاً، أجسادهم في تلك اللحظات تعتاش على الحب لا على ما سواه.

أغلق الباب وأغمض عينيه، فتحهما من جديد على يدٍ قد أُرخِيَت على كتفه ..

- سننهي الأمر بسرعةٍ أيمن ، سيسير الأمر كما خططنا منذ ثلاث سنوات.

- أتمنى ذلك.

***

"موسيقى cloud atlas "

" من مذكرات لور "

إليك أكتب يا ناجي، كما لم أكتب من قبل ولن أكتب أيضاً..

بربِّ السماوات السبع وما خلق فيهن، وبرب الحرب التي لا تنضب أبداً..

أشتاقك كما لم أفعل لأحدٍ من قبل، وأحبك كما لو أنني لم أعرف أحداً سواك.. فهلّا تأتي ؟

اسمي لور، عمري .. يكفي لجعلي أقرر ما ينبغي لحياتي أن تكون، لكنني لست أفعل، ما الفائدة من البلوغ إذاً يا ناجي ؟ عندما تأتي أريدك أن تبقى صغيراً بما يكفي.

في هذه اللحظة بالذات، أحسد الأطفال وأتمنى أنني لم أكبر يوماً، على الأقل، ونحن صغار تكون السيطرة علينا شرعية لأننا غير واعيين، ليس من حقنا أن نعترض، ولكن إذا ما كبرنا وبقينا تحت السيطرة الأبدية، أليس الخضوع يكون ذنباً لنا وقتها يا ناجي؟!

أنا أبحث عن أية حجةٍ مقبولةٍ كانت أم لا، لأصف هذا الذي يحدث في هذه الدنيا بصفةٍ أخرى، لكنني لا أستطيع وصفه إلا بالعهر. أحاول منذ فترة البحث عن آلة زمن تعيدني إلى طفلةٍ ذاتِ خمس سنوات

أو بالأحرى لتأخذني بعيداً عن القرن الواحد والعشرين، بحثت كثيراً، في المخزن الممتلئ بالآلات التالفة، في الغرفة السفلية التي لا يشغلها أحد، في بيت جارنا المهجور، وحديقته الكبيرة، في كل مكانٍ كان بإمكاني أن أصله، ولكنني استثنيت بعض الأماكن بسبب ذكائي، فمثلاً لم أبحث في الجوارير والأدراج ولا أسفل الخزانة أو السرير، لأن آلة الزمن بالتأكيد ستكون كبيرة، وإلا، كيف لي أن أسافر فيها ؟! لأكون صريحةً، بحثت مدةً كافيةً من الزمن الذي يلزمني كي أخترع واحدةً لو كان الأمر ممكناً.

" الأمر ممكنٌ حقاً " آينشتاين قال ذلك، قال لي أحدهم قبل فترة، لذا فكرت بالأمر، " سأصنع واحدةً "، يمكنني اختيار القطع المناسبة لاختراع آلة الزمن تلك، بعضٌ من الأسلاك والعجلات ومولد كهرباء والأزرار الكثيرة الملونة والزجاج الأمامي، وثلاجة، لأنني بالتأكيد سأحتاج الى شرب قليلٍ من الماء في رحلتي وتناول بعضٍ من الشطائر، والأهم من ذلك كله، حزام الأمان ، أخاف شرطة مرور الزمن أن تخالفني وأنا في نصف رحلتي، ومن يدري، ربما لن أملك الفكة التي كانت تستعمل في زمانهم، لذا سأضطر وقتها للذهاب الى مصرف الزمن وتبديل أموالي بأموالٍ مناسبةٍ تستخدم في تلك الفترة التي خالفتني فيها شرطة المرور وأنا أعرف تماماً بأن البنك وقتها سيأخذ نسبةً كبيرةً على تبديل العملات لأنه يعرف أنني مضطر للأمر، لذا، لأسهل الأمر كثيراً، علي وضع حزام أمان.

وبعد ذلك، علي الإهتمام بلون هذه الآلة، اللون الأحمر سيكون مناسباً

جدا ، ولأوفر قليلاً من المال، قررت أن أستغني عن ماسحات الزجاج، قطعة قماش مبللةٍ ستفي بالغرض، لا داعي للتبذير، علي توفير بعض المال حتى أستطيع شراء شيءٍ من الماضي، لم أقرر بعد الى أين ستكون وجهتي بالتحديد، ولكن لدي بعض الخيارات المفضلة.

سيكون شيئاً من الإلحاد يا ناجي بالنسبة لهذا العالم الملحد أن أذهب إلى الجنة لأمنع آدم من أكل التفاحة وارتكاب الخطيئة الأولى، لذا ألغيت هذه الفكرة من رأسي تماماً ، وربما يمكنني استبدالها باللحظة التي نزل فيها آدم على الأرض، تعابير وجهه الأولى بعد خطيئته، بكاء حواء على الخسران العظيم، والصدمة تلك.

سيكون شيئاً جميلاً لو أعود إلى زمن الديناصورات، لأفهم من وجهة نظرها لماذا تختبئ في زمننا، أعرف، أدرك أنكم تدركون الأمر تماما وقد لاحظتموه، هي لم تمت حقاً ، ولكنها تختبئ، أراها كثيراً في الليل تجول في المنطقة ، ربما هي خائفة لا أكثر ، حاولت لأكثر من مرة أن أتكلم مع أحدهم ، لكنهم سريعو الاختباء، لذا قررت أن أعود الى النقطة التي لم يكونوا خائفين وقتها.

الاقتراح الآخر سيكون وقت بناء الأهرامات، أعتقد أنكم فضوليون مثلي وتريدون معرفة الكثير عن هذا الأمر، إذ أن بناءً مثل هذا يستوجب الكثير من الأسئلة صراحة، أهمها هل كانوا يرتبون غرفهم سابقاً وينظفونها أم لا ؟ تقول أمي أن الترتيب يبدأ عادةً من غرفنا، وإن

لم تكن غرفنا مرتبة فإننا لن نكون مرتبين في أي شيء.

عندما أفشل في أي أمر، تلقي أمي اللوم عليّ في عدم ترتيب غرفتي، عندما كنت في المدرسة وكنت أفشل في امتحاناتي، أمي كانت تقول بأنني لا أرتب غرفتي، كيف لي أن أنجح في امتحاناتي ؟ عندما أكسر إحدى الأشياء، عندما أمرض، عند التأخر في الزيارة .. كل شيء، صرت أظن أنني إذا ما دخلت النار في الآخرة، ستكون غرفتي هي السبب، لذا سأرجع إليهم، إن بناءً مثل الأهرام مرتبٌ جداً، أكان العبيد يرتبون غرفهم ؟! أو كان لهم غرفٌ أصلاً ؟

الخيار الآخر سيكون اللحظة الأولى من اكتشاف النار، لأرى انعكاس النار في عيني الإنسان الأول الذي اكتشفها، كيف كان؟ كيف اندهش ؟ هل أصابته الحيرة ؟ تعابير وجهه ، العشر ثوانٍ الأولى تلك التي غيرت حياته فيما بعد.

يمكنني القول أن الخيار الأخير في الخيارات الكبرى هو الحرب العالمية الأولى، تحديداً وقت إلقاء القنبلة على هوريشيما، ولأكون أكثر تحديداً ، سأكون في الطائرة التي ألقت القنبلة، بجانب الطيار، سأرافقه طيلة الرحلة، لأرى كيف كانت مشاعره وهو يلقي القنبلة، وكيف أصبحت بعد أن فعلتها، هل كان خائفاً ؟ هل كان حزيناً على ما حدث ؟!أيبكي

هل تساءلت يوماً عن سبب اختباء الديناصورات ؟ أعتقد أنها

تنزعج من عمدان الكهرباء التي تعيق حركتها.

القاتل قتلاه ؟ هل أصابته صدمة بعد ذلك أم أنه أكمل يومه باحتساء القهوة مع أطفاله ؟!

غير هذه الخيارات يوجد خياراتٌ كثيرةٌ ثانوية، كأن أعود إلى سفينة نوح لأرى كيف استطاعت تلك السفينة البدائية استيعاب الفيلة، وحال الزرافة وهي تمد رأسها عالياً، أو إلى وقت توقيع أوسلو لأعرف ما كان يدور في رأس الرئيس ياسر عرفات، أو وقت انشقاق البحر أمام موسى، أو اكتشاف الآلة البخارية، أو أعود إلى ذلك الوقت الذي أخترعت فيه البيتزا في إيطاليا.

كنت أدرك أن بناء الآلة ليس بتلك الصعوبة، ولكن في نهاية الأمر، اكتشفت أنني لبناء هذه الآلة، سأضطر لاستخدام المفك لا محالة، لذا، وضعت الفكرة جانباً، إنني أخاف من المفك.

أعرف أنك تعتقد بأنني غبية بعد كل ما قلته، وكأنني أعرف السبب أيضاً، من يخاف من المفك ؟!

عندما كنت صغيرة يا ناجي، لم أكن أخاف شيئاً، لكن الواقع يجعلك تخاف من المفك وفأرة الحاسوب والجرائد وهاتف النوكيا ومبيد الحشرات وفرشاة الأسنان واللون الأصفر، أتعرف لما أخاف من هذه الأشياء ؟

لا تنتظر أن أجيب، لو أعرف لماذا أخاف منها لما سألتك فوق ...

معرفتك بسبب خوفي، على كلٍ، لا يهم، لا أحد يكترث لسيدةٍ مختبئةٍ في بيتها منذ فترةٍ طويلةٍ ، ومغلقةٍ على نفسها الباب منذ ثلاثة أيام، ليزا رحلت، لذا لا أحد يكترث الآن.

نسيت إخبارك، ليزا، صديقة طفولتي التي رحلت وتركتني قبل عدة سنوات، عندما نضجتُ أخيراً أو بالأحرى عندما هم جعلوني أنضج. في السابق، قبل خمس عشرة سنة، التقيت ليزا، ابنة الجيران التي قضينا كامل وقتنا معاً ، كنا نتشارك اللعب مع فير، الفتى ذو القبعة، قبل أن أكمل، فير هو شخصية " خيالية " اخترعتها أنا وليزا لحاجتنا لشخصٍ آخر يلعب معنا الغميضة، وإلا فإن الأمر سيكون سهلاً في البحث عن شخصٍ واحدٍ فقط، ولكن لسوء الحظ، فإنه في كل الألعاب التي كنا نلعبها، لم نجد فير يوماً ، ربما لأنه كان يختبئ جيداً ، يا له من ذكي.

بعد فترةٍ بدأنا بلعب لعبة القفز بين الخطوط، القواعد سهلة، يجب أن تمشي دون أن تمسّ خطاً ، الفراغ بين البلاط يُعتبَرُ خطاً ، الظل يعتبر خطاً ، امتداد "رومونت " التلفاز يعتبر خطاً ، امتداد الحائط يعتبر خطاً ، مدخل الباب يعتبر خطاً ، وكل خطٍ يعتبر خطاً .

بعد فترةٍ نضجت اللعبة أكثر، لتصبح البقع السوداء محظورةً، وتصبح الأواني أو الأقمشة أو السجاد أو حتى الأوراق ممنوعة اللمس وهكذا.

كانت اللعبة تكبر كلما كبرنا، فمثلاً ، أصبح من يدخل من

الأبواب أولاً خاسراً، عادةً يخسر من ينسى القاعدة ويدخل، وعندم
يتذكر اللاعبان الأمر، يقفان أمام بعضهما وينظران في عيون الآخر، من
يرمش أولاً يدخل أولاً ويخسر اللعبة.

بعد فترةٍ، كان يجب علينا اختراع ألعابٍ أخرى إضافية، لذا،
حاولنا تشريح النمل في البداية، لكن الأمر كان قاسياً جداً
لعيوننا، لذا توجهنا إلى القطط في محاولةٍ للحديث معها،
القطط، غبيةٌ جداً، لم تتعلم في حياتها إلا كلمة واحدةً وحيدة
تخيل يا ناجي أنها لا تقول غير " مياو"؟

هل جربت أن تلعب لعبة الخطوط من قبل ؟!

حاولنا تعليمها كلماتٍ أخرى، بدأنا بكلماتٍ سهلةٍ للغاية مثل "
دزنطاريا " فهي على الأقل لا تحتوي على حرف الخاء الصعب النطق ذاك،
لكننا اكتشفنا أنها ليست سريعة التعلم، لذا قررنا المحاولة أكثر، والبحث
عن أشياء أسهل لتعليمها للقطط، لذا توجهنا للإيطالية لأنني كنت قد
قرأت أن الإيطالية من أسهل اللغات وأجملها، فحاولنا تعليم القطط
كلمة " بونجور " .

لأكون صريحةً، القطط غبيةٌ جداً يا ناجي، فهي لم تتعلم حتى
كلمة " بونجور " ، وبعدما كبرت قليلاً اكتشفت أنني كنت أنا الغبية، إن
كلمة " بونجور" فرنسيةٌ أصلاً ، ربما لهذا لم تستطع أن تتعلمها القطط في

وقتها، الفرنسية صعبة جداً.

المسكينة، لا أعرف ماذا ستفعل إذا تقدمت لمقابلة عملٍ مثلاً، أستكون إجابتها دائماً " مياو " ، لأكن صريحةً، أتذكر الآن وأنا أسرد الأمر بعض السياسيين الذين تكون حلولهم دوماً " مفاوضات.

المسكينة، لم تتعلم أية كلمة، أحمد الله أننا لا نستخدم الإنجليزية كثيراً حتى الآن في وظائفنا، وإلا كيف لها أن تتعلم الإنجليزية؟!

لقد أضعنا طفولتنا كاملةً في تعليم القطط كيفية التحدث، عبثاً.

أف، لماذا أشرح لك كل هذا ؟!أعرف أنك قد مللت من حديثي.

كم عمري؟ أعتقد أنك قد عرفت كم بعد هذا الحديث، نعم، عمري خمسٌ وعشرون سنة.

لا تقل لي بأنك كنت تظن بأنني أقل سناً؟ أتعرف، أنا لست غبيةً إلى هذا الحد، ولكن الواقع واقعيٌ أكثر من ما هو مطلوب، لذا فالعالم بليدٌ جداً.

أعتذر عن الإطالة يا ناجي، اسمي، لور مرةً أخرى، أراهن على أنك نسيت الاسم، ولكن لا يهم، من ذا يهمه اسم سيدةٍ مختبئةٍ في غرفتها منذ ثلاثة أيام ولم تنجز في حياتها شيئاً ؟!

تتسائل، لماذا تختبئ سيدةٌ في غرفتها منذ ثلاثة أيام؟ يمكنك التوقع.

كنت في السابق أفكر في هذه اللحظة كثيراً، سأختبئ في يومٍ ما عن وجه هذا العالم، كنت أفكر في سرقة بنك مرة، لا لأجل المال، ولكن

لأجل أن تلاحقني الشرطة وأختبئ، خططت للأمر جيداً، سأسطو على البنك، ماذا يلزمني ؟

سأحتاج أداة تهديدٍ في السطو، سأحضر مسدساً ليس بالأمر الصعب، القناع والحزمة جاهزان منذ فترة، كل ما يلزمني الآن هو مخططٌ للبنك الذي سأسطو عليه، كيف لي أن أحضره ؟

فكرت في طرقٍ كثيرةٍ لأصل إلى مخطط البنك ذاك، ولكن أسهلها كان أن أحضر مخطط البنك من البنك ذاته.

عزمت الأمر، توجهت إلى البنك، وطلبت مقابلة المدير شخصياً لأمرٍ ضروريٍ لم أبح به لأحد، حضر فوراً، سألني " ما بك؟" ، قلت له : " أريد مخطط البنك "، سألني عن السبب ، قلت له بأنني أخطط للسطو على هذا البنك، قهقه كثيراً ، ظننت وقتها أن قهقهته تدل على الموافقة، ولكن للأسف، لم يعطني مخطط البنك.

على كلٍ ، سأهرب يا ناجي ، قررت منذ البارحة ليلاً ، لماذا ؟! هناك حفلةٌ يجب أن أغني فيها، ولكن أخي يمنعني من الذهاب، لذا قررت أن أهرب.

كيف سأهرب ؟ صراحةً ، لقد فكرت في طرقٍ كثيرة، منذ فترة حاولت أن أخترع دواءً سحرياً يجعلني أختفي عن الأنظار، استطعت أن أكون ذلك الدواء، عرفت الخلطة جيداً ، "المعكرونة " والملح وقليلٌ من الليمون الحامض، دقق في كلماتي جيداً ، ليمونٌ حامض، لن تكون الخلطة

ذات قيمة إذا كان الليمون غير حامض.

المهم، نويت على الأمر وجربته، وأكاد أقسم أن الأمر قد نجح، كانت أمي قد جلست بجانب الغسالة التي تحدث ضجة عندما خرجت من غرفتي، ولكنها بغير عادتها، لم تلحظ خروجي، لذا فالأمر نجح.

لكن الأمر الذي أدهشني، كيف خرج أخي هو الآخر من غرفته دون أن تلحظ أمي الأمر، أقد استطاع معرفة الخلطة السرية تلك التي لم أبح ولن أبوح لأحدٍ بها ؟!

بعد فترةٍ، أدركت كم كنت غبيةً، وأدركت أنه لم يعرف الوصفة بتاتاً، كل الأمر أن أمي لم تلحظ خروجه لأن صوت الغسالة كان عالياً ليس إلا .

المهم . فكرت في أن أجرب الأمر، ولكن صدقاً، لا أرغب بتناول "المعكرونة" في هذه الفترة، لذا فكرت في أمورٍ أخرى، مثلاً أن أجعل عنكبوت يلسعني في كتفي لأصبح مثل الرجل العنكبوت، بحثت عن العناكب في غرفتي، لكنني لم أجد أياً منها، كانت فكرة النوم والظهور في مكان آخر هي من لفتتني .. لكن، أظنها تقليديةً جداً، لذا خطرت لي فكرةٌ جميلة، باختصار وأرجوكم لا تقولوا لأحدٍ عن الأمر، ها أنا ذا أخفض صوتي وأنا أبوح لكم بالأمر، سأهرب ليلاً من الباب عندما تكون أمي وأخي نائمين، لن يفكروا بتاتاً بأنني سأفعل الأمر بهذه الطريقة.

لماذا سأهرب؟ قلت لك يا ناجي، أريد الغناء في حفلةٍ ما وأمي

وتكراراً، وحاولت إقناعهم بالأمر، لكني

وأخي يمنعونني، قلت لهم مراراً

ولم أستطع الإنجاب.

يقولون بأن ذلك مرفوض وبأنني الآن مطلقة

يا ناجي؟! لا أفهم الأمر

آسأل نفسي، ممنوعٌ أن أغني لأنني مطلقةٌ

أجبني يا ناجي ..

أيكون صوت المطلقات مختلفاً مثلاً ؟!بربك

***

"أهي جميلة؟ " سيسألونك، أجبهم " جميلاتٌ هن يا سيدي بالفطرة، كوردة توليب، وإن ذوات الضحكة الخجلة، يجعلن القمر يتمنى لو يعيش بشعرهن "، سيسألونك :" ما جنسية الحب ؟" ، أجب " فلسطينيٌ هو، لو شرّد، لو هجّر، فلسطينيٌ هو" ، سيسألونك " لماذا؟" ، قل لهم : " لإستحالة وجود أروع من الفلسطينيات، كان روميو ليخون جولييت لو رأى فلسطينية "، سيسألونك بعدها وكأنهم قد استطاعوا اغتيالك واغتيال كلماتك : " إذاً لماذا تُعشقُ الفلسطينية ولا تَعشق؟"، تجيب : " لأنهن تعلمن من الإحتلال أسر القلوب ، ومن الفدائيين .. المقاومة".

كانت سيارة ال bmw السوداء تنتظر في الخارج ، امتطى أيمن الكرسي الأمامي وترك مازن يتلوى في تكوينات المقعد الخلفي، قالت لينا وهي تقبض على مفتاح السيارة وتدور بالمقود من على جهة اليمين إلى اليسار " أهلاً بك، كيف حالك مازن، مرت سنوات كثيرة منذ آخر مرةٍ رأيتك فيها ".

_ الحمد لله ، لم تغيرني السنوات كما فعلت بغيري.

وكأنها لم تع شيئاً " إذاً ، سنذهب الآن إلى بيت وليد، أعتذر، هو لا يستطيع القدوم فهو مريض قليلا ، وفي الطريق سنأخذ يارة معنا ".

وكأن لينا هيأت ثغرها لما سيحدث، كانت امرأة تعشق اللحظات التي تجعل أحدهم فيها يرتبك، " وكيف لا يفعل؟ " تقول هي، منذ غادرت إلى أمريكا فاتحت لينا يارة بالموضوع كثيراً ، " ألا زال يحبك؟ " سألتها في آخر مرةٍ قبل شهرين تقريباً بعد الانقطاع الكبير بين لينا ويارة، لكن يارة اكتفت بالصمت وسؤالها عن أحوالها.

مازن، صديق لينا ويارة المقرب، الذي تعلق بأيمن بعدها وشاركه عمله، حليق اللحية، طويل الشعر قليلاً ، له عينان زرقاوتان، وقامة مديدة، لم يعرف الحب إلا على يدي يارة، هو حاول مطولاً إجبار قلبه على اعتزال حبها والتنازل عنه، عبثاً كان يحاول.

كانت لينا تحدق بمازن من المرآة الأمامية ناظرةً إياه أن يحمرّ خجلاً وهو يراها تصعد السيارة، لكن وجنتيه لم تفعلا، كان هادئاً متماسكاً كزرافة، أترى أقد انتهت صلاحية حبهما مثلاً ؟! أترى أقد ينسي الإنسان الوقت نفسه ؟!

" أتكون هي قد تلاشت من قلب أيمن أيضاً ؟ " سألت نفسها واستجوبت عينيه ، كانت عيناه صامتتين كطفلةٍ أرضِعت للتو، وكوطنٍ انتهت للتو عليه حربٌ ما، وكزهرة أوركيد وكلاجئٍ نسي طفله من العجلة، أيكون هو قد نسي قلبه في ممرٍ ما.

كان مازن يحاول أن ينطق أية كلمةٍ ولم ينطق إلا: " لو سمحت، أيمكنك تشغيل المذياع ؟ "

بلا استحياءٍ ردت فيروز :" أهواك"، وكأنها تنتظر تلك الكلمة بالذات، لتشعل أوجاعه من جديد، أحس مازن بالمشهد وهو يرى أيمن يذوب من تلقاء نفسه، فكم عانى في سهرات أيلول الأخيرة وهو يستمع إلى تلك الأغنية بالذات، وقد أحست يارة بالمشهد أيضاً ولم تستطع النطق.

وإن كانت الغراميات غير غارقةٍ في ظلام عذابات العشق ، فإن كل الأوجاع لا يمكن أن تندثر، وإن استنشاق رذاذ الموت ليس أكثر رأفةً من الموت نفسه، ولو قيدت مذاقاتنا وبُخِّرَ السم لما كان طعم السم أو رائحته أجمل، هذا ما تضفيه نكهة العيون الفلسطينية، تجعلك تفكر بالانتحار ملياً ، تجعل قلبك معوجاً متيبساً ، تجعلك تتمنى لو أن الحب يختزل في الفلسطينيات فقط، فسذاجتهن تجعل الكلمات تتزاحم وتشيخ فجأة، ووجوههن كالكريستال، والشعر ذاك يضفي برستيجاً خاصاً ، تندمل فيه جراحات الحب مع جراحات الوطن الممزق خصره، وإن ضحكة الفلسطينية قد تشنق الأوجاع على ذاكرةٍ خصبة، والورد الفلسطيني أزكى رائحةً من العطور الفرنسية حتى، وإن التعويذة السحرية التي يلقينها الفلسطينيات لا يمكن فهمها إلا لمن عشق واحدة، وها هما .. عاشقان لا يفصل بينهما إلا مقعدٌ واحدٌ، وعاشقان تفصل بينهما الدنيا بما فيها.

أراد أيمن أن يلطف الجو فقال : جميلة، أقصد السيارة، معشوقتك منذ كنت صغيرة.

نعم، هي كذلك،هدية وليد لي .

وجاءت كالسهم، وأعادت أيمن نفسه إلى نفسه، وأعادت ذاكرته إليه قبل أن ينسى أو يتناسى، نعم وليد ذاك ..

بدأت القصة منذ عدة أيام، منذ رن الهاتف في الساعة الثامنة والثلاث عشرة دقيقةٍ تماماً.

جاء الصوت رقيقاً : مرحباً ، أقصد السلام عليكم.

رد أيمن : وعليكم السلام ..

- ألم تعرفني ؟!

فكر أيمن في نفسه، أنّى له ذلك ؟! كيف له أن ينسى ذلك الصوت؟ إنه يحتاج إلى ألفيةٍ أخرى كي تبدأ نوتات صوتها بالتلاشي من ذاكرته " قال في نفسه ثم أجاب : لا من هناك ؟

- " توقع من ؟ " ثم أغلق أيمن الهاتف كعادته.

لم يلبث إلا أن عاد نبض الهاتف من جديد، أجاب : " إذاً ، من هناك ؟!"

- عادتك ولن تغيرها، أنا لينا.

- وكأنه تفاجأ، " لينا، كيف الحال ؟ "

- الحمد لله، إنني بخير، كيف أنت ؟!

- نشكر الخالق، (وأتبع في نفسه " في أسوء حال ").

-إذاً، استمع، إنني أتصل لأدعوك إلى حفلة زفافي.

وهنا لم يعرف ماذا يجيب، إذاً ستتزوج وتدعوك إلى عرسها، يا لوقاحة القاتل حين يدعوا القتيل إلى جنازته ؟!

- رد مبارك ولكن ..

- بدون ولكن، سنلتقي جميعاً، أنا، أنت، يارة ومازن، كما المفروض.

- متى ستكون ؟!

- السبت القادم

- السبت ؟! لم ليس الجمعة كما العادة ؟!

- وليد مصرٌ على ذلك ، تشاجرنا كثيراً بهذا الموضوع ، فوبيا الجمع ربما، لا أعرف، أضف إلى ذلك بسبب تأخر قدوم أهلي من أمريكا.

- ماذا سيكون التاريخ ؟

- السابع والعشرون من شهر سبعة.

- أعتذر، ولكن صدقاً، لن أستطيع القدوم، علي أن أحضر حفلةً أخرى .

- بدون اعتذار، سأرغمك على المجيء ..

أقفلت السماعة، وتركت نبضات الهاتف تحاول اللحاق بنبضات قلب أيمن، عبثاً كانت تحاول، لم يكن يكذب أو يعتذر، فمنذ عدة أيام اتصل عليه أحدهم طالباً منه تنظيم حفل زواجٍ له، فالفيزيائي القديم

الذي لم يكسب من فيزيائيته شيئاً، ومنسق الحفلات الذي ذاع صيته في

الأونة الاخيرة، هما الشخص نفسه.

إذا أرغمتني على المجيء.

نعم .. لم تكن تعرف أن الحفلة التي ستنسقها ستكون حفلتي أنا، هل

تفاجئت حينما اتصل بك وليد وباح لك بالأمر وأنني ساتي وآخذك لكي

نتفق على كل التفاصيل ؟!

ألن يغضب ؟! أقصد وليد، إذا كنتِ مع غيره ؟ ألن يغار ؟!

- لا، وليد يثق فيّ ثقةً عمياء، وهو لا يغار، أنا انزعج منها كثيراً ؟!

وتذكر يوما قولها : أن الحب هو الغيرة، ولولا الغيرة لم يكن الحب حباً..

إذاً، ما الذي بإمكانه أن يكون أكثر قسوةً الان ؟! أي شيءٍ بإمكانه أن

يقتله أكثر من أن يكون منسق حفل زواج محبوبته مع شخصٍ سواه ؟

أيهم بإمكانه جعله يإنّ أكثر ؟! يا لفاجعة القدر ويالحماقة الوقت.

تخيل بعد ست سنواتٍ من الحب أن ينتهي بك المطاف أن تكون في عرس

محبوبتك ولكن منسقاً له لا عروساً فيه، تخيل أن تصنع السعادة لامرأةٍ

أحببتها ولكن مع أحدٍ غيرك، كم موجعٌ ذلك القدر وكم عيناه بائستان.

كيف له أن يتخلى عن دور البطل ليأخذ دوراً فرعياً أو ينتهي به المطاف

مخرجاً للنص ؟ يا لوقاحة النص.

في الخلف كان الهدوء سيد الموقف، مازن الذي قد احمرت

وجنتاه فجأة، هو لا يدري ما الذي يستطيع نطقه الآن، أي كلمةٍ قد

تكون مناسبةً الآن، وتلك العيون التي ترقب بصمت، ولا تعرف ماذا تفعل.

قصتا حبٍ وكأنهما قد علقتا كل واحدةٍ منهما في الشريان التاجي لجميلتين!

- " إذاً، ماذا يعمل ؟ أقصد وليد .." قال أيمن.

- إنه يعمل مهندساً في إحدى شركات الخليج، وأنت ماذا عنك؟!

- ماذا عني ؟!

- أقصد، لماذا لم تتزوج بعد ؟ أنّى لك ذلك، فلتعشق واحدة، ولتتزوجها، إلى متى ستبقى مقفلاً على ذاتك ؟!

- " يا سيدتي إنّ من يعشق القمر، لا يرضى بنجمة "

خاطبها وابتسامته ترتسم على وجهه ، ثم أيقن استحالته ، ولم يدرِ كيف أطلقت سراح تلك الكلمات دون وعي، هي الآن ستتزوج، كيف تخاطبها وتغازلها بتلك الطريقة الجنونية ؟! ثم أمسك نفسه وسألها :

- كيف تريدون أن تكون الحفلة ؟ أقصد، تقليديةً أم ماذا؟

- أيمن، أفهم مقصدك، أنت تعرف أنني من عائلة منفتحة بشكلٍ معقول، لذا .. افعل ما تراه مناسباً.

أخيراً، أمطرت السماء على صحراء حلقوم مازن ونطق : كم يلزمنا من الوقت ؟!

ردت لينا : سبع دقائق لا أكثر ..

أمسك مازن بهاتفه ودغدغ واجهته بعشر لمسات ..

كان أيمن يغرق في ذكريات نفسه ، كيف مرت الستُّ سنين تلك ؟ يا لسرعتها ويا لحماقتنا، كان من المفروض أن يبطئ الوقت قليلاً ، ولو قليلاً، تذكر كيف بدأ الحب ذاك.

***

٢. اللاعب الجيد هو من يشن الهجوم دون أن ينسى دفاعه، أن تترك قلعةً دون قصدٍ خلفك، قد ينهي لعبتك.

هو يخجل الآن أن يتعرى أمام نفسه، يقولون أن عينيه نادرتا الوجود، " عيناك ثورة " قالت له هي، أتراها أرادت البقاء حية ولذلك ابتعدت ؟! جسده خجول السواد غير متشبع، ضحكته كثيرة الصنعة، أسنانه كصف جندٍ على حدود غزة، متوسط الطول مائلٌ إلى القصرة، شهوته في الطعام لم تبن بعد على جسده، وشهوته الجنسية - يقسم - أنها لا تحوز مطلق تفكيره كما أسلف فرويد ..

خجولٌ هو إلى الدرجة التي جعلته لا يصافح فتاة ، نطق كلمة " آسف " أكثر مما تنفس ربما، خجل مرةً حينما داس ظل فتاة خطأً ، واليوم .. تتهمه هي بالإلحاد والفسوق، وأنه أصبح زانياً .

باختصار .. عندما لا تريدك امرأة، هي ستلصق بك أي شيءٍ لتبعدك عنها، النساء ماكرات، ابتعد عنهن قبل سن الخامسة والعشرين فذلك افضل.

كان يبحث عن أي شيءٍ ليحدثها عنه، أذكر يوماً أنهما جلسا نصف الساعة في الحديث عن سبب لدغها بحرف السين، يحلل هو أن سنها الأمامي متقدمٌ قليلاً عن موضعه الأصلي، وأن شيئاً من الهواء

يخرج من بين سنيها فيتلخبط تكوين السين لتصبح ما بين الشين والزين،

كان هذا الموضوع بالنسبة إليه أهم من محادثات السلام، أتراها كانت

كإسرائيل واهية ً بسياساتها تضحك عليه بمواضيع تافهة تضيع بها قلبه

وعقله ؟!

وهي كانت كميدوسا تماماً، شعرها أفاع ٍ لادغة، من ينظر إليها

يبهت ويتحجر ولا يحرك ساكناً.

سأله صديقه يوماً بعد أن رآه تخدر منها : "ماذا تفعل عينٌ من

عيونها؟! "

أجاب بعد أن سمّى :" لا تبقي ولا تذر ".

وها هو ، رجلٌ على مشارف الخمس والعشرين يضمحل من

تلقاء نفسه، يعصر ذاكرته كأس نبيذ، ويخمر ذكراها، ويضيع باحثاً في

غابات عقله الاستوائي عن جسد امرأة وبقايا حب ..

أكرهك " قال لها يوماً فردت :" أعرف أنك كاذب ، دائماً ما آخذ كلامك

على محمل الكذب ، أكرهك أيضاً "

- أتمنى لو يأتي ذلك اليوم الذي آخذ أنا كلمتك هذه على أنها كذبة لأفهم

عكسها ..

- لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحصل يوم القيامة ..

كان يغار عليها من نفسه، أذكر يوماً أنه أمسك بعينيه تحاول

إجتثاث عينيها بنظراتها، فعاقب عينيه على خيانتها له، شرقيّ انانيّ يحب التملك، ثائرٌ لا يرضى بقسمة وطنه على إثنين، وحل الدولتين أو حل الدولة كلاهما مرفوضٌ قطعياً، إن المساس باسم جميلته تلك كالمساس بعقائد الثورة، لكن أوسلو قلبت المنطق رأساً على عقب، نبذت ذلك اللاجئ في كينونةٍ ما، وفرضت عليه العزل الانفرادي، أعطته حق رؤيتها كلما شاء القدر أن يمنّ عليه بصدفةٍ تعطيه أمل العودة، وتسلبه روحه من جديد.

بدأت مفاوضات عينيها تلك، منذ الحادثة الأخيرة التي فرضت عليه البقاء بعيداً، كان يوم اثنين على ما يذكر، حينما دعاها إلى أمسيةٍ فنية، تاهت يداه - خطأً - ولامست ظهرها، فرأت في ذلك خيانة، ورأت فيه الشيطان نفسه، وظنت به ظنوناً لم تخطر على بال الشيطان أصلاً، فأعلنت الحرب الباردة وفتفتت عقله بكلماتها وانتهت بمحادثات السلام وترسيخ مبادئ أوسلو تلك.

وكسياسيي وطنه كانت هي، لم تكن تعِ النص ولا القدر بتاتاً، لم تكن متثقفة، لم تكن قارئة، إن عدد الكتب التي قرأتها في كامل حياتها - إذا ما استثنينا المقررات المدرسية - لم يكن يساوي عدد الكتب التي يقرأها هو إذا ما اكتأب ثلاثة أيام، كانت امرأةً عاديةً جداً، كانت تنام سنةً كاملةً وتصحو في ذكرى نكباتها الكثيرة، إن سياسيةً مثلها، لم تكن تريد من أوسلو مثلاً سوى أن تكوّن شبه دولةٍ لا مستقرةً منتظرةً القدر

أن يمنُّ عليها لتنضج دولتها في يومٍ ما، ولم تكن تريد من حياتها سوى

الاستقرار والطمأنينة علّ النجاح يحالفها صدفة.

أكانت امرأةً استثنائية ليعشقها هو ؟! أكانت أرضاً مقدسةً لا

شية فيها ؟ لا لم تكن، كانت كتفاحةٍ طازجة لكنها لم تسقط من الجنة،

ولم تُخرج أحدهم من الجنة، ولم تُدخِل أحدهم أياها.

لم تكن سريعة البديهة أبداً، كانت بليدةً لا طاقة فيها، وكأنها

شمعةً لم تنر بعد.. لكنها كانت جميلةً إلى حدٍ لا يوصف..

ورغم جمالها وعينيها، إلا أنه لم يعشقها لتلك الميزة، لم يعشق

هو أرض فلسطين لجمال حيفا أو لبحرها، لم يدرك إلى الان لماذا حدث

الأمر، ولم يكن ارتباطاً عبثياً ولا صدفة، لكن بعض الأشياء تحدث ولا

نفهم لماذا حدثت أو كيف.

كيف لرجلٍ واعٍ إلى تلك الدرجة أن يعشق امرأةً غبيةً إلى تلك

الدرجة؟! لا أحد يعلم.

ما سرها ؟ هي امرأة كما مثلث برمودا، لا أحد يعرف سرها.

عينان تخونان الألوان وتتخذان لوناً خاصاً ، ما بين البني

والعسلي، وجنتان تنضجان خجلاً كتفاحة، أنفٌ دقيق خُلِقَ رسماً،

وأسنانٌ تمردت لتعطيها بريقاً في نطق حرف السين ذاك، هي لا تلذغ،

هي تنطق السين كما يجب أن ينطق، هي تعطي الحرف معنى، إن كل

امرأةٍ تنطق السين غيرها تشوهه ، " إن اللواتي تلذعن بالسين سقطن من

السماء سهواً " قال هو يوماً .

لم تكن جميلة، كانت فاتنة، وإن شقراوات روسيا تُهن في غابات شعرها الاستوائية، لا يرى فيها أنثى،

قال لها يوماً :النساء حمقاوات ؟

ردت : وأنا ؟!

أجاب : قلت النساء لا الملائكة ..

أتراها أضحت اليوم "عتيد "؟ ذلك الملاك الذي يحصي أخطاءك ولا يلتفت إلى سواها ؟! أم تراها كانت ملاك الموت الذي أوكلت إليه مهمة قتلك حباً ؟! حتى في الحب كان مؤمناً ..

اعشقيه مؤمناً ، لا تنظري إلى طول لحيته، الإيمان ليس باللحى، أنظري إلى طيبته، هو سيحبك ويدافع عنك كما عقائد دينه، سيتذكرك كما الصلاة، ويدعو الله في كل صلاة أن تكوني له، سيصوم عن كل أنثىً غيرك، سيزكي عينيه إن شئتِ ، وسيدعو الله أن تكوني له في الجنة إن لم يسطع إليك في الدنيا سبيلا، لا تصافحيه، اجعلي نفسك كما الجنة، وهل يصل الإنسان إلى الجنة دون أن يشقى ؟!

كما تذبل الأزهار في الخريف الرطب، تذبل أفكاره في وصف امرأة، وإن شر النساء هن من يمنحنك الحيرة، ويمنحنك الموت المؤقت، الحب .. كما ينبغي لجمال وجهك وجلال موتك وثواب قتلك، لنكن واقعيين، إن الفرق بينكما مبالغٌ فيه، أتعشق حسناوات روما قطاعي

طرق إفريقيا ؟! أينتهي المجاز ؟! أتعاقب امرأةٌ رجلاً بمنحه الحب وسلبه نفسه ؟! ببحور ذلك الشرقي منذ أن تاهت مراكب

ست سنين مرت، منذ أن تاهت مراكب ذلك الشرقي ببحور عيني تلك الحسناء، يجدف بحثاً في الأمواج عن ظله، وعن بقايا دولةٍ دمرها الغزاة، هل يغازل الإنسان قاتله؟ نعم يفعل، إذا ما كان قاتله يحكمه بالحب لا بطائرات " الإف ستة عشر ".

إحدى عشرة سنةً مرت، كان طفلاً - مجازاً - ذا أربعة عشر عاماً، وكانت أنثى ذات اثني عشرة عاماً، حينما إلتقيا بمخيم صيف، لم تلفت انتباهه في البداية، ويذكر أن كل ما كان بينهما هو الشجار، تشاجرا يوماً على من سيمثل دور جورج كلنتون في مسرحيةٍ ما، يبرر هو أنه يكره جورج كلنتون وأنه لن يمثل دوره، تبرر هي أنها أنثى ولن تأخذ دور رجل، هي بطبيعتها تكره الرجال أصلاً، وأنا بطبيعتي - وككاتبٍ للنص - سأقول أنه كان على حقٍ وكانت خاطئة.

في يوم التخرج من ذلك المخيم، كان يتوجب عليه أن يحفظ أغنيةً ما، وقف يؤديها، ونسي الكلمات، فأكملت هي الغناء عنه، هو يعترف الآن أنها أنقذته يوماً. وإن كانت تكرهه، إلا انها لم تمنع لسانها من وداعه في يوم التخرج من ذلك المخيم ..

- لن اقول أراك على خير، أنا لن أراك على كل حال.

- لا أحد يعرف ماذا تخبئ لنا الأقدار يا لينا.

أكانت الأقدار تخبئ حبه مثلاً بعيداً عن أشعة الشمس لكي لا تتلف ؟!
هل كانت الأقدار غبيةً - الى هذا الحد - لتجمع بينهما في قصة حب ؟!
ألم تكتفي من مشاجراتهما السابقة، لتجمعهما اليوم بعد تسع سنوات ؟!
أيزهر الخيار بعد زرعه بتسع سنوات ؟!

كما كل قصص الحب الصبيانية وإن كانا قد تعديا مرحلة المراهقة وقتها، سيستوقفها قائلاً : " لينا ، أريد أن أقول شيئاً "، ستبتسم هي وترد :" تفضل "، سيضمحل على نفسه ويقول : " لا، انسِ الأمر، ستغضبين مني " هي في هذه اللحظة ستدرك أن الاعتراف بحكومتها قد اقترب وأن كلمة " أحبك " قد وصلت حلقه، وأنه في تلك اللحظة بالذات سيتخلى عن أقصاه كاملاً ويرضخ لها.

ستتساذج قائلة : "ماذا هناك؟ هل فعلت شيئاً خطأً ؟! هل سرقت شيئاً ؟! "سيرد قائلاً : " لا انسِ الأمر " هي لن تبتلع الكلام حينها، ستحاول مراراً كما محققٍ في أسجية السجون أن يأخذ أقل اعتراف، ستكون مصرةً على أن يعترف حتى لو لم تكن تحبه أصلاً ، لا أعرف ما ذلك الشيء الذي يدفع امرأةً أن تجبر رجلاً على التصريح باعتناق حبها وهي لا تحبه، النساء غبيات، لا تقربهن قبل سن الخامسة والعشرين، وإن بدأت "سيناريو " الاعتراف هذا، فاعلم أنك لم تبلغ السن القانوني للحب، وأن طريقتك تقليديةٌ مستهلكة.

كيف قال لها " أحبك " أول مرة ؟! تلك قصةٌ أخرى، فمريض

النسيان ذاك، كان يحب التقرب من كل مريض آخر، وتصادف معها

في إحدى النشاطات التي أعدّت لأطفالٍ أصابهم السرطان، هي لم تكن

مصادفةً بالمعنى الحرفي، هو أعدّ كل الأقدار كي يلتقي بها لنقل " صدفة".

وهي كانت ذا قلب فراشة، كيف له أن لا يعشقها إذاً ؟! تلبدت

عيناه وانغمس عقله في السذاجة حينما صرخ طفلٌ لم يتجاوز السادسة:

" أحبك لينا ".

لنقل أنه لم يمسك فمه حينها، حينما رد على الطفل : "أسكت، لا

أحد يحب لينا غيري"، ثم تناول لسانه من موضعه وخبأه في حقيبة طفلٍ

آخر، وانكمش على نفسه كفأرٍ علّه لا يقع في مصيدة عينيها، وكمهجّرٍ

ينكمش داخل خيمته هرباً من غيمة، وكمقاومٍ أطلق رصاصةً واختبأ

كان هو.

هو إلى الآن لا يدرك، أسمعت لصة العيون والقلوب ذاك الحوار

أم لا ؟ لكنه يدرك، أن شيئاً خطأً قد حدث وجعل الأمر يسير هكذا.

غازلته يوماً، قالت له : " عيناك السوداوتان جميلتان "، هو لم

يسطع النوم ليلتها، ربما لو قالت له " أحبك " لمات بسكتة قلبية.

لم يغرم بامرأةٍ من قبل، كانت عيناه كافرتين بالحب، أكانت

عيناها معجزتين إلى تلك الدرجة لتجعله يؤمن بها ويلحد بمن سواها ؟!

إن امرأةً كتلك كما الجنة، فكيف لمؤمنٍ مثله أن لا يعشقها ؟!

كان يوماً قد قرر أن ينهي الأمر، توضأ وصلى، سار كل شيءٍ على

ما يرام الى أن دعا الله في سجوده - من دون وعي - أن تكون له، وضحك على غبائه ، كيف لمُصَلٍ أن يدعو في صلاته أن ينسيه الله مَن حضته على الصلاة ؟! إن عينيها فريضتان ، فكيف لمسلمٍ أن ينساهما ؟!

وكان دعاؤه في كل سجدة " اللهم إن كانت خيراً فهبني خيرها، وإن كانت شراً فابتلني بها ".

***

٣. التبييت هو أن تحمي قلبك، أن لا تجعل شيئاً بين القلب والرئة وأن تخبئ القلب خلف رئتك، صدقني إن أفضل شيء يمكن عمله أن تخبئ قلبك عن كل أنثى قد تصطاده، تذكر، الأنثى هي العدو دوماً.

" موسيقى Mozart - Requiem"

صحا مع الخامسة ومع جرس منبهه الذي يرنو إليها، توضأ وصلى، لم يكن لديه ما يدعوه سوى أن يوفقه الله وأن يصلح حاله مع أمه، فحسناء، التي رأت ولدها يحتسي شيئاً من عادات أصدقائه، رأت الهجران والقطيعة - على الأقل في حديثها - هما الحل الأمثل، صديقتها المقربة "زينب " أخبرتها - دون قصدٍ أو بقصدٍ لكنها هيأت لها الأمر وكأنه دون قصد - أن ابنتها جميلة، قد رأت أيمن في إحدى

أراهن على أن نصف من قرؤوا الجملة في أعلى الصفحة لم يفهموها ، قلت لكم تعلموا قليلاً من الشطرنج.

زوايا الجامعة مع فتاةٍ ما، ابتسمت شفتا حسناء، وأقرت باستحالة الأمر، إن إبنها الخجول لا يمكنه أن يفعل ذلك، وحتى لو كان الأمر صحيحاً ، ليست بالمصيبة الكبيرة، قد يجلس شابان في الجامعة

لمناقشة موضوعٍ ما. قالت حسناء، لكن الدم كان يغلي في ثنايا حملوتها. فما أن وصلت البيت يومها حتى استنطقته، أقسم أقصد أيمن أنهما لم يتوحدا، وأن ذلك حدث في إطار مجموعةٍ فيها أربعة شباب وثلاث فتيات، لم يعرف أيمن وقتئذ أنه قد لطخ الطين بقميص يوسف، ولم يزده بلةً فقط، هو أغرقه بالماء، وكأنه قد باع الوطن وقتئذ كانت تراه، وفارت عيناها، " إذاً ، ليس مع ليس مع واحدةٍ قلت لي ؟! بل .. ثلاثة !؟ يا ربي ابني يجلس مع ثلاث فتيات ؟! "

لأول مرةٍ ينفتح ثغر أيمن في نقاشاته مع أمه في هذا الموضوع بالذات " وماذا في الأمر يا أمي ؟! "

ماذا في الأمر ؟ العادات و التقاليد، أنت ابن قريةٍ ، لا تنسَ ذلك، لست كأصدقاء المدينة.

- أمي، بربك، ما الفرق، لقد بلغت التاسعة عشر من العمر ولا زلت تعاملينني كولدٍ صغير، تبا للعاهات والتقاليد، ما زلت أستشيرك في أصغر تفاصيل حياتي، الله اكبر.

"الله اكبر " قال أيمن وبحركةٍ متقنةٍ منتظمة، دفعت يداه الأرض ليصعد جسده سلماً سلماً إلى أن استوى رأسه، تمتم قليلاً ، ثم أدار وجهه إلى اليمين ونطق " السلام عليكم ورحمة الله " وكمثل فعلته، فعل إلى اليسار.

تنهد قليلاً ، رفع يديه قليلاً ، تمتم مرةً أخرى، مد يديه إلى طرف السجادة وسحبها ورماها جانباً ، تدلت من خصرها من على سريره، فتح

تبركه الغربي، حملقت عيناه في الأجواء قليلاً ، أغلق الشباك، واستلقى على السرير، دقائق، أغلقت عيناه ..

إن شاباً مثله قد بلغ التاسعة عشر، ولا زالت أمه ترى فيه ابن الخامسة، تريد أن تصقل حياته كما شاءت هواجسها، هي فعلياً لا تمنحه شيئاً منها سوى فيزيائيته، والطعام والنوم، وترى بأنها ستسلبه التعاسة المستقبلية ؟! أليست هذه التعاسة بحد ذاتها ؟! ما السعادة ؟

في اليابان تتحدث أسطورة ما عن السيدة ذات الفم المشقوق امرأة ثلاثينية أصابها حادث ما فشق فمها من الأذن إلى الأخرى وماتت تعود هذه السيدة في كل فترة مرتدية كمامة على وجهها، وتسأل الصغار في الشوارع :" هل أنا جميلة ؟ " فاذا أجاب الطفل بـ " لا " فإنها تقتله، وإذا أجاب بـ " نعم " فإنها تخلع الكمامة عن وجهها وتعيد طرح السؤال : " هل أنا جميلة ؟ " فإذا أجاب بـ " لا " فانها تقتله أيضاً، واذا أجاب بـ " نعم " فإنها تشق فمه حتى يصبح مثلها.

وهكذا كثير من حياتنا، الكل يريدون فرض سطوتهم وسيطرتهم ، يريدوننا أن نكون مثلهم تماماً، معتقداتنا، أفكارنا، شكلنا، إيماننا، وحتى طريقة نومنا، يريدوننا أن نكون إمعة تابعة لا تفكر وإنما تتصرف مطيعة فقط، أن نسلم بأنهم هم الأقدر على حمايتنا والتصرف بحياتنا كيف شاءت هواجسهم، أن نصبح مجرد آلات من دون عقلٍ ولا حس، آلات تتحرك بالأوامر فقط.

أتعرف كيف يمكنك النجاة من السيدة ذات الفم المشقوق ؟

الأمر سهل جداً، أجبها بأن الأمر لا يعنيك إن كانت جميلة أو لا، أو أعد تكرار سؤالها، قل لها " هل أنا جميل ؟ " كن كياناً منفرداً لا تابعاً لها، وقتئذٍ فإن أفكارها ستتشابك، وتعرف وقتها أنك تواجهها وأن مصيرها قد يؤول الى مصيرك لو أجابت ما كنت ستجيب، ستهرب مذعورةً وقتها.

منذ عام واحدٍ فقط - أقصد منذ بدأ حياته الجامعية - بدأ يرى الأشياء بعينيه لا بعيني أمه، اتجه الى الفلسفة وأبقى الشعر جانباً، أضحى نادراً ما يستمع للشعر، أصابه الهوس بفرويد، يخالفه في كثيرٍ من آرائه كتلك التي يقول فيها أن الحياة كلها عبارةٌ عن غريزةٍ جنسية، ولكنه يرى فيه نابغة ؟! كيف لنا أن نفسر حياتنا إلا بالمنطق الذي خلقت فيه حياتنا ؟! الجنس، ألم يكن جنسنا قد توقف لو امتنع آدم عن الجنس مثلاً أو لو لم توجد فيه تلك الغريزة ؟! يبرر هو، وإن كان فرويد يرى في تلك الغريزة محركاً لحياتنا فهو يرى فيها جرة غازٍ وجب ضبطها، إن فتحها أو إغلاقها بالكامل لفترةٍ طويلةٍ سيحدث مأساةً لا مفر منها.

ما الغريزة الجنسية ؟ يقرر هو أنها لا تقتصر على العملية الجنسية ما بين الذكر والأنثى، يرى فيها جزءاً من الحياة، إن محادثة الذكر لأنثى ولو كان ذلك في موضوعٍ علمي ستشبع جزءاً من غريزته، طرح السلام ربما، اشتراكهما في محاضرةٍ ما، إن تلك الأمور التي تحدث في إطارٍ مفتوحٍ عادةً ما تشبع شيئاً لدى الإنسان بحاجته للطرف الآخر .

يفكر هو بناحية فلسفية، من يفعل الجرائم عادةً سوى المكبوتين؟! إن فكرة الطرف الآخر حتمية" مفروضة الإشباع، لذا ترى من لا يشبعونها في الإطار الشرعي يشبعونها خارجه، فكر هو لو أنه يملك عنباً مثلاً ، إما أن يأكله طازجاً ، أو يكبته مطولاً حتى يتخمر !!

من يمنعوننا من الاختلاط ويرون فيه سماً سيقتل أخلاقنا، بعض من شيوخ المنابر أولائك، أليسوا أنفسهم من يطمعوننا بالحور العين في الجنة؟! عندما يبدؤون بذكر مرتبة الشهيد يذكروننا بالاثنتين والسبعين زوجةً التي أعدت خصيصاً له، يحضوننا على الأعمال الصالحةِ بالجنس أيضاً؟! لنكن واقعيين، إن الشهوة تلك لا يمكن إغفالها، كما الماء هي، وكما الماء يجب أن تشبع بإنتظامٍ دون كبت ، تخيل أن يصوم أحدهم عن الماء لشهرين ثم يشرب البحر، ألن ينفجر!

منذ أكثر من سنةٍ ، بدأ عقله بالتمرد كثيراً ، أفكاره منذ كان الخامسة عشر قد نضجت لتثمر على تصرفاته اليوم، وصديقته لمى لم تبقَ بعد اليوم وحيدة، هي منفردةٌ بمعاملتها الخاصة لكنه يعرف غيرها، إشراق زميلته في دراسة الفيزياء، لبنى وغيرها، علاقته فيهن سطحية كثيراً، لكن ذلك لا ينسي حقيقة تمرده على قوانين القروية وقوانين أمه بالذات.

ينس الباب من عادتها، تفتحه دون طرقه، وعبثاً كان يحاول أيمن أن يقنعها بأنه ابن تاسعة عشر وأن لديه خصوصيات، عبثاً حاول

تغيير فكرة الطفل ذي الخمس سنوات.

صرخت بضجيج : " ألا تزال نائماً ؟! ولم تصل الفجر أيضا ؟!

كانت تقول هذه الكلمات وكأنها ترى شيطانا ينمو بين جدران بيتها.

فتح أيمن عينيه، ونطق : أمي ألم تقولي بأنك لن تحدثيني ؟!

- هذا ما تريده .. حياةٌ على هواك، قم وصلِ

- ضحك أيمن وقال : " لقد صليت يا أمي "

- وتكذب أيضاً ؟! لم أركَ تصلي منذ يومين

- إذا ، قبل أن أصلي في المرة القادمة ، سأناديكِ لتشهدي على صلاتي ، حاسبيني بدل الله يا أمي ، ألم تقولي أن الصلاة صلة العبد بربه . لا بحسناء ؟!

- وتصرخ في وجهي ؟! قلة احترام

- لم أصرخ يا أمي

- بل صرخت

نهض أيمن من فراشه، التقط من الخزانة قميصاً وبنطالاً ، دخل الحمام، غير ملابسه على عجل، ثم غادر على عجلٍ أيضاً دون كلمةٍ وهو يسمع ترتيلات أمه في ذمِّه.

كان يحتاج أن يتجرع شيئاً ، توجه مباشرةً إلى بقالة أبي أحمد، لقد اعتاد الشراء من عنده منذ كان صغيراً ، لكنه - وجهه- منذ عدة أيامٍ

لم يكن حاضراً. حينما حضر لجلب بعض الحاجيات لأمه، وجهٌ أربعينيٌ كان يرقبه بصمت، عينان بنيتان فاتحتان ، متوسط القامة، قصير الشعر مجعد، تسلل الكثير من الشيب بين لحيته السوداء القصيرة، عرف أيمن بعدها أن أبا أحمد قد ترك القرية وأن هذا الغريب قد اشترى بقالته. كان قد التقط عصير العنب والشوكولا قبل أن يدرك أنه أخطأ بمناداة أبي أحمد كما اعتاد النداء دوماً كلما دخل البقالة مسرعاً دون أن يجد أحدهم، ثم اعتذر، عرف بعدها أن اسمه خالد.

في الطريق الطويل ما بين البيت والجامعة، كان ذهنه مشوشاً، في الآونة الاخيرة أضحى لا يحتمل انتقادات أمه الكثيرة وجبروتها، كان يدرك أنها تريد له حياةً ناجحةً مستقبلاً، لكنه كان مقتنعا بأن تلك لم تكن الطريقة الصحيحة بتاتاً، العادات والتقاليد ، الدين .. وتعاليم أمه، كان يفكر بها ولكن بطريقة مختلفة.

فكرة العادات والتقاليد بالنسبة إليه لم تكن فكرةً مشؤومة، لكنها لم تكن مقدسةً إلى ذلك الحد الذي تراه أمه، يؤمن هو بأن ما يصلح لمجتمعٍ ما قد لا يصلح لآخرٍ، وما يصلح لجيلٍ ما ليس بالضرورة أن يصلح لاخر، راودته فكرة الاختلاط ابتداءً، الفكرة المحرمة التي تقوم عليها العادات والتقاليد عادة في مجتمعاته، أما هو فكان له رأيٌ أخر، كان يرى في فكرة الاختلاط لمجرد الاختلاط في القرية فحشاً، لكنه لا يرى في الاختلاط جريمةً في داخل السور الجامعي، لم يكن ازدواجياً أو

ذا وجهين، ولكن كان يستند إلى فكرة اختلاف الأمكنة تلك وما يصلح لها، المثقفون في معظم الوقت لن تكون غايتهم من الاختلاط الاختلاط. على عكس أبناء القرية الذين لم يغادروا أسوارها، عينا من اعتادت عيناه مزاملة الطرف الاخر لن تفكر بالطريقة نفسها التي تفكر بها عينا من لم ترَ عيناه الجنس الاخر إلا في مواقع التواصل الاجتماعي بعيدا عن عيون العادات والتقاليد أو في الأفلام الإباحية.

المجتمع القروي الذي اتخذ من فكرة الاختلاط أمراً مشؤوماً هو قائمٌ عليه فعلياً ، قبل سنةٍ تقريباً ، وقبل بدايات سنته الدراسية الأولى، حينما عقد مجلس البلدة تكريماً لمتخرجي الثانوية العامة، هو ضحك كثيراً وهو يستمع لإحدى أعضاء المجلس عندما أنهت خطابها بنصيحةِ الطلاب وقولها " إياكم والاختلاط ، صونوا أنفسكم " ثم ترجلت وجلست الى جانب أعضاء المجلس الاخرين، ذكوراً وإناثاً المنشغلين بالتصفيق، سأل نفسه حينها، ألم يكن ذلك اختلاطاً ؟؟! في عيادة بلدته تعمل الممرضات مع الأطباء ولا يرى المجتمع في ذلك خطأً ، في مدرسته الابتدائية الأمر ذاته، إذاً متى يصبح الاختلاط اختلاطاً ويُمنع ؟! عندما يصل إلى جيل الشباب، وكأنهم الوحيدون الذين لا يملكون عقلا ، أو هم الوحيدون الذين يغويهم الشيطان، أو أن الغريزة الجنسية اقتصرت عليهم وحدهم، ومن يفعل المصائب عادةً في نفس المجال ؟! الشباب أيضاً ، يسأل أحدهم" ألا يحدث في الجامعات مصائبٌ كتلك ؟" يجيب

هو " نعم ولكن السبب لا يعود إلى فكرة الاختلاط . إن مرتكبي [illegible]

والمنحلين أخلاقيا لا يمكن نكرانهم في الحالتين". فيرد عليه " إذا هم

نفسهم المنحلين أخلاقيا من يرتكبون الحماقات في القرى " فيجيب هو

"صحيحٌ كلامك جداً . ولكن أرجوك ، قارن بين نسبة المنحلين في القرى

مع أولئك في الجامعات ".

إن فكرة الجنس الآخر أضحت عقدة عنما عقدناها نحن بأيدينا

إن الأمر بسيطٌ جداً، وأبسط من أن تفكر فيه أنت. كل ممنوع مرغوب

إذاً لا تمنع الأمر، قننه، اجعله يسير تحت ناظريك على أن يحدث خرا[illegible]

بعيداً عنهما، كان يرى أن المدارس في الصفوف الابتدائية واجبة الاختلاط

يقسم أن الأطفال قبل سن العاشرة لا يرتكبون المعاصي ولا يفكرون في

الجنس وقتها، إن أكبر تفكيرهم سيقتصر على من يستطيع تهجئة كلمتين

وراء بعضهما أو جمع عددين من خانتين، وإن أكبر أخطائهم ستكون

سرقة لعبة صديق لهم أو شراء المثلجات بعد منع أمهاتهم إياهم من

شرائه، إن الأطفال ذكوراً وإناثاً سيستقيمون تدريجياً عند إشراكهم في

الصف نفسه، إن هدوء الإناث عادةً سيجبر الذكور على الهدوء تدريجيا

والاستقامة عن الفوضى شيئاً فشيئاً، وطاقة الذكور ستجبر الإناث على

إخراج ما بداخلهن والإبداع لمجاراة نظائرهم، إن المنافسة بين الذكر

والأنثى حتميةٌ وتوجد مع الولادة، وتنتهي بالموت، وهكذا .. وحتى لو

لم ينجح ما قلت عنه سابقاً، فيكفي على الأقل إزالة فكرة الأنثى المحرمة

عند الذكر، والأمر سيانٌ بالنسبة للأنثى، سيفكر هو أو تفكر هي بعد فترة زمنية وبعد نضوجهما، أن الأمر ليس بكل ذلك التعقيد، وأن الجنس الآخر ليس مخلوقاً فضائياً جاء من القمر، لقد عايشته في صغري، سيكون الأمر أقل تعقيداً بكثير.

أما الدين فالأمر مختلفٌ تماماً، فهو لا يختلف مع مبادئه ولكنه يختلف في كيفية فهمه وكيفية تطبيقه، يرى أنه وجب على أمه مثلاً أن تعلمه لماذا نصلي قبل أن تعلمه كيف نصلي، يرى لنفسه الحق في محاولة الفهم وعدم اقتصارها على شيوخ الدين أولئك، الله جل أن يحتاج لمتحدثٍ رسميٍ أو مترجمٍ لمقاصده، لو أراد الله أن يكون الدين مثلاً قوانين وقواعد تسير حياتنا لما أنزل الكتب السماوية بهذه الطريقة، ولكان أنزلها قوانين وقواعد فقط، نحفظها غيباً ونطبقها، ممنوعٌ ومسموح، لكن الأمر ليس بهذه الصورة

بتاتاً، إن فكرة الاختلاف في فهم الدين فكرةٌ ناجحة، تخيل مثلاً لو أقر جميع علماء الدين بحرومية أمرٍ معين وأن مصير مرتكبه النار لا محالة، فإن مرتكبه في تلك اللحظة سيقنط من الأمر ولن يحاول التوبة وفكرة الرجوع تصبح صعبةً لإقرارهم بحرومية الأمر ومصيره، ولكن لو اختلف العلماء في مصيرها، ألن يعطي ذلك الأمر فرصةً للمخطئ بالتوبة والرجوع عنها لأنه قد رأى أن الأمر ممكن ؟! هو لم يكن يريد من فكرة ألم تفكر ببعض من هذه الأفكار قبلاً ؟

الاختلاف في الدين التسيب منه، ولكنه يرى فيه المنطق الذي يعطي للجميع محاولة الوصول الى الحقيقة، أو حتى، أليست فكرة محاولة فهم الدين شيءُ منه !؟

كان عقله لا يزال مشوشاً حينما اشترى زجاجةً من العصير بقالة أبي أحمد الذي يقبع كعادته عند مدخل الجامعة الشرقي، كغير عادته لم يمازح أبا أحمد كما اعتاد الأمر منذ ما يقرب العام، لم يطرح السلام أو حتى يبتسم لرجل الأمن عند الباب الرئيسي للجامعة، كان يومها يسير من دون وعيٍ حينما اصطدمت به فتاةٌ ما، تأسف ورد تأسفها، ثم أدار وجهه بسرعة، كانت عيناه الناعستان ترى الأشياء أقل وضوحاً، وبيرزيت التي ازدحمت بطلبتها في اليوم الرابع للفصل الجديد كانت غريبةً عليه، فهي كعادتها في كل سنة ارتدت وجوهاً جديدة، وبيرزيت، ومع ازدحاهما، فإن طلبتها يعرفون تلقائياً، يكفيك شهران لتفهم طبيعة كل إنسانٍ فيها، بيرزيت ليست مجرد جامعة، إنها وطن صغير.

بيرزيت التي تصحو مع السابعة، تنقسم الأفعال فيها والأسماء بيرزيت مختلفةٌ جداً، من موظف البطاقات فيها إلى رئيس الجامعة أبو أحمد الذي يرى في عربته القديمة حلماً ذاته، حراس الجامعة الذين تطورت فيما بينهم علاقة الكينونة مع تلك الجامعة، سائق الباصات الذي يصرخ دائماً " طالع على طول " حتى ولو كان الباص فارغاً إلا منه،

سندويشات الفلافل في التجارة الى بطاطس الآداب، مركز "ريتاج" الذي لا تعرف أي جهازٍ للحاسوب هو الذي يقبل استخدام مواقع التواصل الاجتماعية، مجلس الطلبة ذو ألوان الطيف الأربعة، مدرج الحديقة ومتاهات كلية العلوم، طلبة الحقوق الذين يروون في أنفسهم قادة للمستقبل مع أنهم لا يملكون كليةً الى الآن، طلبة التجارة المرفهين نفسيا واقتصادياً، طالبات الهندسة الجميلات قليلات الأناقة اللاواتي رأين أن الإكثار من مساحيق التجميل على عقولهن أكثر قدسيةً من إكثارها على وجوههن، وبرجوازيي العمارة الذين يرون في كل شخصٍ سواهم عدم.

من المدخل الشرقي وبعد أزمة المواصلات صباحاً، تبدأ رحلتك هناك، إذا لم تكن طالباً في الجامعة يمكنك الدخول بسهولة اذا تقنعت بالبرودة ومررت من جانب رجل الأمن مبتسماً له، سلم عليه أيضاً سيكون الأمر أكثر سهولة، هناك، بعد المدخل، ستتقاطع ثلاثة طرق، يمينها يوجهك الى ما وراء العلوم والتجارة، العشاق يذهبون الى هناك في العادة، ويسراها يجعلك تدور حول كلية الهندسة وكلية الرياضة حتى تصل الى كلية التمريض، أما ما تراه أمامك طويلاً، الساحة التي تتسع وتطول تدريجياً كلما تقدمت، هذه حياة بيرزيت، المستلقون على يمينك على مدخل العلوم هم طلاب السنة الأولى ذو الطاقة العالية ابتدائياً، بعد كلية العلوم اتجه يساراً، إدارة الجامعة على يمينك ويسراك مجلسه، ستراهم يتخاصمون في بداية السنة كلما قررت الإدارة رفع الأقساط،

سيغلق باب الادارة كثيراً ، إستمر بالمشي، على مدخل كلية الهندسة المغطى بالأشجار الذي يجعل المدخل غير ظاهرٍ وكأن من أنشأه ليسو بمهندسين، هناك، ستتسمر فجئة وانت تلقي ناظريك الى الشارع المتجه الى دوار الشهيد كمال ناصر، سيقنعونك كثيراً أن هؤلاء الطلبة مختلفين، لا تصدقهم، كل ما في الأمر أنهم صارحوا أنفسهم كثيراً وقرروا كيفية تعاملهم، استمر بالمشي أرجوك، على يمينك سترى ثماني درجاتٍ وضعن لا لشيءٍ وإنما لامرأةٍ أرخت ظفائرها هناك، ملعب السلة يساراً ، محل الكتب يميناً ، الكافتيريا المركزية تتلوه، والطريق الطويل ما بين العلوم والآداب ينتهي بحديقةٍ صغيرة، مقابلها ملعب كرة القدم وينتهي بكلية الآداب، هناك توقف قليلاً ، خذ قسطاً من الراحة، هناك، سترى بيرزيت بكل مكنوناتها.

مسلمون ومسيحون ، مدنيون ، قرويون وفلاحون ، من طلاب الهندسة الى طلاب التجارة ، ذكوراً وإناثاً ، ومن كل قريةٍ أو مدينةٍ توشحت بالألوان الأربع ، من كل قطرٍ سترى أحدهم، بكل اللهجات، يختلطون في قالبٍ عجيب، رسامين، صحفيين ، مبدعين، أناسٌ عاديين، هناك، قلب بيرزيت ورئتاه، هناك يختلط كل شيءٍ، وتصبح كل الأشياء شيئاً واحداً ، هناك يمكنك العيش بحرية والتنفس متى أردت، وإبقاء حقيبتك أينما شئت والصراخ ضاحكاً ، هناك تدب الحياة في اللاحياة.

اشترِ زجاجةً من العصير من كافتيريا الحديقة هناك وأكمل

مسيرتك، تجاوز كلية الآداب، الكلية الصغيرة تلك، أو نصف الكلية هي كلية المرأة، ربما من أنشؤوها شرقيو الطباع والتفكير، اصعد أقرب درج اليها، الى مجمع الحضارات الثلاث ذاك، واجلس على مقعد ما، استرح قليلاً، خذ نفساً بعمق، يمكنك إيجاد حياتك هناك.

كانت ساعة الثامنة لم تدق بعد حينما داس بقدمه مدخل العلوم واتجه الى ماكينةٍ موجودةٍ هناك لشراء زجاجةٍ أخرى من عصير العنب، ثم سار رأسياً وهو يدغدغ مفتاحاً ما بجيب بنطاله الى أن وصل مختبر الفيزياء في نهاية الممر، تناوله ثم فتح الباب وسحب كرسياً وجلس عليه، طرقت إحداهن على جانب الباب وقالت " مختبر الفيزياء ؟! الدكتور غسان ؟!

- " نعم تفضلي " أجاب أيمن.

فالدكتور غسان - دكتور الفيزياء - الذي أحب طالبه منذ كان في بدايات سنته الأولى وأحب اجتهاده، رأى فيه شخصاً مناسباً ليشغل وظيفة مساعدٍ في دائرة الفيزياء بما يكفل له إعفاءاً دراسيا، وافق أيمن عندما طرح عليه الدكتور غسان هذه الفكرة، فهو - برغم الملل الذي عاناه في آخر فترة - إلا أنه يحب الفيزياء، ويرى فيها استثناءً، مع أنه لم يرغب بدراستها، ولكنها كانت - في وقتها - أقل الاحتمالات سوءاً من تلك التي طرحتها أمه، بعد فترةٍ - وعلى الرغم من اجتهاده - أصابه الملل، وبدأ يشكوه ويبحث عن شيءٍ ما يسلبه الروتين.

إن فكرة الروتين قاتلة، ولو كانت لأكثر الأشياء حباً، أيمن الذي يصحو من الخامسة، وينام على الثانية عشر ليلاً، وما بينهما تكرارٌ يوميٌّ لنفس الأشياء، بدأت عيناه تلوحان بالأفق باحثة عن قاتلٍ ما للملل ينسيه نفسه، ويرسم على شفتيه بسمةً فقط إن لم يستطع إغراقها به، لكن المحاولات الكثيرة منذ ما يقرب من ثلاثة أشهرٍ باءت كلها بالفشل، كانت حياته الجامعية في بداياتها تغييراً للروتين، لكنها بعد فترة، أصبحت الروتين ذاته.

وهو، لم يكن يرى في حياته نسخةً مقلدةً لحياة الكثيرين يريد أن يكون رقماً بل اسماً، أن تكون رقماً معناه أن تحيا وتموت، بينهما هي الحياة التقليدية، طفلٌ ينمو ليكبر ويعمل ويتزوج وينجب ويموت، لا شيء آخر، كمعظم الستة مليار إنسانٍ الذين يقطنون شبه المستديرة، أتريد ان تكون واحداً؟!

أتعرف ما الأقسى من أن تخسر حرباً؟ أن لا تجد حربا أصلاً، ابحث عن حروبك لا تمت في فراشك ككلب.

قرأت في أحد الأيام عن أحدٍ ما ولا أعرف مدى مصداقية الخبر أنه قد حاز على جائزة أكثر إنسانٍ كسولٍ في الدنيا، وقتها، عند تسليم الجائزة، لم يقم من كرسيه كي يأخذها، علل فيما بعد أنه يريد أن يحافظ على مركزه في الكسالة.

صدقني، أن تحرز منصباً على قائمة الكسلاء ذلك أمرٌ صعبٌ

للغاية، هناك أعدادٌ كبيرةٌ ستنافسك على هذا المنصب، ولكن أن تكون فاعلاً مضيئاً مرناً كزئبق، فذلك أقل صعوبةً صدقني.

لا تكن إنساناً عادياً ، الأناس العاديون أغبياء، من ذا يملك وقتاً لا يتجاوز في معدله الستين سنةً ، لينام في اليوم ما يعادل إحدى عشرة ساعة؟ أي أننا فعلياً ننام ثماني وعشرين سنةً من عمرنا !! تخيل أنك تنام ما يقارب نصف عمرك ؟!

لا تكن إنساناً عادياً أكبر أحلامه أن ينتهي الشهر بسرعةٍ كي يتقاضى مرتبه لينفقه في تسديد الديون وشراء الطعام والكساء، إنساناً عادياً يمضي حياته في التصفيق لغير العاديين، إنساناً بليداً ، نسخةٌ مقلدةٌ عن غيره، يعبد مديره في العمل، ويمضي ساعاته روتيناً قاتلاً كي يأخذ ثمن عرقه إنسانٌ آخر.

لا تكن متفرجاً في هذه الدنيا، اصعد على خشبة المسرح وأطلق عنانك، لا تنم لأكثر من ست ساعات، اصحُ باكراً واستنشق غيمةً واصرخ " أنا قادر " احتسِ شيئاً من أي شيءٍ، مارس كثيراً من الرياضة، استمع للموسيقى، تلذذ في أكل الطعام، اقرأ الكثير من الكتب، شاهد قليلاً من الأفلام، حاول أن تستفيد من كل ثانية، جدد خططك باستمرار، وابتسم لدنياك، حاول أن تتعلم كل ما يمكن تعلمه، ستحتاجه يوماً ما، إن فشلت مرة، فابتسم وقل " لقد نجحت في أن أكون فاشلاً " أعد الكرة ستين مرة، صدقني أولئك الذين ينجحون في حياتهم لم يصحوا صباحاً ليجدوا

أنفسهم قد نجحوا، لقد اغتصبت أحلامهم مرارا قبل ذلك، ابتعد عن أولئك الذين يصرخون دوما "هذا صعب". هؤلاء أناس فاشلون جدا. وابتعد عن الأناس العاديين الذين يجلسون في المقاهي لساعاتٍ طويلة ويصرخون دوما "هذا شيءٌ مستحيل" واصرخ فيهم "لهذا أريد عمله".

هناك لحظة ما تمر على الإنسان يفقد فيها شهيته للحياة ويوقن أنه فاشل. تأكد أن كل الناس تعاني من ذلك النقص الذي يدفعهم للاعتقاد بأن كل الناس أفضل منهم، أنت مخلوقٌ عظيمٌ صدقني، أنت أقوى من أن تموت وأن تقرأ على قبرك بعض الآيات ليقال بعدها، لقد عاش ومات دون أن نسمع له حساً. اصرخ، فليقولوا عنك أنك مختلفٌ أو متخلفٌ. فليقولوا أنك قد فشلت كثيراً.

في إحدى المدارس، تقوم المدرسة بعمل رحلةٍ للمتفوقين سنوياً، وفي كل سنةٍ، يبقى الطلبة "المتفوقين" صامتين مؤدبين طوال الرحلة كي يشكرهم سائق الحافلة في نهاية الرحلة على هدوئهم، باح لي صديقي مرةً، أنه قد شارك فيها على مدار ست سنواتٍ، وفي السنوات الست شكر سائق الحافلة الطلبة على ذلك، وفي السنوات الست تلك، لم يستمتعوا ولو بواحدة.

لا تنتظر أن يقول الناس أنك هادئ مسالم، ما الفائدة من كل هدوئك إذا انتهى الأمر وأنت لم تنجز شيئاً، أسمعهم ضجيجك، اشترِ حنجرةً أخرى لو لزم الأمر، الله لن يعطيك شهادةً يوم القيامة تقديراً لك

على هدوئك، ولكن أرجوك، هناك اختلافٌ كبيرٌ بين الضجيج وبين النهيق صدقني.

طرقةٌ أخرى على الباب أخرجته من سرحانه، كان وجه الدكتور غسان النضر ذي البسمة التي لم تنزع يوماً من عليه يرنو إلى طالبه، رد أيمن البسمةَ وصافحه، كان مختبر الفيزياء قد اتسع حينها لتسعة عشر طالباً وطالبة، يتطلعون إليه وإلى الدكتور غسان، طلبة السنة الدراسية الأولى عادةً ما تكون إلكتروناتهم مهيجةً ثم تبدأ بالعودة الى مداراتها تدريجياً.

التقط أيمن بضعاً من الأوراق التي ألقاها الدكتور غسان على الطاولة وبدأ يوزعها على صوت شرح الدكتور غسان لطبيعة مادة المختبر، وشرحه لتجربة اليوم، "الجاذبية وتسارعها " قال الدكتور غسان، ثم أشار على أيمن أن يُحضِر من إحدى الخزانات كرةً وخيط، رفعها الى أعلى بعد أن أعطاه إياها أيمن، ثم تركها تتأرجح وهو يمسك بطرف الخيط من أعلى، وبدأ يشرح بالتجربة تلك، إلقاء الكرة وحساب الزمن للدورة، ثم أشار على الطلبة أن يكونوا مجموعاتٍ ثنائيةً وهو يعدُّهم واحداً تلو الآخر ، أنهى قوله " من يتبقى منفرداً فليخبرني ".

تمتم الطلبة مع بعضهم، ثم تزحزحت المقاعد قليلاً ، يمنةً و يسرة، هدأ الصوت مع رفع إحداهن يدها من آخر المختبر.

" إذاً ستقومون بتجربة اليوم بمجموعاتٍ ثنائية، أما الطالبة

هناك، سيساعدك أيمن" ثم أومأ لأيمن، وأكمل كلامه " لأي استفسار يمكنكم سؤالي أو سؤال أيمن، نسيت إخباركم، سيكون أيمن مساعدا دائما في هذا المختبر، استفيدوا منه فهو طالبٌ نجيب، ويمكنكم إخراج أدوات التجربة من خزانتكم بأسفل أدراجكم ".

ارتبكت خلايا أيمن، ليس من مجاملة الدكتور غسان ولكن من ما سيحدث، "فتاةٌ ايضاً ؟!" ، قال في نفسه، هو لا يرى في الأمر أي عيبٍ بخلاف أمه، ترجل من على الكرسي وسار ما بين الطاولات الى أن وصلها، كانت قد أخرجت الأغراض كلها ، وجهٌ احمرٌ خجلاً لفتاةٍ ذي ثمانية عشر عاماً، تطلع إليها مباشرة ونطق :ـ

- السلام عليكم

ـ اهلا وسهلا ..

ثم تبلدت وقالت : ألم تعرفني ؟

- "عفوا ؟!"

كررت السؤال : ألم تعرفني ؟!

- لا أعتقد، هل رأيتك من قبل ؟

- اصطدمت بي قبل خمس سنوات ورددتها لك صباحاً .

***

٤- في بداية اللعبة حاول السيطرة على المركز، مركز كل شيء، من يسيطر على الأربع خاناتٍ القابعة في المنتصف يفوز غالباً.

" موسيقى Schubert - Ave Maria"

كيف اصطدم بها قبل سنوات، تلك قصةٌ أخرى، فهو إلى الآن يرى في أمه مصيره المنتهي، هو يقنع نفسه أن الأمر كله كان مكيدةً من أمه ليس إلا، فحسناء، التي رأت ابنها يخطو خطاها، أرادت له نهايةً مختلفة، فنصف الطبيبة التي عاشت حياةً قاسيةً في مقتبل العمر أرادت لابنها الوحيد حياة رفاهية، لم تكن غايتها من دراسته أن يصبح طبيباً أو مهندساً فقط، كانت تريده أن يصبح سعيداً ليس إلا، " هو القدر أقوى منا جميعاً يا حسناء " قال لها أيمن في آخر مرةٍ عانقت فيه عيناه صورتهما على جدران منزله الداخلية ..

وإلى الآن، لا يزال يقتنع أن السينارو لم ينتهِ بعد، وأن أمه كانت تختبره ليس إلا.

يوم سبتٍ كان، حينما دق منبه الساعة السابعة إلا ربع، يد ذكرٍ ناعسةٍ يقبل على سن المراهقة تطفأه بصمت، لتعود هذه اليد مرةً أخرى

وتتشبث بطرف غطاء السرير لتسحبه إليه كوردة، يتجعد قليلاً ، ويهمد الجسد تدريجياً كأنقاض بيت..

غرفةٌ مطليةٌ بالأزرق السماوي، تتسع لسريرٍ مزرقٍ على درجةٍ أغمق قليلاً . وخزانةٍ أو شبه خزانةٍ بأكوامٍ من الثياب التي لطخت بعضها، كمخيمٍ للاجئين محشوٌ بالسكان حشواً ، كجسد عاهرة، مرتبٌ من الخارج، ولكن قلبها يعتريه الفوضى.

وجهٌ كثيف الضحكة لطفلٍ لم يبلغ الثالثة من العمر، يمسك دبه البني بين يديه ويمده للأمام ، وعيناه تتشبثان به ربما راجيةً إياه أن لا يهرب، وكنفس تشبثها، يدان تفعلان نفس الأمر بالطفل، إحداهما افعوعت حول خصره والأخرى كيد طبيبٍ ماهرةٍ أمسكت به من أسفل قدميه، عينان بنيان اغمقتا قليلاً عن تراب سفح جبل، شفتان ازدادت احمرارهما الفوضوي يدٌ قرويةٌ غير متقنة، وبسمةٌ تكشف عن خمسة أسنان، بضع الخويصلات من الشعر الأسود غير المتشبع بالحلكة تهرب من تحت لفة الرأس البيضاء، ولباس امرأةٍ محتشمة الجسد والفكر، عباءةٌ بنيةٌ ابيضت كثيراً ، يكسو أسفلها على الجهة اليمنى نقشٌ لوردةٍ تجعل منه لباساً بسيطاً جداً ويدل على أين عاشت.

إلى جانبهما، رجلٌ لم يبلغ الثمانية و العشرين، يستند على إحدى قدميه، ويترك أخراه مرخية، طوله يتجاوز المئة وخمسة وستين بسنتيمتر واحد، يجعل منه أطول مِن مَن وقفت بجانبه بستة سنتيمرات تقريباً ،

عيناه شبيهتا عينيها ولكنها أفتح قليلاً ، أنفه متوسط الحجم متناسق جداً مع وجهه المسطح، ضحكته تترك أثراً عصبياً بسيطاً على وجهه، شعره قصيرٌ مجعد، يده اليمنى قد تركت وحيدةً في إحدى جيبتيه، والأخرى استقرت على كتف حسناء الأيسر..

كل ذلك كان موجوداً في صورةٍ لم تبلغ من الطول شبرين ومن العرض شبراً واحداً ، منذ ما يقرب العامين، بقيت تلك الصورة في أعلى المكتب الخشبي، تستند بأعلى رأسها على صدر الرف العلوي لذلك المكتب، نادراً ما تغادر ذلك المكان، يحدث ذلك في فترات النظافة الأسبوعية التي تقيمها حسناء.

على المكتب الذي تعلو جبهتيه اليمنى واليسرى خزانتان صغيرتان، بينهما رفٌ صغيرٌ يحمل الصورة اليتيمة تلك، بأسفلها رفٌ أطول كثيراً يمتد على طول الجبهتين والرف الصغير، وُضِعَت على صدره ثمانية من الكتب - عادةً ما تكون الكتب غير مستقرةٍ تسافر ما بين الحينة والأخرى من مكتبه إلى مكتبة المنزل - اثنان لقباني، وواحدٌ لدرويش، وكتاب ألف ليلةٍ وليلة، ورواية الحب في زمن الكوليرا، البؤساء، مذكرات قبو، ومجلدٌ صغيرٌ وجده أيمن في إحدى زياراته لجدته وطلب استعارته، وكعادته، استعارته كانت طويلةً جداً ، أو بالأحرى أبديةً ..

على أرضية الغرفة، استلقت سجادةٌ لم تبلغ بعد، وحذاءان لأيمن، وبنطاله الذي تركه منذ البارحة على الأرض، وإلى جانبه استلقت

جوزا جرابات ..

بدون أن تطرق الباب فتحته وصرخت :" أيمن، لم تنهض بعد !!

قالت هذه الكلمات وهي تلتقط الجرابات والبنطال من على الأرض.

صوت حسناء الرنان جعل أيمن شبه يستيقظ من غفوته، لكن صرختها الثانية جعلته يوقن أن الأمر حتمي، كعادته سيماطل " أمي خمس دقائق فقط "

انهض أيمن .. ستتأخر.

- فقط خمس دقائق أعدك ..

أيمن .. انهض "

قالت له هذه الكلمات وهي تنزع من عليه غطائه

يسحب أيمن الغطاء مجدداً : _

- أمي لم اكتف من النوم .

- ومتى اكتفيت انت ؟!

فتح عينيه " أنا لا أريد الذهاب ، ليس بالأمر الممتع أمي .."

أيمن، سيكون شيئا جميلاً ، عليك فقط الإستمتاع، أضف الى ذلك أنك ستتقن الانجليزية.

- أمي .. الإنجليزية .. وماذا سنستفيد منها؟

- هيا انهض

- خمس دقائق أمي

- قلت انهض ..

حينما رأى أن الأمر أصبح جدياً ، استشنق شيئاً من الهواء بعنف، نظر في وجه أمه، رسم على شفتيه حزناً مصطنع، أزال عن جسده خموله وأزاح عنه غطائه، تجبد، رفع حاجبيه، نظر إلى السقف، أغمض عينيه لثلاث ثوانٍ، فتحهما من جديد، وضع يديه إلى السرير، ودفع السرير بهما ليصعد جسده تدريجياً ، إلى أن استقام تقريباً ، تثائب، أنزل قدمه اليمنى إلى الأرض لتغار أختها وتلحقها، نظر إلى أمه من جديد، قلص من فتحة عينيه قليلاً وقد عقد حاجبيه، وأغلق فمه.

نطقت الأم :لا .. مهما فعلت ستذهب، اشتريت لك رواية جديدة ووعدتني أنك ستذهب.

- لكنني لم أفهمها، إن "دوستوفيسكي" صعبٌ أمي، أظن أنني ساضعه في المكتبة قبل أن أنهيه.

- الذنب ليس ذنبي .. هيا انهض، لقد وعدتني.

رفع جسده شيئاً فشيئاً إلى أن استقام، وامتطى نفسه، مشى عدة خطوات قبل أن تصرخ فيه حسناء " كم مرة قلت لك انتعل حذاء ، ولا تمشِ حافياً .."

- لكنني لم أعدك أن لا أفعل، ولم تشترِ كتابا لذلك وضحك

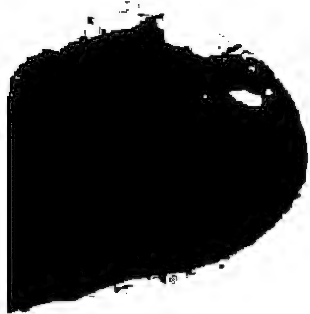
ضحكت وقالت :" كم أنت ماكر .."

رفع يديه الاثنتين إلى أعلى رقبته، واستنشق الهواء بعمق، تثائب

بعدها، دخل إلى الحمام، نظر إلى نفسه في المرآة، أمسك بمعجون الأسنان وفرشاته الزرقاء، لطخ هذا بتلك، وجعلها تقبل ثغره، أعلى فأسفل، يمنة ويسرة، ثم بصق فمه، فتح صنبور الماء، وضع يديه كمن يدعو الله في صلاته، تناول بعضاً من الماء ورشها على وجهه، سحب إليه المنشفة، جعل الماء ينكب شيئاً فشيئاً، وخرج من حمامه، صرخت سناء " كم مرةً قلت لك، لا تبلل الأرضية "

- ولكنني لم أعدك يا أمي ، ولم تشتري كتاباً لذلك ..

***



" أعد موسيقى Schubert - Ave Maria"

وجه فتاةٍ أبيضٍ غير مشبع، سنابل قمح إغمقّت و علت رأسها، عينان ما بين البني والعسلي تتخذان لونهما متى شاءا، وتغيرانه متى تشاءان، وجنتان كغزة تحمران بسرعة، أنفٌ دقيق، أسنانٌ شبه منتظمةٍ سوى السن الأمامي كجنديٍ خائنٍ تمرد هو من على موقعه، فأعطاها لذعةً في حرف السين، وجعلها أكثر فتنةٍ في حديثها ..

تمتلك قلب طفلة، وعقل ناضجة لكنه بلدٌ قليل الاستعمال، وعيني ملاك، مزاجيةٌ إلى درجةٍ مبالغٍ فيها، باردة الأعصاب لكنها تولد الأعاصير إذا غضبت حقاً، خجولةٌ تنطوي على نفسها، لكنها تملك لسان فيلسوف، سريعة الرد كنسر جارحة.

رفعت عينيها من على الأشجار التي تهرب من عينيها بسرعة من زجاج السيارة، وتطلعت إلى رجلٍ يمسك المقود بكلتي ذراعيه، اللاجئ من حيفا الذي هاجر إلى أمريكا في بدايات حياته ولم يعد إلى حيفا ولم ترَ عيناه حيفا بعدها.. في أول الثلاثين هو، قامةٌ طويلةٌ ممتلئة، شعرٌ أسودٌ ممشطٌ بعنايةٍ إلى الوراء، وجهٌ مجعدٌ قليلاً وخشن، أنفٌ مشبع، ولسانٌ

تقيل في نطق كثيرٍ من الأحرف، ربما- أقول ربما- حتى اللذعة في الأحرف تلك قد ورثت من أبيها، هي ابنه أبيها ومدللته، لكنها لم ترث شيئاً واحداً عنه، معتقداته الدينية تلك، فهو يؤمن إلى درجة ما باللاحتمية، يؤمن أن الله موجودٌ كفكرة، لكن الأديان كذبه، لم يصم إلا لأن بناته أصررن عليه بالأمر ولم يرد إغضابهن، هو أعطى الحرية كاملةً لبناته بالإعتقاد بما شئن، لينا أكبر الأخوات لكنها أصغر من أخيها، الذكر الوحيد، يكبرها بأربعة أعوام، يتلوها ثلاث بنات يتدرجن طولاً وعمراً، أختها ياسمين، أطول منها، أضعف قليلاً، لها نفس العينين الخائنتين للألوان، أقل جمالاً بقليل، ولكنها أكثر ركازةً و رفاهية .. أمل، الفتاة الثالثة، هي الفتاة الوحيدة في العائلة الآن التي ليست لديها مشاكل في نطق أي حرف، ولكنها نادراً ما تكثر الكلام، عادةً لا تستفيد من تلك النعمة هي، وأخيراً وليس آخراً، أنسام، الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ الثلاثة أعوام، تصرفاتها مبشرةً بفتاةٍ فوضويةٍ مخربة، ولسانها لم ينطق حرفاً بعد ..

أضف إليهما شبه أختٍ رابعة، يارة، فتاةٌ سمراء بيضوية الوجه متوسطة الطول، ذو ثغرٍ لم يكف عن الابتسام يوماً، صوتها أنثويٌ يملك الصدى، وعينان لامعتان، تسرقان النص من لسان شاعر، لم تفارق – مجازاً – منذ كانت في السادسة من العمر لينا، يأكلان معاً، يسهران معاً، ويتعلمان الحياة معاً، جميلتان هن كشجرتي لوز، وغالبا ما تكون يارة

هي نقطة التغيير في عقل أو قلب لينا، فالطفلة تلك ابنة أبيها، و صديقة، صديقتها أيضاً، فيارة لا تحتاج أن تبذل جهدا كي تقنع لينا بأمر ما .. ولينا طفلة.

تباطأت عجلات السيارة تدريجيا قبل أن تقف بالكامل، نطق أيوب " تفضلي يا صغيرتي ، استمتعي، سآتي لأقلك عند الثانية "

- لا تتأخر أبي كعادتك أرجوك.

- لن أتاخر، اذهبي واستمتعي بوقتك، سيكون يوماً جميلاً .

- حسناً .. أراك لاحقاً أبي ..

ويدٌ بيضاء امتدت على يد السيارة لتفتحها، شيئاً فشيئا إلى أن انزاح الباب بالكامل، تزحلقت قدماها إلى أن وصلتا الأرض، واستوت، أغلقت الباب بهدوء، وابتسمت مستودعةً أبيها .. ظلت هناك لما يقرب النصف دقيقةٍ وعيناها تلحقان بسيارة والدها، ثم ابتسمت، أدارت وجهها وما كادت أن تدير جسدها نصف دورةٍ حتى ارتطم بها أحدهم بيده ..

صرخت:_ " ما بالك أيها الغبي "

أدار وجهه بسرعة ، وتوقف :_

- أعتذر لم أكن اقصد

- لم تكن تقصد ؟!.. غبي

أمسكت بحقيبتها ، وأدارت جسدها في دورة خمس عشرة دقيقة ، وأسرعت بخطواتها مختفيةً بين جموع المراهقين تلك.

***

"موسيقى CLAUDE DEBUSSY: CLAIR DE LUNE"

كان قد وصل القرية للتو حينما طلب من سائق السيارة الذي لم يعرف أهو ابن البلدة أم لا - ولن أحدد على من عادت هو - أن ينزله في وسط البلدة، ناداه أحدهم : " مرحباً سامي ، أهلا بعودتك ، اشتقنا لك".

كانت القرية ذات الثلاثة مداخل، والثلاثة مقاهٍ والثلاثة ملاحم والثلاثة مساجد قد تغيرت إلى حدٍ كبير، وسط البلدة كان أكثر ضجيجاً وأقل امتلائاً، سابقا كان عامراً كثيراً ، لكن الانفتاح ما بين القرية والمدينة في السنوات الأخيرة جعلها تخلو نسبياً.

تغيرت كثيرٌ من واجهات الدكاكين، من الواجهات الحجرية الى الواجهات الملونة من دون معنى، وتلاقي الاثنين من دون تناسقٍ بتاتاً يصيبك بالدوار والغيظة، رائحة الجو رطبةٌ جداً، الضجيج غير منتظم نهائياً ، وجوه المارة ووجوه البائعين كرغيف خبزٍ محروق، هناك ملل يطغو على المكان، الجالسون إلى المقاهي طيلة النهار هم نفسهم مرتادو المساجد، أضف إليهم معلم المدرسة ومربي الأجيال، أكانت تكفي تسع سنواتٍ من غيابه لجعل هذه البلدة تنقلب إلى مهرجٍ غير متقن الصنعة؟!

شارعٌ يمتد على طول منتي مترٍ تقريباً، تلامسه من الجهتين واجهات الدكاكين، تبدأ بملحمة صغيرة وتنتهي بواحدةٍ أكبر منها قليلاً، محلّ للمفروشات، خمسة دكاكين، مطعم صغير، البيوت المتلاصقة وثلاثة مقاهٍ، وأرصفةٌ اتسعت لجلسات كبار السن والعاطلين عن العمل أو الأمل. وعدة سياراتٍ تملأ المكان.

كان يبتسم وهو يرى نفسه في هذه الأزقة، كم مر من الوقت ليتيح للذاكرة نسيان بعض التفاصيل الصغيرة أو إهمالها، كان قد أنهى الشارع على مفرق البلدة الذي زين بنقشٍ لصدامٍ وآخر لعرفات، تطلع إلى اليمين، كان محل الحاسوب قد أصبح دكانةً بعدما غزت الحواسيب البلدة، ومن هناك، كانت واجهات الدكاكين تجعله ينسى الأشياء، هناك تقريباً كل الأشياء تغيرت سوى المخبز الذي يقابل مدخل المسجد الرئيسي في البلدة، استمر بالمشي على ذلك الشارع الذي يصعد به رويداً رويداً إلى السماء، وهناك في الطريق الطويلة بدأ يتذكر غايته من العودة أخيراً.

كان اسمه سامي، رجلٌ يكاد يسمى أربعيني، لحيته قصيرةٌ كثيفةٌ تخللها الشيب وقد سطى على أجزاءٍ كثيرةٍ منها، عينان بنيتان فاتحتان، أنفٌ متوسط الحجم، شعرٌ قصيرٌ مجعد، وقامةٌ قصيرةٌ نسبياً، وجسدٌ ممتلئ إلى حد لا يمكن وصفه بالبدانة.

كان قد قرر العودة أخيراً، سيتجاوز كل شيء، على الأقل من أجل ابنه إذا لم يكن من أجل زوجته التي أحبها، هو يشتاقها أكثر مما يشتاق ابنه، كيف كان له أن يصبر كل هذه المدة ؟ يسأل نفسه، ويقر بخطئه، كان يجب أن لا يفعل ما قد فعل، كل الأشياء يمكن أن تنتهي فلماذا نصر على الخطئ إذاً ؟!

منذ رحيله، كان يدرك أن العودة حتميةٌ لا شية فيها، ولكنه كان يؤجلها، وها هو، يعود بعد مضي تسع سنوات، حاملاً معه حقيبتين، إحداهما ممتلئةٌ بهدايا أحضرها خصيصاً لابنه الذي لم يعايشه كثيراً، والأخرى فبعض حاجياته وملابسه إضافةً إلى أشياء قديمةٍ لا يزال يحتفظ بها.

"كيف سيكون وجهه الآن؟ أقد كبر كثيراً في غيابي ؟ أأصبح طويلاً أم أنه قد ورث القصر مني ؟! أتكون عيناه لامعتين ؟ بأي صفٍ سيكون ، السابع أم الثامن ؟! أسيعرفني ؟ أأسمع كلمة " أبي" أخيراً ؟! أم أن وجعي سيكون لا متناهٍ إذا ما هي رفضت عودتي ؟! وهي كيف لها أن تكون سوى ما كانت عليه؟ لقد كانت جميلة، لكنها مزاجيةٌ إلى حدٍ مبالغٍ فيه، أترى أقد تغيرت بعد كل سنوات الغياب هذه ؟ أم أن الماء منذ خلق البشرية قد تكونت ذراته من أكسجين وهايدروجين لا شيء آخر.

كان قد وصل المنعطف الأخير قبل بوابة بيتهم، كانت المعالم بجانبه قد تغيرت كثيراً، البيوت أصبحت أكثر تلاصقاً بعد أن ازداد عددها، الشارع قد عبّد، والعمدان تملأ المكان، أما البيت، فكان تقريبا كما تركه منذ رحل.

توقف على بعد ثلاثة أمتار من البوابة الخضراء الصدئة في من حوافها، كان قد أخذ نفساً ونوى نيته الأخيرة، سيعتذر عما حدث وسيعيد كل الأشياء كما كانت، وسيحاول إرضائها، هو راسلها كثيراً، لكنها لم تجب على أيٍ من رسائله، اتصل كثيراً، لكنها كانت تغلق السماعة كلما عرفت صوته قبل أن يقول أية كلمةٍ قد تصلح الأمر، وها هو الآن، ماذا تراها ستفعل ؟! أقد تطرده من باب بيته قبل أن يرى ابنه على الأقل ؟! فكر كثيراً، تلبد جسده، وتاه عقله في الأفكار، ما بين واحدٍ يرجوه أن يمضي وآخر يُصِرُ أن يطرق الباب ويدخل.

***

" لنتوقف عن الموسيقى قليلاً "

يد مراهقٍ يائسةٍ دقت الباب، على الجهة الأخرى، يد آنسةٍ لم تبلغ الرابعة والعشرين فتحته على مهل، ومن عينيه أدرك عينيها. يكشف الباب عن أنثى، شبه مبتسمة، توشحت بالسواد على شعرها، عينان رقيقتان كسمكة، وجهٌ أبيضٌ تغمسه بعد الحبوب، وقامةٌ لا طويلةٍ رقيقة، بنطال جينز، وقميصٌ يستر إلى طرف اليد، قالت وقد رسمت على شفتيها نصف بسمة : " تفضل، ما اسمك؟ "

- أيمن ، آنسة انا آسف لقد تأخرت ، لم أعرف أين صفي، أعتذر.

- لا عليك ، اجلس، هناك كرسي فارغ ؟

سرق من عليها نصف بسمةٍ ليلصقها على شفتيه، تنهد وهو يترك الكرسي يحتضنه، كانت عيناه لا زالتا معلقتين بالآنسة، ثم رخاهما كي يتفحص الصف، سبورةٌ بيضاء جديدة الطلاء، كراسٍ زرقاء، طاولة المعلمة، مسجلٌ صغير على الأرض، ولا شيء آخر، أدار عنقه إلى يساره نصف دورة، لتختفِ بسمته تدريجياً ويصدم، عينان نصفا مفتوحتين تصبان سهامه عليه .

لم أكن أقصد، أقسم، كنت أحاول ربط حذائي ولكن..

أدارت وجهها إلى الآنسة دون أن تنطق أية كلمة، ومن وجهته فعل فعلتها وهو يبتسم، فالطفل القروي المغلق على نفسه تقريباً، لم يكن قد تحدث مع فتاةٍ لا تقربه من قبل، كان ذلك بالنسبة إليه شبه معجزة، لم يكن يرى في ذلك شيئاً يحبه كما أفراد جيله، ولكنه كان يحب تجربة أي شيءٍ جديد، فالقروية ترى في حديث ذكرٍ مع أنثى بغير القرابة، وأحياناً بوجودها فتنةً محرمة، مفتونٌ هو بالكلام منذ فترة، منذ كان في الصف السادس تحديداً، حينما استطاع النطق بصورةٍ أخرى أخيراً، غير تأتأته في الحديث التي اعتادها قبل ذلك.

أمضى ذلك اليوم منفرداً كوردة التوليب الوحيدة في غر[illegible] فبعد أن انقضى لقاء التعرف ذاك، ارتأت المعلمة أن تأخذهم إلى الساحة للمشاركة في النشاطات الجماعية ، وكعادته، استزوى وتربع، جلس يشاهدهم من بعيد، وينظر إلى ضالته فيها، كان كل همه أن لا تحسبه وقحاً، هو - على صغر سنه - لا يحب أن يزعج أحداً، يرى في عيون الجميع ملاكاً، يرى فيهم ذروة التجلي وكينونة الحب، تسمر هو في موضعه عندما أقبلت عليه فتاةٌ تسأله عن اسمه، وكأنه عاد إلى عصور ما قبل الصف السادس وتأتأ، أجابها بأيمن، ثم جعل عينيه تجول، مرةً

إليها ومرةً إلى الأرض، احمرت وجنتاه وهي تخاطبه. هو لم يعرف أكانت جميلةً أم لا، في ذلك الوقت كان ذلك عصياناً لتعاليم القروية وتعاليم أمه، " لا تقرب النساء قبل سن الخامسة والعشرين " قالت له يوما . يخاطب نفسه ويضمحل راجياً إياها أن لا تقترب أكثر، وأن تنهي الكلام قبل أن ينتهي هو ..

وانتهى ذلك اليوم أخيراً مع ابتسامة الآنسة وهي تقول :" لا تتأخروا غداً"، أمسك بحقيبته السوداء التي تجدرت بالبياض، جرها بعد أن جر نفسه، إلى أن وصل بوابة المركز ذاك ، كانت عيناه تتوهان بين ذاك وتلك، حينما التقطتها هي، كانت تصعد إلى سيارة والدها وهي تبتسم، أغلقت الباب، لم يرَ فيها حينها كينونة الأنثى التي ستسرق قلبه لا ناظريه فقط، لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد ..

أمضى نهاية ذلك اليوم وهو يسأل نفسه " أقد تعرف أمه أنه قد كلم أنثى؟ أستعاقبه ؟ هل يا ترى ستبقى تلك الفتاة غاضبةً منه لأنه اصطدم فيها من غير قصد ؟! " كل الأمر أنه حاول أن يربط حذائه، بل بالتحديد أن يحشو رباط الحذاء داخله، فهو إلى الان لا يعرف كيفية ربط حذائه، عقدةٌ أخرى لا يستطيع حلها.

***

كان وجهه ذابلاً ، فمنذ يومين لم تنم عيناه وهو يفكر، شيءٌ ما يؤرقهما، الرجل الذي في نهايات عشرينياته الذي ثد باع أعوامه العشرة الأخيرة مالاً يخاطر اليوم بكل ما يملك، بعشرة أعوامٍ أهمل فيهما نفسه ولم يكسب منها سوى الكثير من الأموال، والآن يفكر ولم يقرر بعد، أيشتري مدينة الألعاب تلك أم لا؟ هي فرصةٌ لا تأتي كثيراً، فرصةٌ واحدة هي من ستقلب حياتك رأساً على عقب، إما أن تبني لك جنةً على الأرض أو أن تعيش تعيساً باقي العمر.

شعره البني متوسط الطول، عيناه زرقاوتان، أسنانه متباعدةٌ عن بعضها، حليق اللحية، قصير القامة، ممتلئٌ قليلاً ، درس التجارة لعامين في شبابه، لكنه لم يكن مفلحاً أبداً في دراسته، فترك جامعته و اتجه إلى السوق مباشرة، ويا لسخرية القدر، الرجل الذي رسب بمادة " التسويق" قبل عامين، استطاع بيع الكثير من السيارات في محلٍ كان يعمل فيه، اشترى بعدها محلاً وانفرد بعمله، كان الحظ يلازمه دائماً وكأنه يملك حظ أرملة، تطور عمله تدريجياً، اشترى بعدها شقتين في منطقةٍ عامرة

وبدأ بتأجيرهما، الشقتان أصبحتا خمس، اشترى محلين تجاريين، ثم كان أن بنى عمارة بها اثنتي عشرة شقة، باعهما جميعاً في ظرف شهرين من انتهاء البناء، من ذا يقنع مدرس المادة تلك أن طالبه المغفل عمل كل ذلك ؟! وأن كثيراً من تلك المواد لا تفعل شيئاً سوى إفساد مناطق كثيرة في عقولنا بلا فائدة ؟!

لكنه رغم نجاحاته الكثيرة، لم ينجح في اختيار امرأةٍ مناسبة له، خطب إحداهن أيام عمله في متجر السيارات، لم تدم خطبتهما أكثر من شهرٍ واحد، أمه حاولت إقناعه بالبحث عن أخرى لكنه إلى الآن لا يزال مقتنعاً بأن الوقت لا زال باكراً، ما زال يملك الوقت ليفعل ما هو أكثر.

ألم يقرب امرأةً من قبل ؟ بلا قد فعل، ما بين الحينة والأخرى كان يمارس الجنس بعيداً عن الحب، صديقه دله على الأمر في البداية، ورقة خضراء انجليزية اللغة ستفي بالغرض وستجعلك تترنم على صراخ إحداهن حتى الفجر.

في بداية الأمر كان الأمر برمته مستهجناً ، تلبد يقين وكأنه قد تلقى ضربةً على رأسه وهو يرى الأمر أمام عينيه، كان يظن في بادئ الأمر أن الأمر كله كان مزحةً خفيفة الظل من صديقه عندما طلب مرافقته، لكن الأمر يحدث حقاً.

" في رام الله ؟ " سأل صديقه ثم أكمل " أكل هذا يحدث في رام الله؟"

لكن صديقه لم يكترث كثيراً بل سحب إليه سيجارته واستنشق شيئاً منها وهو يضع ساقاً على الأخرى.

" رام الله يا صديقي كما البحر، لا تعرف أحشائه إلا إذا غصت فيه، وما الضير إذا غصنا قليلاً ؟ "

لكن يقين صمد ولم يغص ولم يجرب الأمر، صمد اثني عشر يوماً، ما كان منه إلا أن فقد عذريته.

وقد استهجن القارئ، أيفقد الذكر عذريته ؟ وإن كانت الكلمة مجازيةً بحته ، لكن الشرف ليس يقتصر على الإناث فحسب.

وتمادى في الأمر وأدمنه، ومن أباحت له نفسه ارتكاب الجنس لن تمنعه من زجاجةٍ يرطب بها فاهه، بل وستجعل له ألف مبررٍ للأمر، ورجلٌ مثله في كامل قواه وبكامل أصفاره التي تكاد تبلغ السبع لن يكتفي بامرأةٍ وبكأسين لفترة طويلة.

رغم كل ذلك، كان - إلى الآن - صلباً لا يفقد توازنه أو ما... أو سمعته، يحدث الأمر ليلاً في أماكن لا تصلها إلا أعينٌ تبغي ما تبغيه عيناه، وفي الصباح، يعود الأمر كأن لا شيء قد حصل وكأن لا مساءَ كان في الليلة السابقة.

أكان سعيداً ؟! لا أحد يعرف، أتتجلى السعادة بأرقام كبيرة في حواسيب في بنكٍ مركزي ؟!أو أيكون مالك مدينة الألعاب مرفهاً نفسياً ؟!أو أقد تكون بضع من الساعات في ممارسة الجنس كافية لجعلك سعيداً ؟!

ماذا تكون السعادة يا ترى ؟ أو ماذا لا تكون ؟ كيف يمكننا أن نملكها؟ أو كيف يمكن أن لا نفقدها ؟!

إذاً أيشتري مدينة الألعاب تلك ، أم أنه كبر على اللعب ؟!

أهي مشروعٌ مربح ؟ على الأغلب نعم، فمن لا يملكون السعادة والرفاهية في هذا القرن اللعين يحرصون على الحصول على القليل المؤقت منها بأقل التكاليف، وهل هناك أسهل من عجلة صدئةٍ تدور بك مراراً وتكراراً علك تلتقط ضحكةً من الجو أو تقنع نفسك بالرفاهية لترسم على خديك بسمة وتصيح ملأ فاهك ؟! أنحن أغبياء إلى الدرجة التي تجعلنا نضحك ونحن ندور وندور ؟ ألم نكتفِ بدوران الأرض وهذه الحروب التي تخضنا وكل هذه المصائب والخوف لنركب في قطار الرعب؟! ألم تكن مشاهد الحرب الأخيرة قاسيةً بما يكفي ؟ أم أننا اعتدنا الأمر وتغلغلت فكرة الخوف داخلنا وأصبحت جزءاً منا ؟!

لا أعرف ما ذلك السخط الذي نزل على هذه البشرية لجعلها تقتنع اقتناعاً راسخاً بأن السعادة تأتِ بمثل هذه الأشياء، وكم نحن

تعيسون إلى تلك الدرجة التي تجعلنا نرمي أنفسنا بين حضني الـ
لنرجوها بأن تهزنا يميناً ويساراً وتقنعنا بأننا لا زلنا نملك الوقت الذي
يكفينا لنبتسم ونكمل الطريق إلى آخره، من ذا يعوض حضن صديق
أو قبلة امرأة أماً كانت أو حبيبة، أأصبح بإمكان قليلٍ من الحديد
والنحاس في هذا الزمن الرديء أن يطبع على خديك قبلة ؟!

يا لتعساء الحظ الذين سيعيشون في القرون التالية، أكاد أراهن أنهم
سيوكلون الأمر كله إلى آلةٍ ستفعل لهم كل الأشياء من الطعام للجنس الى
الدرجة التي قد تصل أن تصلي لله بدلاً عنهم.

***

"بدون موسيقى"

" إذاً سأعود لاحقاً، سيأتي أيمن قريباً " قالت حسناء مودعة جارتها زينب وهي تمشي تجاه البيت، منذ شهرين تقريباً تطورت العلاقة بينهم كثيراً، فحسناء التي وعت على نفسها متأخرة، وجدت نفسها بين أربعة جدران وحيدةً إلا من ابنها، ملت جمودها ورأت في زينب الصديقة التي يمكن أن تخرجها من وحدتها وبرودتها، تراها كثيراً، في كل صباحٍ تقريباً، يحتسيان القهوة، ويتجالسان لنصف ساعةٍ على الأقل.

زينب التي تصغر حسناء بعامين تقريباً، حنطية الجلد، أطول من حسناء بقليل، قليلة البدانة غير مفرطة، انتقلت إلى الحي منذ عامين تقريباً مع زوجها علاء وطفلتيها مرح وجميلة، ومنذ حينها لم تخالط الكثير من الجيران، لكنها رأت في حسناء ما لم تره في غيرها، وحدتها جعلتها تتقرب منها، وتطورت العلاقة تدريجياً.

أزاحت البوابة الخضراء التي تذكرها بباب بيتهم القديم ذاك، يا لها وكأنها تعاقب نفسها باخضرار بوابتها، قليلاً قليلاً إلى أن انفرجت، ألقت بصرها على المدى الممتد، خمسة أمتارٍ من البلاط تمتد على عرض مترين تقريباً، أبيضٌ مموجٌ هو، على اليمين زهرة الريحان التي تسلقت

سور الجيران، وشجرة رمان، على اليسار امتدت على بضع من الأمتار أرض
غير مبلطة، احتضنت شجرتين من الزيتون، كانت واجهة البيت الأمامية
تكشف عن المدخل اليتيم للبيت يتوسط شباكي الواجهة.

تناولت مفتاح الباب من جيب عباتها وفتحته، دخلت البيت
وأرخت ضفائرها وأعطت الحرية للباب بالعودة إلى مرقده، وما أن
جلست على الكنبة حتى تذكرت أيمن وغرفته التي تركتها منذ الصباح،
استجمعت نفسها ونهضت، كان البيت ذا مطبخٍ صغيرٍ مفتوحٍ على الصالة
التي تتوسط البيت، وغرفتين إحداهما لحسناء والأخرى لأيمن.

فتحت باب غرفته، تنهدت، إن الفوضى تغلغلت فيه منذ
صغره، يلقي كبحرٍ أحشائه إلى الشاطئ، بجنونٍ يبعثرها كما كلماته يصنع
بأغراضه، التقطت الجرابات من على الأرض، لملمت أوراقه التي تطايرت
بعد أن تركها على المكتب ونسي شباكه - كعادته - مفتوحاً، أغلقت باب
خزانته، التقطت علبة العصير من على رف مكتبه، تنهدت وتمتمت " يا
ربي".

رفعت يدها اليسرى إلى جبهتها، شدت عليها وتحسستها كمن
يداعب البحر، تطلعت إلى سريره، " إلى متى سيبقى هكذا ؟" قالت،

شدت غطاء سريره، ألقته أرضاً، خرجت من غرفته. اتجهت إلى المطبخ، اصطحبت المكنسة ثم عادت أدراجها، فتحت باب غرفته بعد أن أغلقه هواء الشباك، ثم سحبت برفقٍ الأوساخ التي استوطنت أسفل سريره. منذ فترةٍ بدأت أمه تكشف سره ومخابئه، يخبئ الأشياء التالفة تحت سريره أو وراء الخزانة، جراباتٍ أخرى، ورق، حذائه، فأرة الحاسوب. فأرة الحاسوب ؟! ماذا جاء بها هنا ؟! "صرخت.

وضعت المكنسة جانباً، تحسست سريره ورتبت عليه، أرجعت الوسادة إلى الوراء قليلاً حينما لامست يداها شيئاً ما.

***

" فلننهِ الأمر " قال في نفسه قبل أن يطرق على البوابة .. لكن أحداً لم يجب، انتظر قليلاً قبل أن يعيد الكرة، لكن صبره نفذ بعد المرة الثالثة، فتح البوابة، فأصدرت ضجيجاً، كان البيت وكأنه تركه البارحة سوى الشجرات التي قد طالت كثيراً، و ساحة البيت التي قد اتسخت وامتلأت بأوراق الشجر، بدأت عيناه تتوهان في الأرجاء إلى أن وصل الباب.

أخذ نفساً بعمق، أغلق عينيه ثم فكر بعينيها، فتحهما من جديد، طرق الباب بيدٍ ترتجف، كانت طرقته لم تكد تسمع، قرر أن يكون أقوى، وضع حقيبتيه على الأرض، شد قميصه إلى الأسفل، أخذ نفساً آخر، ثم حزم أمره، رفع يده إلى الباب مرةً أخرى، أرخى جسده وطرق على الباب، انتظر قليلاً، لم يحدث شيء، أعاد الطرق مرةً أخرى، لكن شيئاً لم يحدث أيضاً، زاد في حدة ضربه على الباب، ثم صرخ :" هل أحدٌ هناك؟"، لا من مجيب، انفعلت خلايا عقله مرةً واحدة، وبدأ كالمجنون يتخبط بالباب، كان وكأنه أيقن الأمر لكنه عجز عن تصديقه أو بالأحرى هو

جعل الأمر غير ممكن التصديق، كيف يمكن أن لا يكون ذلك؟ الشجرات الطويلات، البوابة الصدئة والساحة المتسخة ولا أحد يجيب، لا يمكن تفسير ذلك إلا بأمرٍ واحد ..

" ليس هناك أحدٌ في هذا البيت، لقد غادر سكانه قبل عدة سنوات "

قالت إحدى الساكنات في البيت المجاور وهي تمسك بيد ابنها الصغير.

***

"Tristan und Isolde" Wagner"موسيقى

كان شعره الأشقر ناعمٌ جداً ، عيناه زرقاوتان، حليق اللحية، وجهه مطاول نسبياً ، طويل القامة، ذو ضحكةٍ فاتنة، وحلم متراخ.

منذ كان في العاشرة، بدأ يحب الأفلام السينمائية، تطور الأمر أن أدمنها وأصبحت شغفه في الرابعة عشر من عمره، بعد عامٍ ونصف تقريباً ، بدأ يؤول عشقه إلى المسرح تدريجياً ، هو يحب التمثيل على الواقع أكثر بعيداً عن كاميرا التصوير، عُرِضَت أمام ناظريه ثلاث عشرة مسرحيةٍ في ما يقل عن شهرين في بلدٍ قلما تعرض فيه المسرحيات أصلاً ، قرأ روميو وجولييت والأبله حتى كاد أن يحفظها.

كان قد وصل إلى درجة الهذيان عندما أتيحت له الفرصة أن يشارك لأول مرةٍ بمسرحية يعقدها مسرحٌ قريب أخبره عنه صديقه، لم يكن دوره رئيسي أو ذو أهمية، كان مجرد بضع من الكلمات .
" من يحتاج إلى رزمٍ من الأوراق لتكون حياته أجمل ؟!"

قال هذه الكلمات للملك في العرض، كان قد تدرب على هذه

الجملة ما يزيد عن ثلاثمئة مرة، وعندما قالها يوم المسرحية، كان وكأنه وصل عنان السماء.

لم يتمالك نفسه بعدها، بدأ عقله يلتقط الأشياء تدريجيا، يدمنها ثم يتعلمها، كتب لأول مرةٍ نصاً مسرحياً، حاول عرضه لكن أحداً لم يقف بجانبه، اتجه إلى الروايات، قرأ الكثير منها حتى تشبع، أدمن درويش في بداية الأمر، اتجه إلى الأدب الروسي، ثم عاد ليقرأ روايات غسان كنفاني،

ملاحظة : لا تغير الموسيقى قبل أن أطلب منك ذلك.

حاول كتابة أول نص أدبي في وقتها، كانت رداءته مبالغٌ فيها، استمع إلى الأشعار المعاصرة، حاول مراراً قراءة الأدب الجاهلي لكنه لم يستزغ شيئاً منه، اتجه إلى الفلسفة قليلاً، ثم عاد أخيراً إلى الروايات، حينما قرر أن يجرب كتابة إحداها بعد محاولاتٍ كثيرةٍ في الكتابة.

بعد فترة، ذاب في الأمر كلياً، أصبح يكثر من القراءة والكتابة والموسيقى مجدداً، ابتعد عن عادات أقرانه في عمره، لم يكون صداقات كثيرة، في الأغلب كان يفضل أن يتعرف على كتابٍ جديدٍ على أن يتعرف على أحدهم، على الأقل الكتاب لن يهجرك في يومٍ ما، يعلل هو.

وها هو الآن بعد مضي كل هذه السنوات والمسافة، وبعد أن استلم شهادته قبل أيامٍ بمعدلٍ زاد عن الثلاثٍ وتسعين بالمئة بعشرين

يفكر الآن بدراسته المستقبلية، أمه تقنعه بدراسة الطب، والده يرى في الهندسة أمراً مثالياً، عمه الكبير يوصيه بطب الإنسان، وابن عمه يقول له بأن دراسة التجارة ستكون سهلة جداً وسيجد وظيفة بسرعة، أما خالته سمية فتقول أنه مهما درس سيجلس في نهاية الأمر عاطلاً عن العمل لقلة الوظائف، أما هو فالأمر مختلفٌ تماماً.

يفكر منذ فترة حالماً بدراسة الفن أو المسرح، يرى فيه ذاته، ماذا لو تجبّر على العادة قليلاً، هل كان يجب عليه أن يهمل دراسته وأن لا يحظى بشهادةٍ عاليةٍ ليدرس الفن مثلاً ؟! هو يطمح أن يصبح كاتباً ومخرجاً، يقول في نفسه أنه سيكتب نصاً عظيماً ذات يوم ويهديه إلى نفسه ويهديها الشهرة، فكر بالأمر كثيراً، لكن كيف له أن يقنع والديه بالأمر الآن ؟

ترجل من على الكنبة، كانت الساعة قد زادت عن الثامنة ليلاً بسبع دقائق، نادى على أمه، ردت نداءه، أخبرها بأنه يريد الجلوس معها ومع أبيه لمناقشة موضوع دراسته، استغربت أمه من الأمر لكنها وبهدوءٍ نادت أبا محمد.

كان قد عاد إلى كنبته تلك وجلس ملاصقاً قدميه ببعضهما، ووضع يداً فوق الأخرى وأغلق فمه حينما كان والداه يهمان بالجلوس.

نطق الأب : إذاً ، ماذا هناك ؟

- دراستي، قررت ماذا سأدرس.

- الهندسة أو الطب ؟ (قالت الأم)

- ليست الهندسة

- الطب (صرخ الأب)

وليس الطب أبي.

- لا تقل لي التجارة ؟!

- بل المسرح .

***

طلب من سائق السيارة أن ينزله بالقرب من البقالة المجاورة لبيته، اعتاد منذ صغره أن يشتري من هذه البقالة بالذات، عصير العنب المفضل لديه، الشوكولا التي تمنعها أمه إياها، منذ الخامسة اعتاد هذه الاشياء، كما اعتاد وجه أبي أحمد، دخل الدكانة، تناول الأشياء بسرعة كمن يحفظها، لو خيطت عيناه لاستطاع أن يشتري ما أراده، ثم تبسم وهو يدفع لأبي أحمد النقود.

فتح باب البيت على عجل، خلع حذائه، ألقى حقيبته أرضاً ، حينها جاء الصوت صارخاً ، " أيمن، تعال إلى هنا " خفق قلب أيمن، تناول أيمن حذائه كمن يمسك بسمكة، وضعه في رف الأحذية، أمسك بحقيبته

حينما صرخت أمه مجدداً "أيمن "، كان الصوت قادماً من غرفته، في المسافة ما بين الصالة وغرفته فكر أيمن بكل أخطائه منذ ثلاثة أيام، سأل نفسه :" أوتكون علمت أنني لم أنظف أسناني البارحة، أو انني كسرت كأس الماء قبل يومين؟" ، وازدادت دقات قلبه حينما تذكر الفتاة التي خاطبته اليوم، ثم قال " يا الهي، كيف عرفت بهذه السرعة ؟!

شبك يديه وهو يدخل غرفته وقال : نعم أمي.

- إذ أخبرني.

- أقسم أنها من جانت هي وحدها.

- أيمن أتظنني مجنونةً وأصدق هذا الهراء ؟!

- أقسم أمي، كنت أجلس لوحدي، وهي أتت وحدثتني.

- أيمن، كيف لها أن تتحدث ؟! ماذا شربت اليوم، أنت تكثر من الأفلام.

- تملك فم وأسنان أمي.

- من تلك التي تملك فم وأسنان ؟!

- الفتاة.

- أية فتاة ؟!

بهت وجه أيمن، فتح فمه إلى أن بان ثغره، رفع يده اليمنى وحك بها أعلى رأسه ثم قال :" أمي، عن ماذا تتحدثين ؟! "

- عن الصورة التي تخبئها تحت سريرك.

- أمي، أكلُّ هذا من أجل الصورة ؟!

- ألم نتفق على أن ننتهي من هذا الموضوع ؟

- أمي، اتفقت أنتِ وحدك، إنها صورة أبي، من حقي أن أحتفظ بها ولو كان مخطئاً ، وأنتِ ، ألم تنهِ الأمر ؟! لماذا لا زلت تحتفظين بكل تلك الصور إذاً ؟!

***

انتهى الأمر منذ كان أيمن في الخامسة من عمره، والده سامي الذي تزوج حسناء عن شبه حبٍ لم يكن يحتمل مزاجها وتصرفاتها الطائشة وجبروتها، بدأ الأمر بخلافاتٍ صغيرةٍ اعتيادية، لكن حسناء كانت تطلب المثالية المستحيلة، لم تكن قنوعةً بالزوج الذي أحبته، ولا بالحياة المتوسطة التي عاشتها، كانت تطلب السعادة المطلقة، ترى في الزوج عفريتاً يخرج من خاتم الزواج يحملها إلى الجنة بكفيه، كانت تغضب من أتفه الأمور، وكانت وكأنها تطلب من سامي مع ذلك انعدام صفة الغضب فيه وأن يصبح منديلاً يمتص غضبها دائماً، تكاثرت المشاكل إلى أن طلبت الطلاق.

وها هي، أترى أيمكنها أن تخفي تعاستها ووحدتها الآن ؟! كم كانت غبيةً حينما فعلت ذلك، تقول في نفسها أحياناً ، ولكنها كثيراً ما تقنع نفسها أنها فعلت الصواب وأن حياتها هكذا أفضل وأنه من خسرها وليست هي من خسرته، هي أقوى أن تحتاج الى رجلاً لجعل حياتها

سعيدة، ثم تسأل :" كيف هو الآن ؟! أتراه لا زال حياً ؟ أين هو الآن ؟"

لم تسمع أخباره منذ فترةٍ طويلة، راسلها بعد الطلاق بأربع رسائل، اتصل عليها كثيراً، لكنها كابرت أكثر، واختفت أخباره بعدها، فما كان منها إلا أن تركت قريته وانتقلت إلى قريةٍ أخرى مجاورة، تعاقبه بترك كل ما يخصه أو يشبهه، يا لغبائها، تقول في نفسها، سمعت منذ فترة أنه سافر إلى البرازيل حيث يقطن أخوه، وصديقتها القديمة باحت لها أنها رأته يعمل في إحدى الشركات مقاولاً، على كلٍ، هي لا تهتم بالأمر، تقول دائما ، لكن ما يقلقها هو أيمن، ترى أن حقه لا يشمل تذكر والده الذي تركه قبل أن ينطق، نعم لم يكن ينطق قبل الخامسة هو تأخر في النطق كثيراً، وتزيد بأنها الوحيدة التي يجب على أيمن التعلق بها، فهي من أفرغت حياتها له.

أما أيمن، فمنذ فترةٍ بدأ شعور النقص يجتاح ضلوعه وثنايا عقله، حرم هو من كلمتي "أخ" و "أخت" وجوباً، أيحرم من كلمة "أبي" أيضاً ؟! ما ذلك القدر الذي لا يعطيه سوى أمه، هو - مع سلطتها وتجبرها في حياته - يقسم أنه يحبها كثيراً، يداعبها كثيراً، يمازحها، يرى فيه حياته أو يرى حياته فيها، منذ وعت عيناه الدنيا، لم يلتصق أحدهم بعينيه كما فعلت هي، لكنها لا تكفي يقول في نفسه.

استلقى على السرير، بهتت عيناه بالسقف، يدٌ ناعمة [illegible] بالغطاء وجذبته عليه، أمضى الليل بطوله يومها وهو يفكر " أين قد يكون والده الآن، لماذا كتب عليه القدر هذه الحياة ؟" تناوبت الأفكار بين خلايا عقله، تذكر تلك الفتاة وكيف أنه وقف على حافة الاعتراف أمام أمه بعصيان أوامرها، حمد الله أنها لم تراجعه بالأمر، تلى الأمر صورة أبيه، سأل نفسه " ماذا لو لم يفترق والداه ؟ كيف كانت لتكون حياته الآن ؟ " ثم عادت إليه صورة الفتاة مقبلةً عليه تسأله عن اسمه. " لم أعتذر كفايةً للفتاة التي اصطدمت بها خطأً " قال في نفسه، تابع وقرر " لن أذهب إلى المخيم على أي حال ، ستنسى الأمر بعد فترة ولن تتذكرني ".

***

من ذا يزيل عن عينيه عينيه لكي يستريح الآن ؟ من ذا يوقد في قلبه البسمة ويزيح عن كاهليه الحزن الثقيل ؟ أتراه قد تأخر كثيراً لتنتهي قصته بكل هذه السهولة ؟!

جلس هناك لما يقرب الساعتين، لكن ماذا تراه سيبقى يفعل الآن ؟ أمسك بحقيبتيه، وعاد أدراجه كعصفورٍ منكسرٍ وكجندي فقد كل شيء في المعركة سوى نفسه، وكلاجئٍ بقي وحيداً.

صعد إلى سيارةٍ صفراء في منتصف البلدة وطلب من سائقها المغادرة، كان لا يزال يفكر بها، "ماذا تراها تفعل الآن وأين هي ؟" سأل الجارة وقتها عن مكانهما لكنه أجابت بعدم المعرفة، وأوضحت أنها غادرت دون أن تترك أثراً ولا خبراً. حاول استنطاق الجيران لكن لا أحدا يعرف شيئا عنهما، وكأنهما ذابا.

" مع سبق الإصرار والترصد، هاجرت " يقول هو، لم تبقِ و... دليلاً واحداً ليعرف مكانها الآن، الإناث عادة يتركن شيئاً ليعطين للرجال فرصة اللحاق والبحث عنهن، لكنها هي مختلفة كثيراً.

إذاً، وماذا الآن ؟! هل سيبقى بعد كل هذه السنوات وحيداً، في السنوات الأخيرة عمل باجتهاد عله يعود ممتلئ الجيب كي يرضيها، سيسافران معا كما كانت تشتهي هي، سيغير طقم الكنبات الذي أرادت تغييره، وسيشتري شقةً في المدينة ويعيشان هناك كما أرادت أيضاً، كان قد قرر.

أذاً، أينكم ؟!

***

سبع دقائقٍ قبل السابعة إلا ربع، مراهقٌ ملقىً على بطنه، رأسه التصق أعلى يده اليمنى الممدودة، ويسراه التفَّت حول وسادته السكرية

المزركشة بورودٍ مائلةٍ إلى البني الفاتح، وقدماه ممدودتان على طولهما. غطاء سريره فر قليلاً من على وجهه إلى جهة اليمين، يكشف عن وجهه وعن أسفل قدمه اليسرى، على أرضية الغرفة احتل زوج جرابات منطقة ما، بنطال جينز، وكعادته نسي باب خزانته مفتوحاً أو تكاسل عن إغلاقه قبل نومه.

وكعادتها، دون أن تطرق الباب فتحته ودخلت، صوت الباب أيقظ أيمن لكن جسده لم يتحرك، " لم تخبرني ما قصة الفتاة تلك " قالت حسناء بصوتٍ مرتفع، كتمساحٍ هو بالغ بادعائه بنومه ، صاحت حسناء " أيمن " أصر على ادعائه بنومه، وأبقى جسده هامداً، " لماذا تذكرت " قال في نفسه، " أيمن "، رددتها للمرة الثالثة ثم جعلت يديها تفرك كتف أيمن، فتح هو عينيه رويداً رويداً :"أمي ما بك ؟"

- أخيراً نهضت، الآن قل لي، ما قصة تلك الفتاة ؟

- أية فتاةٍ أمي ؟

- البارحة قلت لي أن فتاة جائت إليك.

- من أين جائت؟

- أيمن !!

- أمي كنا نتحدث عن الصورة.

- أيمن ، ما اسمها ؟

- لا أعرف، أقسم.

لا تعرف، أتظنني بلهاء من جديد ؟

أمي صدقاً لا أعرف، كنت جالساً في المخيم وجاءت هي ..

أيمن نحن اتفقنا.

على ماذا ؟

- لا تنسَ أنك وعدتني.

لم أعدك بشيءٍ أمي، لقد بلغت الرابعة عشر من العمر ولا زلتِ تعاملينني كطفلٍ صغير، وحدك من تقررين كل شيء، لماذا ترسلينني للمدينة إذا كنتِ تحبين قريتك إلى هذه الدرجة ؟!

وثارت ثورة حسناء :" أيمن أنا أمك وأعرف مصلحتك " قالت الكلمات وأوقفتها دقة السابعة إلا ربع .

لم تتمالك حسناء نفسها من الغضب حينما أوقعت المنبه أرضاً ثم أكملتط ": لا زلت صغيراً ولا تعرف في هذه الدنيا شيء، لا تكن كأبيك

- كيف لي أن أكون مثله وأنا لا أعرفه بعدما حرمتني منه أمي.

- أيمن هو من تركنا، انتهى النقاش.

- انتهى انتهى .. لن أذهب إلى المخيم إذاً .

- بل ستذهب، خمس دقائق، جهز نفسك.

- إن ذلك استحالة .

***

أوقف جسده أمام الباب لما يزيد عن ثلاث دقائق، بقميصه الأزرق المنغمس داخل بنطاله الرمادي، وحقيبته السوداء ذات الجدري. شَبَكَ يديه وراء ظهر ، جعل صف أسنانه العلوي تقبض على شفته السفلى، وحملق الى الباب، هو كان ينتظر معجزةً أن تحدث ليعود إلى البيت، لو يأته مصباح علاء الدين أو بساطه السحري، لكن شيئاً لم يحدث. أرخى يديه رويداً رويداً ، رفع يده اليسرى إلى أن لامست شق رأسه الأيسر، وأخذت أصابعه بالحركة ذهاباً وإياباً ، ثم عزم أمره، سيغادر، قال في نفسه، أدار جسده نصف دورةٍ على ابتسامة أنثى، جعل أسنانه تعانق بعضها و قد انفتحت شفتاه كثيراً ..

نطقت :_" لماذا تأخرت اليوم أيضاً ؟ ألم تعرف أين الصف مرةً أخرى؟"، وضحكت.

رفع يده اليسرى إلى وجهه وحك بأربعة أصابع وجنته اليسرى، تلعثم قائلا :_

- لا ولكن.

- لكن ماذا ؟

- لا شيء.

- إذاً أدخل، زميلتك تنتظرك، لقد قمنا بتقسيمكم إلى مجموعات وعلى كل واحدةٍ أن تتفق على عرضٍ ما

- ولكن ؟

ولكن هذا !؟

ر شيء.

فكر هو، وماذا سيفعل الآن؟! إن فكرة الأنثى بالنسبة إليه

أصبحت عقدة ً وضعتها أمه منذ صغره، والعقد لديه فكرة ً مستحيلة

منذ صغره إلى الآن مثلا لا يستطيع ربط رباط حذائه، يرى فيه معضلة

فكيف له الآن أن يصنع شيئاً مع إحداهن وأن يتجاوز هذه العقدة؟!

ولكن، المعلمة طلبت منه ذلك، قال في نفسه :" أمي لن تنزعج إذ

المعلمة من طلبت ذلك ".

حقيقة ً، فكر بالأمر كثيرا ً، "ما الضير إذا حادث إحداهن

" قال نفسه، ثم راودته هي، من تكون يا ترى ؟ أتكون تلك الشقراء

التي حدثته البارحه ؟ تمنى لأول مرة لو تعود تلك اللحظة ويحادثها لم

يحدث ذلك قبلا ً، أوتكون ميساء ؟ الفتاة الوحيدة التي يعرف اسمها،

كثيرة الكلام، نرجسية ً إلى حدٍ مبالغٍ فيه، ثم رجى الله أن لا تكون تلك

التي اصطدم بها من غير قصد، لكن الله لم يستجب، قال في نفسه عندما

أشارت المعلمة إليه بالجلوس الى جانبها .

جلس إلى الكرسي، وضع يده اليمنى فوق يسراه، ألصق قدميه

ببعضهما، جعل عينيه تجول في المكان هاربة ً من عينيها، ثم ببطئٍ أدار

وجهه الى اليسار ناحيتها ونطق : " يمكنك طلب تغيير المجموعة والذهاب

مع غيري إذا أردتِ "

ابتسمت وهي ترنو إليهيه :" لقد حاولت كثيرا صدقني، لكن المعلمة لم ترض ".

ضحك هو ثم قال : " يا للحظ ، لم يضعوني إلا معك ؟! ".

أزاحت هي عن وجهها البسمة سريعاً، وحدقت به.

تأتأ وهو يجيب : " لم أكن أقصد، أقصد .. أنني صدمتك وبعدها، لا أقصد هكذا، ولكن لم أكن أقصد وقتها، أقسم، كنت أربط حذائي، لم أكن أربطه ولكن .. اوه ، ما اسمك ؟

- لينا.

- جميلٌ اسمك.

ضحكت هي فأكمل هو حديثه وقد بلع ريقه وأبتسم :" أعتذر ".

كشفت عن ثغرها وقالت : " لا عليك، ولكن، لقد تأخر الوقت كثيراً ، موضوع بحثنا عن جورج كلنتون، سيستغرق الأمر وقتاً ".

- لا، أعرف الكثيرعنه، يمكننا البدء الآن وسنكمل غداً باكراً

- ألن تتأخر كعادتك ؟

- لا سآتي باكراً .

- إياك أن تتأخر، لا أحب عادة أبي في التأخر ..

- حسناً .

- إذا هيا بنا، يجب علينا عمل بحثٍ عنه ومسرحيةٍ قصيرة وقبل ذلك أريد أن أطلب منك شيئاً .

ماذا ؟

- اعقد رباط حذائك، وضحكت.

هو لم ينكر يومها أنها ذات ابتسامة فاتنة، قال يوما أنه وجب على القضاة منعها من الابتسام، إن بسمةً كتلك قد تردي أحدهم قتيلا ، وتسلبه النوم إذا لم تسلبه نفسه. الطفل الذي يحمر خجلاً على أتفه الأمور لم يكن يعلم أنه كان يتغزل بفتاةٍ لأول مرة، وحتى لو كان ذلك بينه وبين ذاته، يقول مدافعاً أمام نفسه عن نفسه، إنه لم يتدخل في الأمر، إن فكرة التحدث مع فتاة أو الاشتراك معها في بحثٍ ما هي هدية من الله، حتى أنه شكر الله في صلاته على ذلك، لم يكن يراهق، لكنه كان يعيش لأول مرة.

ولأول مرة، لم يشترِ العنب كعادته، بل اشترى الصودا، تناول قطعتين الشوكولا لا واحدة.

***

لم يكف ثغرها عن الابتسام يوماً . ابتسمت لرجل الأمن وهي تجر حقيبتها ورائها في المدى المتسع، وكانت فتاةً مدللة، منحها والدها الحلم حقيقة، ولم يقل كلمة " لا " لها بتاتاً ، كما لم يعطه القدر من قبل الحزن المتأصل، كانت حياته حياة رفاهيةٍ، لم ينم يوماً جائعاً أو تعيساً ،

لم يبك منذ أربعة عشر عاما ، لم يبخل عليه القدر بشيء، كانت قد خلقت في فمه ملعقة من الذهب. الطفل الوحيد لأبيه الذي ورث عنه كل ماله، لم يضع مال أبيه أبدا ، بل زاد الثروة ثروة، ونسأل لماذا يزداد التعساء تعاسة إذاً ؟!

لم يكن بخيلاً أبداً، كان ورعا ، منذ أيام شبابه له تفكيرٌ مختلف، هو يبحث عن السعادة، يلتقطها من الأرجاء، لقد كان من العجب لرجل مثله يملك ما لذ وشاء أن يبتسم وهو يأكل أحد الأرغفة في طريقه مع ابنته، كان يخلق البسمة من أتفه الأمور، تخيل أن تدب على شفتيه السعادة لمجرد أنه رأى انعكاس صورته على زجاج سيارةٍ مر بجانبها ؟!

أصابه الحب منذ كان في الثانية والعشرين من عمره، إحداهن رمت سهماً ما والتقطت قلبه لا عينيه فقط، تجرأ على خطبتها بعد أربعة أسابيع من أول مرةٍ رآها في عرضها لمشروعٍ ما كان قد فكر بشرائه هو، لكن الصفقة تغيرت كثيراً، لم يشترِ المشروع ولكنه تزوج عيني امرأة.

لم يتشاجرا يوماً كاملاً ، كانا يملكان شحناتٍ مختلفة تماما ، هي موجبةٌ جداً وهو سالبٌ كثيراً ، يتجاذبان دوماً ، لم يكن ذلك السر العظيم في حياتهما الهادئة، سرهما في هدوئه هو، إن الرجل الهادئ هو من يمنح السعادة لحياته الزوجية، أما الرجل شديد العصبية فيمنحها

الحياة الدرامية، الرجل يخطأ كثيراً، المرأة لا تعترف بخطئها أصلاً، على
كل الحالات، سيكون الأمر أسهل لو تعتذر أنت دوماً.

إن سر الزواج الناجح هو الرجل، المرأة مالكة بيتها وملكته، مزاجية الأنثى هي من تفسد كل شيء، ولاعقلانية الرجل هي من تقوم بالباقي، إذا أردت زواجاً سعيداً بلا مشاكل فلا تتزوج أصلاً، أو كن إسفنجة تمتص مزاجية تلك التي خلقت من ضلعك الأعوج.

إذا أردت حياة زوجية سعيدة ضع الحدود جانباً، و لا تأخذ برأي أحدٍ كيف تجعلها سعيدة، ولا حتى رأي كاتب هذه الرواية، كيف تأخذ برأي أحدٍ لم يجرب الزواج قبلاً؟!

ولكن، عاملها كمن يعامل لوحة فنية، إن كانت سيئة حاول إصلاحها، إن لطختك بألوانها لا تحاول أن ترد الصاع صاعاً، فقط تبسم لها.

أطل النظر إلى عينيها كما لو أنها تملك الجنة فيهم، قل لها أنها الجنة، إن غضبت وصرخت قل لها أنها جميلة وتزداد جمالاً كلما غضبت.

غازلها كما لو كنت شاعرا ، وإذا أخطأت بالغزل قل لها أن الكلمات ترتبك في حضرتها.

وقتئذ، لا تنتظر أن ترد عليك الكلام، النساء لايضعفن أمام الرجل الجميل، النساء يضعفن أمام كلمة جميلة .

وهي كانت خليقةً عن أبيها، تبتسم كثيراً ، كانت بسمتها تزداد جمالا تدريجياً ، لها عينان خضراوتان كعيون أمها، وشعرٌ أشقرٌ غير أملس كثيراً ، قد تلخبط في تكوينات بعضه ليعطيه الفوضى ويعطيها الجمال، وجهها شديد البياض لا يمكن وصفه إلا بأبسط الغزل، كالقمر، وأسنانها حبات لؤلؤ، ليست قصيرةً كثيراً ، لكنها ليست بالطول المفروض لفتاةٍ قد بلغت الرابعة عشر قبل أيام، ليست خجولةً لكنها كثيراً ما تكون هادئة، ليست أنانية، لكنها تحب الحياة كما تحب والدها وكما يحب الحياة هو.

ستسافر إلى أمريكا، مرت ستة أعوام منذ آخر مرةٍ زارتها، ارتأى والدها وجوب نشأتها هنا علها تتعلم العادات والتقاليد ولا تنسى أنها فلسطينية الأصل، لكنها الآن ستستقر هناك، ستدرس في مدرسةٍ في كاليفورنيا، ستكمل دراستها في جامعة هارفرد كما تقول دائماً ، ستدرس الطب، ستكتشف علاجاً أبدياً لمرض السرطان، ستفني حياتها من أجل ذلك.

منذ كانت صغيرة ومنذ أيام عمتها، اعتادت أن تزور مستشفيات معالجة السرطان، أن تطمئن على المرضى، كونت صداقات كثيرة، واعتادت على توزيع الحلويات عليهم، كانت تريد التخفيف ولو قليلا من أوجاعهم، كانت ذا قلبٍ يكاد يكون بجمال عينيها.

***

لنعش حلما آخر، ولتكن حياتنا ورقة شجرٍ تحركها الرياح أينما شائت هواجسها، لنعش عاديين هكذا، لنكن رقماً لا اسم، شعوبٌ مرت من هنا ضاحكة، ونُسيَت بسرعة، فلماذا لا نكون نحن؟!

كم منهم كانوا جملاً زائدة سقطت سهواً وسقطوا وأكمِلَ النص ولم يلحظ أحدٌ شيئاً من نقصانه ؟! كم من غيرهم عاشوا كأنهم لم يعيشوا وكم من سواهم ماتوا وكأنهم لم يكونوا ؟! أنكون نحن ؟!

سبعة مليار إنسانٍ يقطن الكرة الارضية، كلهم يتشاركون الهواء والتنفس والحياة، لكنهم قليلون هم من يحكمون حياتنا، أنكون عبيداً روحياً ؟! أيحكمنا نظام التجارة العالمي ؟ ؟! أنصمم بيوتنا بقرميدٍ كما نراه في الأفلام، أنحتفل بأعياد الغرب أكثر من ما نحتفل بأعيادنا، أيصبح "الكورنفلكس" أكثر لذةً من الزيت والزعتر، أندمن الوجبات السريعة وننسى "المسخن" لأن "المسخن" ليس له " ماركة " ؟! أحدد الآخرون معنى الجمال ليصبح الجمال هو الجسد الفرنسي الخالي من التقوسات

وتصبح الطويلة هي الجميلة والقصيرة قليلة الجمال ويصبح فرضاً علينا نحن الشرقيين محو تقوساتنا الجميلة ولبس الكعب العالي لأن أحدهم رأى وطبع بمخيلتنا أن ذلك هو الجمال والأسمى ؟!أنصبح إمعة ؟! أتكون حياتنا ميسرةً لا مخيرة ؟!

أنحن ميسرون أم مخيرون؟! نقاشٌ طويلٌ سيدور حول ذلك، تخيل أن يخيرك أحدهم بطريقة الذهاب إلى البحر، إما بالحافلة أو بسيارة أجرة أو بالدراجة أو مشياً على الأقدام، أنت ماذا ستختار ؟!

الطبيعيون سيختارون سيارة الأجرة، الموفرون سيختارون الحافلة، الأغباء سيذهبون مشياً ، المثقفون والرياضيون سيختارون الدراجة، لكن الأحرار لن يختاروا أبداً، ألسنا فعلياً نختار طريقة ذهابنا للبحر المفروض علينا فرضاً ؟! ألسنا مخيرين بالطريقة لكننا مجبرون على الفعل باختيارنا؟!

أسمعت من قبل عن وحش المراحيض، عندما تذهب إلى دورة المياه يلاحقك، ويسألك:" أتريد منديلاً أحمراً أم أزرقاً" ، إذا أجبت بالأحمر فأنه يضرب رأسك ويقتلك حتى تمتلأ بالدماء، وإذا اخترت الأزرق، فإنه يخنقك حتى يصبح لون وجهك أزرقاً، أتعرف كيف تطرده؟ قل له باختصار " لا أريد منديلاً".

اثنان من كان هو يرى أنهما يسيران حياته، نظام التجارة العالمي وأمه.
الهندسة أو الطب "، قالت هي وأكملت " ضع التمثيل جانباً ".

- أمي، لماذا أضعه جانباً؟!

- ماذا سيقول الناس عنا ، إبنك أصبح ممثلاً ؟!

- وماذا في الأمر أمي ؟

- انتهى النقاش، الهندسة أو الطب.

الحرية، الكلمة ذات المعنى المجازي إلى درجةٍ مبالغٍ فيها، يفكر هو وهو يضع رأسه على وسادته بكلام أمه، الهندسة أو الطب، ضع التمثيل جانباً، تقول هي، ويفكر، أليست هي من أخذته في بادئ الأمر لمشاهدة مسرحيةٍ قريبة؟! أليست من عرفته على صديقتها تلك الموهوبة وقالت له بأنها كافحت من أجل حلمها ؟! إذاً لماذا تكون الآن عقبة، ولماذا صفقت لذلك الممثل ومنعت ابنها من أن يكون مثله؟! لماذا كذبت عليه من قبل حين قالت بأنها ستعطيه كامل الحرية في اختيار دراسته، كاذبون نحن في اختياراتنا وفي مصيرنا وفي كلماتنا وفي تفكيرنا، وحتى في صلاتنا نحن كاذبون، أتعرف لو أننا كنا نشبه بنوكيو ؟ ولو كانت أنوفنا تطول مع كل كذبةٍ نتلوها، لوصلنا القمر قبل ان تفعل روسيا ذلك.

ثم تذكر قبل أن يغض من عينيه حسرة شيئاً قد كان قرأه لكاتبٍ

مبتدأ يذكر أن اسمه "معاذ جهاد"، تسمى "فكرة البطيخة"، تلخص كل شيء..

بائع البطيخ يصحو صباحاً، يرتدي بنطالاً وقميصاً ثم يمضي إلى السوق أو إلى عربته أو حتى دكانته، وليقنع الزبائن بالشراء، يبحث عن أفضل بطيخةٍ موجودة عنده، حمراء طازجةٍ كبيرة، ثم يقسمها إلى نصفين، ويضعهما في مكانٍ مرتفعٍ نسبياً أعلى البطيخات الأخريات، يأتي الزبون الأول، فتعجبه البطيخة الحمراء الموضوعة عالياً كثيراً، حمراء طازجة يقول في نفسه، ثم يطلب من بائع البطيخ أن يبيعه واحدةً كمثلها، لكنه لا يشتريها، يأتي الزبون الآخر، يفعل كفعلة الأول، فعليا، البطيخة الوحيدة التي تملك صفة استحالة البيع هي الحمراء المقسومة من المنتصف الموضوعة عالياً، الكل يشتهيها، لكن أحدا لا يشتريها، هي تعجبهم كثيراً، لكنها لا تناسبهم.

وهكذا كثيرٌ من حياتنا، سوق بطيخ، نحب شيئاً بأحدهم ولكن لا أحداً يحبه هو، يمكننا أن نرى راقصاً بارعاً مثلاً، سنصفق له كثيراً في عرضه، سنطلب توقيعه ربما، لكن أحداً لا يقبل أن يكون صديقه لأن الناس ترى في الأمر خطئاً، يمكننا أن نرى أحدهم معاقاً جسدياً ولكنه مبدعٌ في أمرٍ ما كالذين نشاهدهم في التلفاز وفي الأفلام كثيراً، سنصفق له حتى تمل يدانا التصفيق، ولكن في نهاية الأمر لا أحد سيبقى بجانبه،

كثيراً ما نرى أفلاماً أو مقالات عن إبداع أو مقاومة لفتاة أصابها السرطان أو جف شعرها أو تساقط، سنصفق لها كما صفقنا فوق بل أكثر، لكن من منا سيرضى أن يتزوج مصابة بالسرطان ؟ والجواب لا أحد. كلنا نعلم أن الضحية في حالات الاغتصاب هي مجنيٌ عليها وليست مشاركة بالجريمة وأنها بريئة من كل ما حدث، ولكن لا أحد يمكنه تقبل فكرة أن يتزوج واحدة اغتصبت مع أنه حدث الآخرين بأنها رائعة كثيراً لأنها حاولت الدفاع عن شرفها وعرضها، يمكن أن نقرأ كتابات شاعرٍ في الحب مثلاً، سننعتها بالجميلة ولكن لا أنثى يمكنها أن ترضى بحبه أو أن تحبه، يمكن أن تعجب إحداهن بصوت مغنٍ إلى درجة كبيرة، لكنها لن ترضى أن تزوجه بابنتها لو فكرت بالأمر قليلاً، هكذا حياتنا، كثيرون هم من يريدون الإبداع ويبدعون ولكن في الأخير سيصبحون بطيخةً حمراء يبتعد عنها الجميع، وهكذا معظم الناس، يريدون نجوماً تحقق شيئاً في السماء بعيداً عنهم، لا أحد يمكنه أن يعيش في السماء، كم فكرة الخوف تغلغلت فينا.

فأغمض عينيه، وكان يحلم أن يصبح ممثلاً.

***

٥- لا تخضع أبداً لقوانين خصمك، العب كأن رقعة الشطرج كلها لك، حاول أن تتعلم كل شيءٍ وأن تتقن كل الأشياء وأن تكون أنت مالك اللعبة لا غيرك، اجعل الخصم يفعل ما تشاء أنت.

بدأت أفكار أمه تلوذ شيئاً فشيئاً من تجاعيد عقله، لأول مرةٍ كان يفعل كل شيء، يحدث فتاةً لأول مرة، يغني أمام الجمع لأول مرة، يمشط شعره وقوفاً، يحلق لحيته، يعتني بتناسق الألوان ما بين قميصه وبنطاله، يتجرع لفاف الدخان، يتأخر للخامسة في أنحاء رام الله، يدخل القهوة، وكل ذلك في غفلةٍ عن عيون أمه، ولأول مرةٍ ، يكون صديقةً أنثى، اسمها لما، فتاةٌ حنطية الجلد مائلةٌ إلى البياض، اضمحللت وزناً وعرضاً ، متوسطة الطول، عينان عسليتان، وشعرٌ بني، تكتسى بنضارتي الرؤية خاصتها، وتضحك وكأن لا أنثى قبلها ضحكت، إن ضحكتها قد تردي أحدهم قتيلاً.

لم يصافحها يوماً ، لم يجلسا منفردين إلا مرةً واحدةً لثلاث دقائقٍ حينما انصرف راجي - صديقه بالمخيم - لجلب الماء بعدما كونا مجموعةً ثلاثتهما، لم يتجولا في أنحاء رام الله كمراهقين متحابين، كانا

مجرد صديقين، فبعد مضي شهر على المخيم الصيفي ذاك، اعتاد هو على طرح السلام صباحاً، بادلته هي السلام والابتسامات، وتطور الأمر شيئاً فشيئاً حينما طلبت الآنسة أن يكونوا مجموعاتٍ ثلاثية، حينها طلبت منه أن يكون بمجموعتها وأصرّ أن يكوّن صديقه معه، في إحدى المرات أخذت طعامها وجلست إلى جانبه، احمرت وجنتاه كعادته، ولكن لونهما بدأ يقل احمراره تدريجياً مع كل مرة.



بدأت فكرة الجنس الآخر تتلاشى من عقله تدريجاً، الطفل القروي الذي تربى على التزمُّت بدأت عيناه تنحرفان عن المسار الذي رسمته أمه، كانت قد رتبت أحلامه وحياته على نهجها الخاص، ولكن الفوضى بدأت تتغلغل في شرايينه، أصبح يكثر من التلفاز ومن الإنترنت، قميصه بدأ يخرج من تحت بنطاله تدريجياً،تمشيطة شعره من إلى وراء بدأت تأخذ صورةً مغايرة، وقد استقرت وقوفاً بعيداً عن عيون أمه، وفي حالتها الطبيعية أمام جبهتها، بنطاله الكتان وبصورةٍ مفاجئةٍ جداً تحول جنسياً إلى بنطال جينز، وبدايات لحيته كانت حليقةً دائماً غير عادته، مواعيد طعامه اختفت، امتنع عن الإفطار صباحاً، غالباً ما يكثر من تناول الطعام في وقت الظهيرة، لا ينام قبل الثانية عشر ليلاً، اكتفى من درويش ومن سميح القاسم وأصبح مهووساً بنزار، يقتبس من كلام نزار في دفاعه عنه بأنه أحب بلقيس حتى الثمالة، وأنه - على رغم حياته

في العشرينات - وحده من أحب امرأةً صدقاً ما بين الشعراء، يرى في الشعراء كذبة، فدرويش لم يفهم حبه إطلاقاً رغم قراءاته له، وهو الآن وليس كعادته لم ينهِ الحب في زمن الكوليرا، عادةً ما كان ينهي كتابه في أربعة أيام، اشتركت له أمه في مكتبةٍ قريبةٍ من عملها وكانت تحضر له الكتب شبه أسبوعياً، لكنه في آخر فترةٍ اكتفى بنزار واعتزل الروايات، بدأ يحب الأفلام الهندية ويعشق الموسيقى الكلاسيكية، هو يرى في الحياة تجربةً جديدة، يمارس الحياة هو كما شائت هواجسه، ولكن بعيداً عن عيون أمه.

كانت عيناه غريبتين جميلتين، فيهما بريقٌ خاصٌ وجاذبيةٌ لا أحد يعرف سرها، " كحلٌ ربانيٌ " تقول أمه في وصف ابنها الصغير، له غمازةٌ منفردة، ولسانٌ عتقت مفاصله أناقةً قبل أن يولد، سره في حديثه.. هذا ما يملكه، كان قصره جلّ ما يؤرقه، من صغره كان يتمنى لو يزداد طولاً كلما ازداد عمراً.. لكن القدر لم يشأ، رغم ذلك.. يملك سحراً مختلفاً ، جعل منه طفلاً محبوباً منذ كانت أصعب مشكلةٍ لديه جمع عددين مكونين من خانةٍ واحدة، وها هو .. الطفل الذي تأتأ بالحديث إلى سن الحادية عشر، يقف ملقياً كلمةً نائباً فيها عن المشاركين في المخيم، تجعل منه - أقصد عيناه وكلماته رغم قلة وسامته - هاجس العيون جميعها، يختتم كلمته قائلاً " كلنا للوطن، عاش الوطن .. " ويصفقون ..

***

ودارت الأرض ألفاً ومئتين وخمسين مرة ، ودار القمر ودار

القدر، وها هي، امرأة بكامل قواها العقلية ترقص فرحةً بزواجها الذي

قد اقترب، ورجلٌ يتقلص من على تلقاء نفسه في عشقها ..

" إذاً فيوم قيامتي ها قد أتى أخيراً " قال أيمن في نفسه وهو يدير وجهه

يميناً نصف دورة ..

" ربما، لو أنك قد جمعت كل ما كسبته في الأربع سنوات واعتشت ع

الزيت والزعتر، لم تكن قد جمعت نصف ثمن هذا القصر " قالت لي

وهي تدخل بسيارتها قصر وليد ذاك.

تكاد مساحة القصر تكون أكبر من مساحة الحي الذي قد نشأ فيه أيمن،

بدأ البيت يكبر وتتضح معالمه شيئاً فشيئاً مع الوقت، ربما هو وحده من

سرق كنزاً من الجنة بامكانه بناء بيتٍ مماثل.

"اثنتي عشر زوجاً، أقصد عدد النخلات".. قالت يارة.

" بل ثلاثة عشر زوجاً يا صديقتي" أجاب أيمن.

ضحكت لينا : " لا زلنا على نفس اللعبة، ثلاثة عشر .. ولكن لا أعرف ك

أحصيتهن يا أيمن وأنت تخاطبني ؟! "

- الأوركيد !؟ جلنار ؟! يا له من عاشق، كيف عرف أنك تحبينها؟

- قال لي أنه اكتشف ذلك بعدما تعرفت عليه مع أنني لم أبح له بالأمر

يوماً ..

***

٦- قد يموت الوزير في بداية اللعبة، لا تتوقف عن اللعب، أكمل ولو بجنديٍ قد يصل خط النهاية ويصبح وزيراً من جديد.

"موسيقى 'Devil's Trill Sonata"

سألته : وقتلته ؟!

أجاب : لو كان بإمكاني لفعلت .. من سرق روحي مني أليس من حقي أن أسرق روحه أيضاً ؟! ألستِ من قلتِ لي يوماً بأن العين بالعين والسن بالسن ومن يعشقك سيموت قتلاً ؟!

- لكنني أنا المتهمة بقتله الآن ..

- هو وحده ؟! كم من غيره قتلته دون ذنب؟ كم من بسمةٍ خاطئةٍ أزاحت عن هذه الدنيا سبعين رجلاً ؟ وأنا من يواري بقايا مملكتي ويحاكمك على عصيانك وتمردك ؟!

- هل هذا وقت جنون مفرداتك ؟! ألا تعرف أن حبل المشنقة الآن ينتظرني ؟!

- ألم تقولي بأن الحياة أصغر من أن ترسم وجوهنا خبزاً يابساً ؟! الموت؟! ما معناه ؟ اقتلي الموت .. تمردي عليه، خونيه إن خانك، وعندما تدركين أن

الأمر اقترب كثيراً، غادري هذه الحياة بإرادتك .. انتحري .. اقتليه لذلك الأحمق المسمى بالموت، ستطول الليلة أكثر، لتصبحي سندريلا وتعودين من قبرك، تمردك وعصيانك على الموت سيغيظه ويعيدك.

- عصيتك أنت ولم تغتظ، بل غفرت لي.

- أأتقنتُ دور اللامبالي إلى تلك الدرجة ؟!

- ألا زلت تحبني إذاً ؟!

لم يعرف ماذا يقول لها، أيقول لها أنها لم تمت من ذاكرته للحظة؟ أيقول لها أن السماء كانت تذكره بها ؟ علب الشمينت، رقمه الجامعي، موظف البطاقات، بائع الترمس و"الحيايا"، أيقول لها أنه عشق الكنافة لأجلها مع أنه يكره الجبن ؟ أيقول لها أن اسمها يلاحقه حتى في الرسوم المتحركة ؟من " عدنان ولينا" ، أيقول لها أن القمر والقدر وكأنهما استقالا من منصبيهما وجعلا من إغاظته باسمها وظيفةً لهما ؟!

- إذاً ماذا تريدين أن تأكلي ؟

- سم.

فتح أيمن سترته، واستخرج من جيب سترته الداخلية علبة الأكامول تلك، ووضعها على الأرض، " تفضلي، أنهي الأمر بسرعة، استمتعي به "

- ألا زلت تحملها ؟! ألا زلت تفكر بالانتحار ؟!

- ما بين الفينة والأخرى .. أشتاق للمحاولات الطائشة تلك، قلتَ لك، المبدعون يموتون انتحاراً.

- ضمنت لك موتة طبيعية إذاً.

- إذاً، هل ستشربينها أو أحضر لك بعضاً من الطعام؟

- أفضِّل الطعام صراحةً.

- التقط أيمن نفسه وأنفاسه ونهض، ولم يكد يمشي خطوتين إلا أن صاحت لينا :_

- أيمن.

- سأجلب "الشمينت"، دون أن تقولي.

وضحكت ..

لاحظت لينا نسيان أيمن لعلبة " الأكامول" تلك فالتقطتها ووضعتها بحقيبتها ..

كيف حدث الأمر، تسأل لينا نفسها، لقد كلمته قبل نصف ساعة، والآن هو ميت، أكاد أقسم أن أيمن من قتله، هي فعلته، مجنون هو.

فما أن هدأت عجلات سيارتها وأوشكت على التوقف حتى رن هاتفها، تناولته ثم أجابت، تلعثمت ببعض الكلمات، أطفأت محرك

السيارة، وما أن فتح أيمن الباب صرخت هي " ماذا ؟ .. أيمن أغلق الباب"

- عفواً ؟

- أيمن أغلق الباب بسرعة.

- ماذا بك لينا ؟

" قلت أغلق الباب بسرعة " صرخت، ثم أدارت وجهة السيارة على ثمان عشرة درجةً ، لتغادر ساحة القصر، لم تكن تدرك وجهتها وكأن كل ما احتاجته في تلك اللحظة هو الهروب.

نطقت يارة بعد دقيقةٍ واحدة : ماذا هناك لينا ؟

- اسألي أيمن، قالت صارخة.

- " ماذا تسألني " أجاب ايمن.

- منسق الحفلات أضحى منسقاً للموت ؟

لينا ما بك.

- أسألي أيمن.

- لينا ماذا هناك ؟

- عندما أسلمك للشرطة ستعرف ما الأمر ؟

- لينا اهدئي، قولي لي الآن ما الأمر.

- وجدوا وليد مقتولاً في شركته، أختي اتصلت وقالت أن الشرطة تبحث عني، وجدوا بصماتي على الجثة

- يا إلهي.

- انا أعرف من قتله.

حدق إليها أيمن ثم أكملت لينا : "يا لجرأتك، ألم تستطع أن تصبر أكثر ؟"

- ماذا ؟

- أنتَ قلتَ لي، أنك لو تعرف من سيتزوجني قبلك لقتلته، والبارحه عرفت من هو، يا لعجلتك، ألم تستطع أن تصبر أكثر؟ قتلته بكل تلك السرعة ؟ لا تفكر إلا في نفسك ؟ اليوم تأكدت أنك مختلٌ عقلياً.

- لينا اهدئي.

- سأهدأ عندما أسلم هذا المجنون للشرطة.

- مجنونةٌ أنتِ، سيعتقلونك، وإذا سلمتني، ماذا ستقولين، غازلني قبل أربع سنوات وقال أنه سيقتل من يحبك بعده ؟ أديري عجلة السيارة دون جنونٍ أرجوكِ.

***

٧- حاول أن تتوقف عن محاولاتك الكثيرة في الاستسلام، أن تخسر خيرٌ من أن تستسلم.

أكانت تحبه ؟ تسأل نفسها، وتجيب :" لا لم أكن أفعل، كنت محتاجة ً لأعوض نقصا ً ما، وها أنا أصل ذروة النقص الآن، يا لحظي البائس، أينقلب عرسي إلى جنازة، والعروس هو البطل في كلتي الحالتين ؟ وأنا قاتلته لا زوجته ؟!أم أن الله كان مبالغا ً في حرصه علي ولم يرَ في الزواج إلا زيفاً لأنثى كرهت الذكور لكنها احتاجت أحدهم لتقنع نفسها بأنها سعيدة ؟! ".

أتحتاج الأنثى لرجلٍ لكي تسد نقصا ً ما ؟ نعم تحتاج، أيحتاج الذكر لأنثى ليسُدَ نقصا ً ما ؟! لا، لا يفعل، إن الذكر فيه من النقص ما لا تستطيع سده كل إناث الأرض، إن غبائه مستفحل، لا تلوموا حواء على إخراج آدم من الجنة، وإن كانت تملك شيطانا ً بداخلها ولكن لنكن واقعيين، إن شهوته في الطعام من أفقدته عقله وأخرجته من الجنة، شهوته سلبته جنته، الأنثى وإن كانت مزاجية ً بالفطرة ولكنها لا تفقد السيطرة على نفسها إذا ما كبتت شهوتها بعكس ذلك الشهواني، امنع

الطعام عن أنثى وامنعه عن الذكر، الأنثى ستبقى أنثى، والذكر ستنطبق عليه نظرية دارون في التطور وانقلابه رجوعا وقتها.

أكلُّ الأمر لأجل تفاحةٍ لا أكثر ؟ الخطيئة الأولى التي أنزلتنا من جنات الفردوس العظيم ؟ نعم كل الأمر أننا نعود لخطيئتنا الأولى مرارا وتكرارا ، نعود إلى تكرار نفس الأخطاء، تلك الدائرة المغلقة من البلاهة التي يعيش فيها هذا الشهواني الأحمق قليل السيطرة على نفسه. يعود ليأكل من نفس التفاحة ثم يعتذر على بلاهته وهو لا يدري أن ألف رطلٍ من التفاح لن تكفر خطأه وقتها.

تنكمش هي على نفسها، أحاطت كلتي يديها على ساقيها وضمتهما إلى صدرها، رفعت رأسها إلى أعلى، دقت عينيها بالسقف، تفحصت المكان كطبيبٍ يتفحص جرحا ً غائرا ً، وعند تقاطع البحر مع جبلٍ هامدٍ بين البحرين، فاض البحران، نمت رويدا ً رويدا ً عليه قطرة، ودعتها برفق، أوصتها على أخواتها وطلبت منهم عدم الإطالة ولحاقها بسرعة، ثم غادرتا المكان، رويدا ً إلى أن تاهتا بغابات تفاحٍ وركضتا هربا ً كليلى الحمراء، رفعت هي إحدى يديها برفق، تحسست خديها، ورمتها إلى لا مكانٍ ما، نعم .. لقد كانت تبكي، أنزلت رأسها إلى أن تراخى على أطراف يديها.

أكانت تحبه لتبكي عليه؟ لا لم تفعل، إن فكرة الموت حزينة بذاتها، لو قتلت نملة أمام عينيك فإن شيئا من الوجع سيتسرب إلى أعماقك، كانت تقول مقنعة نفسها في وقت ما أن ذلك استحالة. تسأل نفسها وماذا الآن ؟ لماذا يسطر الموت تاريخا بائسا في أشد لحظات الحياة السعيدة المرجوة زيفاً ؟!

الموت، تلك الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف والكثير من الوجع.

نهاية البداية ولعنة القدر المحتم وحظ الفقراء ومصيبة الحالمين **طويلاً** وأمل البائسين والجائعين.

رفعت رأسها على وقع خطى أحدهم متجهاً صوبها، كان أيمن، تبسم، أزاحت بيدها اليسرى رطوبة وجهها وتبسمت، كان هادئاً إلى درجةٍ مبالغٍ فيها، وضع بعض الأكياس على الطاولة، بدأ يفتحها واحداً تلو الآخر، ونظر إليها : " إلى متى ستبقين جالسةً على الأرض ؟! ألم تهدئي بعد؟ " لم تجب، جعل يرتب الأشياء على الطاولة هنيهةً وأخرى يتطلع إليها، ويبتسم.

كانت قد هدأت كفراشةٍ نامت للتو، وذابلة كطفلٍ ناعسٍ، وجميلة كتفاحةٍ طازجة، ابتعد عن الطاولة، أرخى جسده على كنبةٍ قريبة.

إلى من هذه الشقة ؟

لصديقٍ ما، طلبت إعارتها لفترةٍ ولم يمانع.

ألن يجدونا هنا ؟

بل سيفعلون، في أقرب وقتٍ ممكن.

وضحك.

ثلاث كنباتٍ سكرية اللون صنعت شبه قوسٍ حذَب باتجاه التلفاز، ممرٌ متسع ينتهي بمطبخٍ صغيرٍ اتسع لطاولةٍ تتفوقه صغراً، وما بين المطبخ والكنبات السكرية ممرٌ لغرفتين يفصل بينهما حمام، في أعلى الممر تقبع ثريةٌ أنيقةٌ علقت بها أربعة مصابيح وثلاثون زجاجةً بلورية، تقابل المصابيح صورة رجلٍ شائبٍ كبيرة علقت بجانب الكنبات.

نطق :_

- تفضلي، كلي ما تريدين، بالتأكيد أنت جائعة.

- وأنتَ ألستَ جائعاً ؟

- لا، لا أريد، على كلن سأجلس خارجاً الى أن تأتي يارة.

قالها وهو يعقد بطرف قميصه العلوي، ثم شده إلى أسفل - أقصد قميصه - وامتطى نفسه وسحبها خارجاً.

تبسمت لينا على ذكرى قديمة، عندما دعاها في يومٍ ما إلى تناول الطعام بعد محاضرةٍ ما، لكنه لم يتناول من الطعام إلا القليل.

سألته :

- ما بك ؟

- لا شيء، لقد شبعت.

- ولكنك لم تأكل شيئاً بعد ؟

- عسل عينيك كافٍ.

سألت نفسها:" أتراه لا يزال منذ أربع سنين ينتظر رشفة أخرى ؟ أم تراه في تلك السنوات اكتفى من العسل وملّه وتغذى على لوزةٍ ما انغمست بعيون إحداهن أو تمرةٍ ما ربما ؟ أو تفاحةً بخديها ؟! " لم تكن تدري أن نحلةً من الجنة عاشت بعيني إحداهن وأن ذلك الغجري أقسم أن لا يحتسي إلا من عينيها، وتراه الآن يكاد يموت جوعاً، إن قلبه قاحلٌ لا بطنه.

أرخت قدمها اليمنى، ودفعت بيدها اليمنى واتكأت بيسراها على قدمها اليسرى ونهضت، اقتربت من الطعام ولكن شيئاً ما منعها أن تلمسه، اتجهت إلى الباب، فتحته، كان يتكئ على وسط درجةٍ ما في المبنى، أغلقت الباب، نزلت إلى أن وصلت مستواه، ثم جلست بجانبه، رفع رأسه ثم أداره يميناً إلى أن ساواها، وأزاح نفسه إلى اليسار قليلاً. قلصت هي من فتحة عينيها، وفتحت فمها قليلاً وحدقت به :

- أيمن، ماذا هناك ؟

- بماذا ؟ لا شيء.

- لماذا ابتعدت ؟

- تبسم، أخاف أن تخطئ يدي مرةً أخرى، ومن ذا يستطيع بعدها إقناعك أن الأمر حدث خطأً ؟! لنبقِ بعض المسافة ما بيننا ..

- كانت تدرك الأمر، إذاً .. فهو لم ينسَ شيئاً، قالت في نفسها، إن نسيان الأمر استحالة، سحبت نفسها ونهضت.

***

٨- حتى تربح اللعبة، رتب جنودك منذ البداية، لا تجعل أي من قطعك يقف منفرداً.

"موسيقى The Isle of the Dead"

"كيف كان هو من قبل؟" تسأل نفسها وتتذكر.

" توقف على اليمين لو سمحت " قالت هذه الكلمات قبل أن تبدأ السيارة تباطؤها إلى أن توقفت، ترجلت منها وصديقتها، وأغلقت باب السيارة، أدارت وجهها وتبسمت، ردت لها لينا البسمة.

" لقد كان يوماً رائعاً " قالت يارة.

- ومتعباً، بعد أن تنهدت وألصقت بتنهيدتها ابتسامة .

- كيف هي بداية الجامعة معك ؟

- جميلة، ولكن..

- ولكن ؟

- لا أعرف، لم يمضِ غير بضعة أيام، لكنني مللت من الفيزياء، والمختبر متعب. توقعي من صادفت اليوم ؟

- من ؟

- أتذكرين أيمن ؟

لا توقف الموسيقى قبل أن أطلب منك ذلك

- أيمن .. أيمن ، لا أعتقد.
- كان قد شاركني مخيم صيف قبل سنوات وأخبرتك عنه
- القصير المزعج؟
- ضحكت، نعم هو.
- أين صادفته ؟
- بمختبر الفيزياء.
- ولكنه أكبر منا، كيف يأخذ محاضرةً معك ؟
- لا، هو لا يأخذها، هو يعطيها.
- لم أفهم.
- إنه يعمل مساعداً للفيزياء بالإضافة إلى دراسته.
- اه .. لقد فهمت، إذاً يمكنه مساعدتك مع أنكما لم تكونا أصدقاء أبداً.
- أعتقد ذلك، هو شخصٌ طيبٌ بغض النظر عن حماقته

" إذاً ، ستأتين عندي اليوم أليس كذلك ؟" قالت هذه الكلمات بعد أن وصلت إلى مفترق بيت لينا.

- نعم ، بعد أن أدرس قليلاً .

- حسنا ، أراكِ الليلة .

إلى اللقاء.

تبسمت، أسرعت بمشيتها قليلاً إلى أن وصلت باب المنزل، كان مغلقاً، طرقت عليه، أعادت الطرق ثانيةً حتى فتحت لها ياسمين الباب. ياسمين، التي بدأت لتوها عامها الأخير بالمدرسة، بدأت تتأوه من الملل الذي أصابها، ترى في الدنيا فرصةً أخرى للحياة، تحبها كما تحب والدها أو أقل قليلاً ، لكنها منذ فترة بدأت تنزعج منه، فاهتمام الأب بابنته الكبرى المدللة بدأ يغيظها، مع أنها - لينا - مقربةٌ كثيراً عليها، لكن الغيرة شيءٌ في الإنسان لا يمكن نزعه.

وضعت حقيبتها جانباً، واتجهت إلى غرفتها، حينما نادت باسمها أمها، التفتت إلى اليمين، كانت بهدوءٍ جالسةً هناك، تبسمت .. فردت لينا بسمتها واتجهت إليها.

- كيف كانت جامعتك ؟

- جميلةٌ جداً ومتعبة .

- متعبة ؟ لم تبدئي بعد.

وضحكت ..

- بدلي ملابسك، سيأخذنا والدك لزيارة جدتك.

- حاضر، بضع دقائق فقط.

ريما، ذات الوجه الحنطي، مملوءة القوام، متوسطة الطول، ذوعيون سمكة، بنت إحدى القرى بمدينة الخليل، التي تزوجت شاباً من رام الله زواجاً تقليدياً، يمكنها القول - بغض النظر عن المشاكل الصغيرة ما بين الحينة والأخرى - أن زواجهما كان ناجحاً، منذ اثنين وعشرين سنةً، ورغم تقلبات الحياة وعدم الاستقرار ما بين أمريكا وفلسطين، وما بين رام الله والخليل، كان زواجهما مستقراً هادئاً نسبياً، زوجها الذي اختاره القدر والحظ، كان هديةً مغلقةً من السماء، كيف كان لها أن تحضى بآخر أفضل منه ؟! حدثت نفسها كثيراً لكنها كانت تقول دائماً أن ذلك استحالة.

***

" ألم يكن القدر قادراً على أن يكون أقل ظلماً ؟ ألم يكن بإمكانه أن يعطيها أفضل منه ؟" تقول وهي تمسح مكتب أيمن وتطلع إلى صورةٍ وضعت هناك.

كم كانت السنوات عقيمةً منه ؟ أيمكن لرجلٍ أن يكون بارداً الى هذه الدرجة وأن لا يسأل عن ابنه حتى بعد كل هذه السنوات ؟! أيمكنها أن تنكر خيبتها وعجزها الآن عن استراجعه أو الحصول على آخر ؟! تمردت مشاعرها منذ فترة " ولكن " تقول في نفسها ثم تكابر " بدون

ولكن، هو من أخطأ وطلقني ".

خرجت من غرفة أيمن، وضعت قطعة القماش جانباً ، وتذكرت صديقتها نورة، ستأتي لزيارتها بعد قليل، فتحت باب الثلاجة، كانت فارغة من الزجاجات، فكرت: " أقد نسي أيمن أن يشتري العصير البارحة ؟!" خرجت من المطبخ، توجهت إلى غرفتها، غيرت ملابسها، ثم تركت بعدها الصمت يجالس البيت، خرجت من بوابة البيت، اتجهت إلى اليمين على عجالة، مشت ما يقرب عشرين متراً ، حينما وصلت دكانة العم أبو أحمد، لم تدخلها منذ أكثر من شهرين إلا مرتين، وفي كليهما لم تلبث هناك طويلاً ، عادة ما يتكفل أيمن بشراء حاجيات البيت.

دخلت المتجر وكأنها لم تدخله قبلاً ، كانت كثيرٌ من الأشياء التي تغيرت عن ما كانت تذكره، لكنها استطاعت بعد أن طرحت السلام على الرجل الذي يقبع خلف طاولته - أن تصل إلى الثلاجة، تناولت علبة عصير، وأتبعتها بعلبةٍ من الشوكولا، واتجهت إليه، كان شائباً صامتاً ، حدقت به، وكأنها تعرف تلك العينين قبلاً ، تبسمت له، بعد أن أرجع لها باقي ثمن العصير والشوكولا، غادرت الدكانة بعد أن وضعت بمخيلتها علامة سؤال.

***

٩- إن وصلت الملكة إلى قعر بيتك، لا تقف مكتوف الأيدي، حاول بقدر استطاعتك أن تطردها، كفَّ عن الحب المبالغ فيه أرجوك.

لم ينم أيمن ليلتها قبل الرابعة، جرثومةٌ ما غيرت تكوينة حياته، منذ ثلاثة أيام شيءٌ ما يحدث، إن هذا الفتى ذي التسعة عشر عاماً، تغير كيانه في ثلاثة أيام، " لقد وقع في شباك عينيها " يقول في نفسه، أقد سرق شيءٌ ما من جانبه الأيسر فوق بطنه ؟! يسأل نفسه ويقر بالاستحالة، لا شيء يسمى الحب، أمه اقنعته بذلك منذ كان صغيراً، وإلا فما كان أبوه ليترك أمه، إذاً وإلا، شيءٌ بداخله يسأل:" لماذا علقت تلك الأنثى بحافة عقلك الداخلية ؟ سخطاً، لماذا يستحيل طرد صورتها من عينيك ؟! أتراها تعششت فيهما ؟".

أتعرف تلك اللحظات عندما تفكر في شخصٍ أو أمرٍ ما إلى الدرجة التي يلتصق فيها في كل الأشياء، أن يصبح اسمه مقدساً ومتجليا في كل الأشياء، أن تصادفه كثيراً كما لم يحدث من قبل، أن يخرج لك كجنيٍ من كل مكان، ستراه في كل الأشياء أو سترى كل الأشياء فيه، سيلاحقك لتصبح أشبه بمجنونٍ يركض ذعراً من اسمٍ أو رقمٍ، أن تصبح

كل الأشياء تنطق باسمه، وأنت ضحية الأشياء جميعها.

خضوع الطبيعة لك أو خضوعك لها في الحقيقة، التكامل ما بينكما، أن تصبح الطبيعة صديقتك التي تمازحك بهذا الاسم وتعلقك به أكثر، ستراه في الإعلانات، على أرصفة الطريق، في أسماء المارة، في الأفلام التي تشاهدها صدفة، في محل الخضراوات إن لزم الأمر، في الكتب، لن تكون مصادفة أن تقرأ هذا الاسم في هذه الرواية بالذات، ألم يلتصق بعلقك اسمٌ أو رقمٌ من هذه الرواية طاردك كثيراً قبلها ؟! أرجوك أنطق الحقيقة، كن واضحاً كالشمس، لا تخف ..

ألم يحدث معك هذا من قبل ؟ تذكر الاسم الذي لاحقك في أخر مر[illegible] الحب، أن تصبح كل الأشياء تصدح باسم ذلك الكائن.

فكرة الحب من نظرةٍ واحدةٍ فكرةٌ مغفلة، ولكن فكرة الحب تلاصق الإعجاب دائماً، يصعب التفريق بينهما في البداية، ليسا توأمين إطلاقاً، لكنهما الاثنين أعميان، هما الاثنان من يجعلاننا نرغب بالمضي قدماً في حياتنا، إن وجود أحدٍ يشاركك حياتك سيجعل لحياتك معنى، لكن المجتمع يرى أن أي علاقةٍ بين ذكر وأنثى هي محرمة، تقول أمه وإن فكرة الحب مستحيلة.

كل المستحيلات جائزة، وإن الحياة أصغر من أن تستحيل أنوثة

، كن ذكراً بخصيتين اثنتين واصنع ثالثة إذا لزم الأمر، كان يؤمن هو:" ما الجنس ؟ولماذا خلقنا الله ذكوراً وإناثاً ؟ ألإشباع رغبةٍ حيوانية أنانية ، إذاً .. كان يمكن أن يخلقنا بجنسٍ واحدٍ يستطيع إشباع رغبته بنفسه، يملك العضوين الذكري والأنثوي، لو كان الأمر هكذا، مجرد شهوة وغريزة حيوانيةٍ لما حرم الله بيوت الدعارة التي تشبع تلك الرغبة بأقل التكاليف ولكنا شهوانيين فقط".

تزعم أمه في دفاعها عن الزواج التقليدي - مع أنها لا يمكنها البتّ بأن زواجها هي كان تقليدياً بحتاً - بأنه أصلح وأقدر على حياةٍ مستقرة، وبأن حالات الحب عادةً ما تلوذ إلى الانكسارات الموجعة، تزيد بأن الرجل الذي يقبل بأنثى قد حدثته قبل زواجهما كيف له أن يستقر بالاً بأنها لم تحدث قبله أو لم تحب أحداً سواه ؟! منذ فترةٍ وهي ترى بجميلة ابنة صديقتها نورا تلك الفتاة الهادئة التي لا تكاد تنطق فتاةً مناسبةً لابنها، نورا التي لا لم تحدث شاباً رغم أنها تدرس في نفس جامعة أيمن كانت الفتاة المثالية بالنسبة لأمه، كانت تراها ملاكاً بلا أخطاء، كانت منزهةً باعتقاد أمه أو قريبة إلى أن تصل إلى تلك الدرجة.

يسأل نفسه هو : " إذاً، أأتزوج أنثى لم أحدثها قبلاً ولم أفهم طبيعتها على أن أتزوج أنثى ربما قد حدثت أحداً سواي ؟ وما الخطيئة

العظيمة التي اقترفت إذا طرحت أنثى السلام على ذكر ؟! أنكون شهوانيين إلى تلك الدرجة التي تجعلنا نفكر بالجنس لأربعٍ وعشرين ساعة ونفكر فيه حتى في كلمة امرأةٍ طرحت السلام عليك، أنكون شهوانيين إلى تلك الدرجة ؟! إذاً، فلتحرّم علينا تلاوة سورة النساء ومريم وسورة يوسف، فهي تغرينا بالجنس الآخر وتلك معصية، أنكون شهوانيين إلى تلك الدرجة ؟! إذاً لم يخطئ فرويد ..

عبثاً يحاول أن يصحو من حيرته، يراود نفسه عن **نفسه، يفتت** الذاكرة، فيفنى هو وتبقى هي، يخلع من عينيه عينيه، **ويرتدي شيئاً** من تلمود الحياة، ينسقها مع بنطال الجينز خاصته، **يمشط شعره، يلتقط** بقايا نفسه المهملة في ثنايا غرفته، يزرع حذائه قدميه ويمضي.

وبيرزيت، تصحو مع السابعة، ترتدي حجاب الطبقات، وتتعرى إلا من الصدف البحتة، قهوة أبي أحمد أو "كابتشينو" الماكنة، من يلتزمون محاضراتهم يومياً، ومن يكملون دوامهم في كافتيريا الآداب، من ينغلقون على أنفسهم ومن ينفتحون على الدنيا، إختر ما تحب بناءً على ما تريد أن تكون أو على ما تريد أن تظهر أنك تكون عليه، أن تعيش على حقيقتك أو أن تكون برجوازياً مثلها، هو أمر بمن تجالس وأين تجالس وكيف تجالس ..

وهي امرأةٌ فاتنة، وجب على القضاة منعها من الابتسام، لأنها تحدث الكوارث إذا ابتسمت، قد تردي أحدهم قتيلاً، أو قد تسلبه النوم ليلتها إذا لم تسلبه نفسه. نعم، لم ينم ليلتها قبل الرابعة صباحاً وهو يفكر :" أوجب عليه السؤال عنها بعد تلك الحادثة ؟ أوجب عليه القول ولو مرحباً ؟" عندما رآها البارحة، تلوثت أفكاره بعينيها، كان وكأنه يحتاج إلى أن يتسمم ببعضٍ منها، يحتاج لكلمةٍ أخرى منها لتقتله أو تعيده إلى الحياة، أن يبقى معلقاً هكذا هو أكثر الأشياء وجعاً، أتعرف تلك اللحظات عندما يعلق الإنسان على حبل مشنقة، هي أشد عليه من شنقه.

أرسل برقيةً إلى نفسه ودعاها إلى عقد اجتماعٍ طارئ، وفي الطريق الطويل ما بين بيته وجامعته، نصف ساعةٍ أو أكثر قليلاً، أصدر مرسوماً حُفَّت جوانبه بظل عينيها، وأول بندٍ فيه، أو البند الوحيد فيه، أنه قرر بعد كل تلك المشاورات أن يقول " مرحباً ".

انتهت محاضرة التاسعة، انتعل نفسه وخرج من كلية العلوم، هي ستكون في كافتيريا الآداب، قال في نفسه، لقد رآها هناك قبل يومين، ستأكل كثيراً من البطاطس كما تفعل دائماً، ذلك الشاب ذو اللسان الذي غمس بالمفردات تعفنت مفرداته وهو يحاول البحث عن واحدةٍ قد تكون مناسبةً ليحادثها بها.

في الطريق ما بين كلية العلوم والآداب، تذكر كل شيء، كيف تشاجر معها في أول مرة، وجهها العبوسي، جورج كلينتون، تأخره عن موعدها آخر مرةٍ بعد أن وعدها بعدم التأخر وبعد أن أوقعت أمه منبهه أرضاً، وإنقاذها إياه حينما كان طفلاً ينسى نفسه إذا لم ينسى مفرداته، وأخيراً ضحكتها تلك التي أفقدته الشهية وسيطرت عليه قبل أيام وسرقت منه ذاته.

لكنها - ضحكتها - لم تكن موجودةً هناك، أطال رمي سنارة عينيه في كافتيريا الآداب، لكنها لم تصطد سوى خيبة الأمل، خرج من كلية الآداب، كمجنونٍ هو، بدأت عيناه تتخبطان في الأرجاء، من كلية العلوم إلى كلية التمريض، مشط الجامعة في بحثه عنها، لكن الحسرة كانت تعريه وتغتال ثباته، هو وكأنه اكتسى الفقدان بعدها، هو لم يملك شيئاً ليفقده أصلاً، أترى بسمة أنثى قد تكفي لتشعل فيك الندم على لا شيء ؟!

أمضى ذلك اليوم متقوقعاً متوحداً منغلقاً على نفسه، ذلك الفيزيائي أصابه الشغف بحل لغز تلك البسمة التي التهمت وجدانه وأوقدت فيه حساً، لكن عزاء نفسه كان اقتناعه بأنه سيراها في محاضرة الفيزياء لا محالة.

شيءٌ ما بداخله تشوش، هي وكأنها أسقطت قلبه بعدما أسقطت

كرة البندول تلك، كيف يعشق الفيزيائيون ؟! يسأل نفسه، وأصلاً هل يسمى هذا حباً ؟ " أكانت ساعةً من العمل على تجربةٍ ما كافيةً لتلقي شيئاً في عينيك وفي قلبك ؟! "يسأل نفسه ويجيب "هو إعجابٌ ليس إلا "، ثم يتسائل" ولكن لماذا لم يحدث هذا مع فتاةٍ أخرى منذ عامٍ كاملٍ ؟ " يتلبد، ويعيد سؤال نفسه " أيولد الحب بساعة ؟ " نعم كنت تعرفها، ولكن كنتما طفلين وقتها، وما كان بينكما هو الشجار، والآن ماذا ؟!

في عودته، ناداه خالد ليشرب الشاي معه كما فعل البارحة، في خلال ثلاثة أيام أصبحت صحبتهم قوية، سأله عن جامعته، أجاب بدون شغف، أدرك خالد حينها أن أمراً ما يحدث ، ثم سأله " ماذا هناك ؟!". ولم يعرف أيمن حينها ماذا قد يجيب، أيقول له أن عضلات قلبه تمردت عليه ؟ ثم أكمل " لا شيء، مجرد لا شيء ".

وسأل نفسه وهو يعد فراشه قبل النوم :" هل هناك شيءٌ حقاً ؟! أم أن الروتين يصنع المعجزات؟ ما الخطب يا أيمن ؟ إن الفيزيائي أقوى من أن تحكم دقات قلبه قوانين امرأةٍ أو عيناها ".

***

١٠ _ أسرع الطرق لإنهاء اللعبة هي "نابليون" ، لكنها قد تقتلك إذا كان الخصم ذكياً، العب بكل قوتك حتى مع أضعف اللاعبين.

كانت قد تأنقت بما يكفي لجعل شاعرٍ يكتب بها معلقة، لقد ازدادت طولاً وجمالاً .. عيناها خضراوتان مشبعان، وحلق أنفها كان دقيقاً، أسنانها قد ابيضت كثيراً، وجهها ابيضّ بما يكفي ويكفي لجعلها تصبح قمراً ،وقد غزت أسفل وجنتها اليمنى شامةٌ فجعلتها شهية، شعرها المصبوغ بالأسود قد تعانقت غصلاته وضمتها رابطةُ شعرٍ كلها ببعضها، كانت قد ارتدت قميصاً زهرياً، بنطالاً أسوداً وحذاءاً أبيضاً برباطٍ قد نسقته مع لون قماش قميصها.

لم تكن مدعوةً إلى موعدٍ غرامي، ولم تكن قد جهزت نفسها للتبضع أو لزيارة صديقةٍ ما، بل إلى مشفى السرطان .

كانت قد اعتادت المهجر كما يقول والدها، يوقن هو أن العودة حتميةٌ لا نقاش فيها كما الوجود، حاول هو كثيراً في زياراته الكثيرة أن يستقر لكن ظروف عمله كانت تجبره كل مرةٍ إلى الرحيل، يرى في نفسه سمكةً قد تشبثت بشبكة الصيد وهي تدرك أن الماء مرقدها الأخير. إذا

أيبقى في تشبثه إلى أن ينهشه الموت ؟

كان قد قرر أن ينشئ ابنته في الوطن، أن يجعل قلبها وعقلها على الأقل فلسطينيين، يعتز هو بفلسطينيته، لم يغفل اجتماعات الطائفة أو حفلاتهم هناك يوماً، لم يقف ساكناً وهو يرى تحركاً ما باتجاه قضيته ها هناك، لم تخلُ مسيرةٌ لأجلها منه ..

أما هي، فلم تكن قد تشبثت كثيراً بفكرة الوطن، ما كان يشغل عقلها هو السرطان.

منذ أن رأت دمعات عمتها وهي تقاوم السرطان باكية، أقسمت بأنها ستقتله كما قتلها، كانت قد اعتادت على زيارة مستشفى الأورام شهرياً على أقل تقدير، حتى بعد أن سرق المرض عمتها، لم تنقطع عنه، كانت قد كونت الكثيرين من الأصدقاء الذين بدأت وجوههم تتجدد، الموت يسرق أحدهم، المرض يأتي بأحدٍ آخر، والشفاء يصنع كما يصنع الموت.

كانت قد أقسمت بالقضاء عليه مرةً أخرى وهي ترى عجوزاً تبكي على تساقط غصلات شعرها البيضاء .. إن أجمل ما تملكه الأنثى جسدياً هو شعرها، تخيل أن تفقده، إن فقدانه أقسى من السرطان بكامله.

وها هي الآن، حتى في غربتها لم تغادر حلمها، تزور المشفى أسبوعيا، تبحث عن الأمر كثيرا إلى أن أصبح يؤرقها، ستنهي عامها هذا لتدرس الطب، كانت قد قررت .

لم تكن امرأة - رغم جمالها- جل ما يشغلها هو ما ترتديه، كم من الحمرة يجب أن تضع، ولم تكن تهتم بطول ضفائرها كما تهتم بطول حلمها، كانت تقرأ بما يكفي لجعلها تدرك أن الحياة بسيطة جدا.

***

١١- فكر بكل خطوةٍ تخطوها، لا تجعل أيَّ جندي من جنود الخصم يوترك، كن صبوراً ولكن حافظ على الوقت، في منتصف اللعبة ستشعر بالهذيان، خذ نفساً بعمق، وأكمل دنياك كأن لا شيء قد حصل، وكأنك للتو ولدت.

"موسيقى Hans Zimmer - Time"

إذاً، أينغمس الآن في ذاته باحثاً فيها عن بقايا وطن ورمش لامرأة ؟ أيموت القدر في اضمحلالنا أم نحن من نعطيه حق تقرير النهاية؟!

جميلٌ ذلك القدر الذي جمعني بك يا لينا، وتعيشُ أنا بوحدتي معك.

عينان تقطران عسلاً، شعرٌ طويلٌ كمفاوضات السلام وكصواريخ الأباتشي التي تقطع ألف ميل، لتقتل سبعين رجلاً، وجهٌ ابيَضَّ جمالاً لا هزيمة، تلطخه بعض الحمرة التفاحية فتجعل من وجهها وطناً يشتهيه الغزاة.

وكان اسمه أيمن، شاب لم يكمل العشرين بعد، يبحث في عينيها عن كينونته، أصابته الشيوخة المبكرة، لذا ما تراه كثيراً يحدث نفسه عن تجاعيد وجهه، وعن فتاةٍ أضاعها قبل خمسين سنة، وعن صدفةٍ كسرها

خطأً فكسرت قلبه خطأ.

أشعل هاتفه وهو يتكئ على سور بيتهم منتظراً السيارة التي تقله إلى الجامعة " لن تأتي " قال درويش وأكمل " قلت ولن .. إذاً سأعيد ترتيب المساء بما يليق بخيبتي وغيابها " وضحك أيمن واستهجن، ثم نطق " لا أعرف كيف أمكن لدرويش أن يرتب المساء من دون القمر".

" ماذا حدث ؟ " قال في نفسه :" هل أخطأت مرةً أخرى ؟! لكننا لم نتشاجر بتاتاً يومها، أأزعجتها كرة تلك التجربة مثلاً ؟! "

لم يخطئ ، لكن القدر لم يشأ أن يمنّ عليه بها في وقتها، ربما أراد له أن يدرك الأمر، إن الفقدان يعلمنا الحب، كان أيمن قد رتب هيأته الجسمانية كما لم يرتبها من قبل، لكن القدر زرع الفوضى بين غصون عقله وقلبه معاً، هو أعاد ذكر اسمها ثلاث مراتٍ وهو يأخذه ما بين الحضور والغياب، لكن أحداً لم يجب، بحث عنها في أروقة الجامعة كما قتيلٍ يبحث عن قاتله، لكن سخطاً، هو بعد أن رأى عينيها لساعة، كان قد قرر اسم ولده الأول، الذكور أغبياءٌ جداً، والإناث عيونهن أشد فتكاً من القنابل النووية.

" أيمن " ناداه العم خالد.

تبسم أيمن وهو يتجه إليه، ولكن خالد كان يدرك أن هناك خطباً ما، فخطوات أيمن لم تكن سعيدةً كما اعتادها، سحب إليه كرسياً قبل أن يصل.

أيمن: السلام عليكم.

- وعليكم السلام، أهلاً أيمن، ألم تأتِ السيارة بعد؟

تذكر أيمن درويش وهو يجيب "لا"، ما زلت أنتظرها منذ أسبوعين، أقصد منذ عشر دقائق.

- اجلس، انتظرها ها هنا، والآن قل لي.

- ماذا أقول ؟

- ما توجب قوله.

- لا أعرف عن ماذا تتحدث.

- ما اسمها ؟

- كيف عرفت أن الأمر متعلقٌ بأنثى ؟

- السعادة المطلقة أو التعاسة المطلقة عادةً ما تكون ورائهما أنثى، ماذا حدث ؟!

***

١٢- كبر حجم الفيل لا يضاهي قفز الحصان، حافظ على نشاط الحصان في داخلك.

"موسيقى Camille Saint-Saëns - Danse Macabre"

" تمرد على الأمر وخنه يصبح الأمر طوعك "، لا أعرف من أي كتاب ألصقت منه هذه الكلمات وانبثقت في عقله الآن، لكنه قرر التمرد والخيانة. إذاً، غادرت وخانت الصدفة، قم بدورك الآن وخنها، هي كانت تزعجها قمصانك المفتوحة، افتح كل قمصانك، اشرب عصير العنب كما لا تحب هي، هي تحب درويش، اهجُ درويش، تحب الكنافة، إذا لا تتناول الجبن، تكره السلطة ؟ إذاً " لو سمحت أعطني صحناً من السلطة دون الجبن رجاءً " قال موجهاً الحديث لعامل الكفتيريا، أكثر من ما لا تحب هي فتلك خيانتها، وغازِل كل امرأةٍ تراها ، قل لكل امرأةٍ أنها جميلة حتى ولو لم تكن، اكذب على كل النساء، عاقب كل النساء على جريمتها هي. " تلك الفتاة جميلة " قال في نفسه وأكمل :" هي أجمل من تلك التي رحلت وتركتك فارغاً إلا من نفسك "، ونسي أنها تركته بلا عينين ليرى غيرها، وتركته بلا قلب ليعشق سواها.

على بعد ثلاثة أمتار، تغزل بها، إلى متى ستبقى ذلك الذكر المؤدب الذي يخجل من ظله ؟! إلى متى ستطيع أمك ؟" قال في نفسه وأكمل " إنها أول مرةٍ في حياتك قد تحادث إحداهن وأنت لا تعرفها "، أخذ بيد نفسه، وتجرع شيئاً من الجرأة، سيتحجج بأنه طالبٌ جديدٌ مثلاً ولا يعرف الطرق ويطلب من تلك الجميلة أن تدله على الطريق مثلاً.

خطى خطوتين والثالثة، ثم أدارت هي جسدها نصف دورة، والتفت إليها، ثم صرخ بداخله " أيخون أحدهم الموت مع الموت نفسه ؟! ".

لنعد إلى النص الإصلي، نعم، لقد كانت هي، صديقان أو أقل قليلاً، وقع الصدى من عنق إحداهما والتقطه الآخر، أصاغه حيث شاءت مراكبه ثم رماه للهوى، وها هو بعد إسبوعين تقريباً، يعودان إلى مجد الأندلس، صديقان على مدخل كلية العلوم.

التقت العينان كما النص المفروض لجعل القارئ أكثر اهتماماً، شعرها أقل فوضى من ما كان عليه قبلاً، والحمرة خفيفة جداً، وجهها يجعل منها فتنة، ويجعل الطلاب ينسون أنفسهم إذا لم ينسوا التنفس، لذا ومن يومها ومدخل كلية العلوم مزدحم.

تقدم خطوة، تقدمت خطوة، أتعرف تلك الحروب التي توشك أن تقع؟ الخصمان خائفان من البداية، كان ذلك وقع صدى أحذيتهما. تحدث داخلياً " بربك لم أحضّر نفسي لهذا اللقاء المفاجئ ".

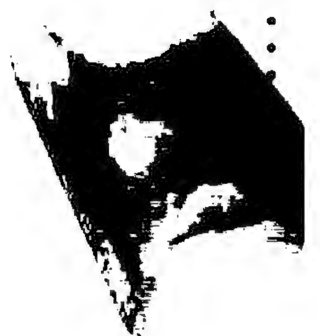
خطوةٌ أخرى وسينتهي الحاجز، ستدق ساعة الصفر، لينطق أحدهما بشيءٍ ما، قل لها أنك نسيت قلبك مع دفترها عندما أردت أن تشرح لها مسألةً ما وقت التجربة، قل لها أنك اشتقت لصوتها المتشبع بالأنوثة وضحكتها الفاتكة، قل لها أن ترجع "الشيقلين" خاصتك عندما اشترت شيئاً بعد المختبر ودفعت أنت، رجلٌ شرقيٌ يعزم أنثى على "شيقلين" ؟! كم أنت وقح، لا لا تقل لها ذلك.

والآن بعد كل هذا الحاجز من الصدى والمسافة، أصبح الوضع أقل يسراً للحديث وأكثر إرباكاً، تلعثم، تلعثمت، أدار و-هه إلى اليمين ، أدارت وجهها إلى اليسار، ثم نطق :_

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام، أهلا أيمن، كيف أنت ؟
- الحمد لله بخير، إذاً لماذا لم تأتي إلى محاضرتيِّ المختبر.
- أخذت إذناً من الدكتور غسان، غبت لبعض الوقت عن الجامعة لأمرٍ ما.

" لقد أخذت إذنا من الكتور غسان ولكنك لم تأخذي إذناً من قلبي" قال أيمن في نفسه.

***



١٣ استمتع في دنياك، أقصد الشطرنج (ودنياك أيضا)، حتى لو كنت تدرك أنك ستموت فيما بعد، إنها لعبة وليست أكثر.

"موسيقى Berlioz Symphonie fantastique"

كانت الطفلة ذات الفستان الوردي التي لم تبلغ من العمر أربع سنين بعد تركض فرحة وهي تنتهش شعرا قد ماثل فستانها في لونه، الألوان تملأ الأمكنة كلها، مقاعدٌ خشبية هنا وهناك، الأشجار قصيرة القامة، ومن يضحكون، كان صوت الصراخ والموسيقى يملأ الأرجاء، طوابيرٌ من الأطفال والمراهقين وقليلٌ مِن مَن يكبرونهم سناً يصطفون منتظرين دورهم ربما في لعبة السيارات الكهربائية أو اللعبة الدورانية تلك التي تجعل قلبك يدور خوفاً قبل أن يدور جسدك.

كان الجميع وكأنهم وصلوا قمة السعادة إلا أحدهم.

إذاً فهو لم يكبر على اللعب، ولم يكبر على المجازفات الكبيرة، ذلك الحزين اشترى مدينة الألعاب كاملة، لكنها لم تعريه شيئاً من حزنه ولم تكسوه بسمة، اشترى ما يزيد عن خمسين بيتاً لكنه لم يكون عائلة

في أحدهم، قبّل وعاشر كثيراً من النساء لكنه لم يشعر بالأمان في حضن إحداهن، كانت سعادته تنتهي بعد أن تُشبَعَ شهوته، كان قد امتلك شركةً لاستيراد السيارات لكنه لم يذهب في نزهةٍ بأيٍ من سياراته تلك، كانت السيارة السوداء تلك التي اعتادها وكأنها قد حفظت الطريق غيبا ، البيت ، مدينة الملاهي، المكتب في إحدى عماراته، القهوة أو الجنس في آخر السهرة، والبيت مرةً أخرى. إن السعادة التي تقاس بأرقامٍ كبيرة من ثمانية أصفارٍ تخزن بذاكراتٍ في بنوكٍ يمكنها أن تزال نهائياً بكبسة زر.

ما السعادة ؟ من أين تأتي وكيف ؟!

كان أحدهم قد أخبره يوماً أن المال يجعلك سعيداً ، ومن يومها إلى هذه اللحظة، أفنى حياته في جمعه، ولكنه الآن لا يستطيع المراهنة أكثر والقول أنه وصل شيئاً من السعادة.

بدأت تعاسته الكلية قبل فترة عندما قرر أن يتوقف ويرى حياته عن بُعد، كانت روتيناً أحمقاً ، جرب أن يغير، الطعام ربما يجلب السعادة، قال في نفسه، لم يبقِ نوعاً من الطعام إلا جربه ولم يبقِ مطعماً إلا توحَّدَ على طاولةٍ مُلِأت بشتى الأصناف، عبثاً كانت، شَعَرَ بعض الأوقات بالسرور، لكنه كان يزال تلقائياً ما أن يمتلأ بطنه.

جرب أن يسافر قبل فترة، لكنه أمضى أسبوعي إجازته في التأفؤف وفي معاتبة مرشده السياحي. كان قد أحب السيارات وملك منها الكثير، لكنها وبعد فترة لم تنجب أي شيء من السعادة أو تقذفه مع دخانها.

امتطى الأحصنة، حتى اشترى واحداً. زار البحر إلى أن عرفه البحر، وكان وكأنه قد حجز كرسياً أبدياً في السينما. لم يبقِ معلماً ترفيهيا إلا زاره، لكن عبثاً محاولاته ذهبت سداً.

"الجنس سيجلب السعادة " أقنع نفسه، وبدى الأمر ممتعاً في بادئ الأمر، لكنه الآن أصبح يشعر بالمهانة وهو يضع النقود في حجر إحداهن كي تسمح له بتحقيق شهوته.

الحب ؟! أهذا ما تسأل عنه أيها القارئ ؟! " كلا "يجيب هو . منذ كان في الجامعة، كان يرى في الحب أكبر كذبة، وهم الحب ووهم الصداقة هما من يجولان في خاطره دائماً.

ما الحب ؟! أن ترى في امرأةٍ كيانك المفقود وأن تحب امرأةً لذاتها لتلقِ عليك الرحمة وتبادلك الشعور ؟! أي سخافةٍ هو ذلك القدر الذي يجمع دائما اثنين مرةً واحدة !؟ أصدفة أن يحب أحدهم إحداهن

وأن يكون القدر رائعاً إلى ذلك الحد ليجعل منها تحبه هو بالذات ؟!
يا للسخرية، ولو افترضنا حدوث ذلك، فيا للطافة القدر التي تمن على
العشاق دوماً بالحب المتبادل.

أليس هذا ما يسمى بوهم الحب ؟! أن يقول أحدٌ لإحداهن
بأنه يحبها وبسرعةٍ يدق قلبها بعد فترةٍ لتجد نفسها قد بادلته الشعور
؟! ألسنا كاذبين بادعائنا الحب لحاجتنا له ؟! لذلك الوهم الذي يقنعنا
بأننا قادرون على الحب وأن لا أحد أفضل منا، رغم أننا بداخلنا نوقن أن
الحب - كل الحب - ليس إلا وهماً نلصق به نفسنا ونصدقه.

فتاة الأحلام تلك أو فتى الأحلام، لو تضع ورقةً وقلماً وتبدأ
حساباتك السريعة لتبحث عنه أو عنها وتضع مقومات حبك لإحداهن،
ستجد ما لا يقل عن اثنتي عشرة فتاة - إن كنت تعيس الحظ مثلي وتطلب
مواصفاتٍ خارقة- تلائمها شروط فتاة أحلامك، وأنت بكل سذاجتك تقرر
أن تلك الفتاة التي تبسمت لك صباحاً أو أوقعت قلمها عمداً أو خطئاً
هي فتاة الأحلام التي قد وردت في نصوص كتابك المقدس ذاك.

والأصدقاء، تلك الكلمة الفارغة إلا من الكذب والهراء.

إذاً .. أنحن تعساء في هذه الجلبة كلها ؟! إذا استطعت القول الآن بأنك تملك السعادة فأنت إنسانٌ محظوظٌ جداً للقدر الذي يجعلك قادراً على التوقف عن قراءة هذه الكلمات الفارغة والتافهة بالنسبة إليك.

أما هو فكان مستعداً لإنفاق نصف ماله الى للذي يهديه شيئاً من السعادة التي فقدها أيام شبابه .

***

١٤- لا يهم كم من القطع قد قتلت من العدو، بقدر ما يهم كم تغلغلت في داخل مساماته.

"موسيقى الثلاثي جبران_مجاز"

ما ذلك القدر الذي لا يسمح بأن تتلاشى نوتات صوتها من ذاكرته ؟ أن يصبح اسمها شيئاً مقدساً واعتيادياً، شيءٌ مثل أغنيات فيروز الصباحية، ومثل قهوة أبي أحمد على المدخل الشرقي للجامعة، وكالضرورة التي تجعلك تتأخر عن محاضرات الثامنة صباحاً، يصبح اسمها متطلباً إجبارياً لا مساقاً اختيارياً، ذلك اليوم صحى من نومه بعد حلمٍ طويلٍ كانت هي بطلته، فتح "الفيس بوك" ودون وعيٍ بدأ يبحث عنها فيه حتى وجدها ، ألقى التحية على صورتها، جعل يحدق بها، أطال النظر وكأنه ينتظر منها أن تتحرك، هو يحتاج إلى أية إشارةٍ ليجعل من نفسه ملك النص، استيقظ من فراشه، أحب لو يستمع للأخبار، لا يستمع هو عادةً ولكن شيئاً ما بداخله جعله يشغل المذياع، صاح المذيع والان مع إحدى صديقات الصفحة لينا، ثم اكتشف بالصدفة أنه اشترى علبة عصير كتب عليها لينا، في السيارة التي تقله إلى الجامعة إحداهن تنادي

صديقتها لينا، أتعرف ذلك الشعور الذي يجعلك تشعر بأن كل الدنيا قد خلقت لتكون أنت محور الخلق كله ؟!

ألم تفكر ولو للحظة أن كل هذه الدنيا قد خلقت من أجل رمشك أنت وأن كل الأشياء ما هي إلا بلاستيك يتحرك تباعاً لك ؟! وأنك أنت من تعطي الشيء الوجود لا وجوده هو، ألم تفكر بأن كل ما يحدث ما هو إلا مسلسلٌ دراميٌ أنت البطل وباقي البشرية كاملة ما هي إلا ممثلون يستريحون من نصوصهم بعيداً عنك ؟ ألم تفكر ولو للحظة أن أبويك مثلاً لم يخلقا إلا ليكونا أبويك لا شيء آخر، وأنهم مثلاً عندما تخرج من البيت يُطفَؤون تلقائياً ويعاد تشغيلهم عند عودتك ؟! وأن ذلك الصديق الذي انتهت علاقتك به مثلاً سيجلس الآن في مكانٍ ما دون أن يفعل شيئاً لأن حياته قد اقتصرت وقتها على حياتك أنت ؟! ألم تشعر ولو للحظة أن القدر عجوزٌ مزاجية الطباع فتراه يوماً يجعل الأشياء تسير على هواك أنت ولأجلك أنت ولمصلحتك أنت وفي يومٍ آخر، سيصبح حتى أبريق الشاي عدواً لدوداً لك.

ما الصدفة أن تشتري خطأً علبة بسكويت قد كتب عليها لينا، أو أن تكون المتصلة لينا أو أن تقرأ في إعلانات الشوارع اسم لينا. أما هناك عند المدخل الشرقي للجامعة كانت لينا ولكن بنظارتي رؤية، التفت إليها

حينما نادت عليه :ـ

أيمن، صباح الخير.

أهلا لينا كيف حالك ؟

الحمد لله.

- والجامعة ؟

- جميلةٌ جداً، لكن الفيزياء معقدةٌ قليلاً.

- قلت لك أنا جاهزٌ إذا ما احتجتِ إلى أية مساعدة.

- أنا أحتاجها حقاً، هل يمكنك أن تشرح لي بعض المسائل اليوم ؟ هل يمكنني دعوتك إلى شرب الشاي في العلوم مثلاً ؟

- بالطبع نعم، كيف لي أن أرفض ؟ ولكن من دون نظارات الرؤية تلك أرجوك.

- نظارتا الرؤية ؟! حسنا، إذاً الثانية عشر مناسبة لك ؟

- نعم بكل تأكيد.

" أذاً نلتقي، أراك على خير " قالت هذه الكلمات واتجهت إلى مدخل كلية العلوم، أخذ هو يلتقط بقاياها المهملة على أرصفة الطريق إلى أن تجرع آخر بواقي ظلٍ لها، كان يتنفسها حينما تذكر أن محاضرة ما تشغله على الثانية عشر، ولكنه سرعان ما قال في نفسه :" لن يضر غياب واحد، منذ دخلت الجامعة لم أضع محاضرة، أولا يحق لي أن أدفع جزية عينيها محاضرة ؟! "

وما بين السابعة والنصف والثانية عشر، مرت الأربع ساعاتٍ ونصف وكأنها ستون سنة، هو أعاد مراجعة كل مفرداته كي يحدثها، وكل قوانين الفيزياء، هو فعلياً أعاد مراجعة كل الأشياء لكن قلبه وعقله تمردا وتفرغا إلا منها.

وهناك في كافتيريا العلوم، جعل عينيه تتشربها وكأنه لم يرها من قبل. وإن الجميلات عندما يرتدين نظارات رؤية وكأنهن جنديٌ أهدي مدفعاً، لم تكن جميلة، كانت فاتنة أفقدت لذلك الفيزيائي عقله، كانت عيناها جميلتين إلى الدرجة التي جعلته يحتار إلي أي واحدةٍ ينظر وقتها. ساعة وبضعٌ منها وكأنها تصبح خمس دقائقٍ في حضرتها.
" إن الوقت نسبي " يقول أيمن، " وإن امرأةً مثلها قادرةٌ على جعل حتى الوقت يرتبك ".

***

١٥_ استمر في التوغل في العدو، لا تبحث عن وزيرٍ ما قد يرسم البسمة على شفتيك بقدر ما تهتم بأن تنجز.

"موسيقى franz liszt - liebestraum - love dream"

صحت مع الخامسة، كان كتاب الليلة الفائتة قد انزلق من يديها واتخذ الارض مرقداً له، كانت لم تزل ناعسة لكن حلمها يؤرقها، لقد أدمنت الاستيقاظ باكراً، تقرأ ما لا يقل عن كتاب في كل ثلاث ليالٍ، هي تدرك، أن الحياة رغم بساطتها ليست بكل تلك السهولة، لكن في الفترة الأخيرة، بدأت تشعر بقليلٍ من الدواخ ووجعٍ في الرأس، ربما لأنها تقرأ كثيراً، تعلل هي.

منذ فترةٍ نضجت، كبر عقلها فجأة، واتخذت الأشياء بمنطق.
كم كبرت ؟! " كبرت بما يكفي لتتزوج " تقول أمها، هي طُلبت للزواج مراراً، لكنها دائما ما كانت تصرُّ على أن تكمل تعليمها، ولم يكن والدها يصرُّ عليها ولو بكلمة.
رغم أن حلمها في محاربة السرطان ذلك هو جل ما يؤرقها، لكنه

ليس السبب الوحيد في امتناعها عن الزواج، وليس عدم وجود الزوج المناسب هو السبب أيضاً، فامرأةٌ جميلةٌ مثلها قد أتيحت لها الكثير من الفرص، لكن كل الفرص كان سببها مخالفاً لاعتقاداتها بتاتاً.

" ابحثي عن الرجل الذي يحبك لأجل جمال عقلك، لا لأجل جمال مؤخرتك، وقبل ذلك، اصنعي عقلاً لك " كانت تلك العبارة التي صنعت منها حياتها.

أن تكوني امرأة، يعني أن تجعلي ذاتك منفردةً لذاتها، وأن تعيشي لإرضاء ذاتك لا لأجل إرضاء من حولك، كوني أنتِ أنتِ واحملي عبأً حياتك وحدك، لا تجعلي نفسك تحتاج أحدهم، إن أكثر ما يستطيعون فعله هو التجديف بقواربهم على دمعاتك.

لا تنتظري أن تنقلب حياتك فجأةً رأساً على عقبٍ بالزواج، أنتِ ستتزوجين رجلاً لا عفريت مصباح صلاح الدين، ولا تنتظري أنه يشن أحدٌ بجيشه الحروب من أجل رمشك، إن زمن الألياذة قد انتهى وإن هيلين قد ماتت منذ زمن، شني أنتِ الحروب في حياتك، بل فلتكن حياتك حرباً واصنعي الأوديسا لكي تنجي.

إذا قبلت أن تكوني في النهاية آلة تفقيس بيض لتنجبي ألفاً من

الأقزام ثم تمضين حياتك في إطعامهم وكسوتهم وإطعامهم مرة أخرى ثم تموتين، أو أن تكوني آلةً لإشباع رغبة زوجك الأنانية الذكورية فهذه حياتك، وصدقيني لن أجلس بجانبك لأبكي.

في النهاية ابحثي عن الرجل الذي سيسألك عندما سيدخل البيت متأخراً عن يومك وإنجازاتك، لا تبحثي عن الرجل الذي سيسألك " ماذا أعددتي للعشاء ؟!"

كان قد أصابها الدوار بعد كل هذه التفكيرات، قاومت النعاس كثيراً قبل أن تعد فنجان قهوتها الصباحية.

إن شيئاً ما يؤلمها.

***

في الطابق الثالث من مكتبة الجامعة كان هو، يرتدي شيئاً منها، ويطلق كل الأشياء سواها، كان قد غرق في رواية الحب في زمن الكوليرا وهو يرى مصرع أحدهم، لم يعرف لماذا انغمست في عقله فجأة، كان قد اعترف وأيقن الآن بعد كل تلك المنازعات بينه وبينه أنه أحبها، كتب شيئاً على الصفحة تلك، ثم ما كان منه إلا أن فكر برؤيتها، هو وكأنه انقطع من الهوروين فجأة، قرر أن يراها لا محالة، إنه يحتاج

إلى جرعةٍ أخرى منها، ستكون هي في الطابق الثاني من الهندسة في هذا الوقت، صار يدرك مواعيدها كلها، سيمر وكأن الأمر كان صدفةً لا أكثر، هو الآن يعترف بأنه أخطأ حينما اعتنق حبها، هو فقد الإرادة منذ حينها، ولم يحصل من الحب سوى على الوجع والجنون، هو يعترف بأن كل العيون غيرها هي بضائعٌ مقلدة، ولكنه يوقن الآن بأنه فقد ذاته مقابل لا شيء.

رن الهاتف فقطع شريط ذكرياته، صديقةٌ قديمةٌ تدعوه لأن يجلس معها مع مجموعةٍ من الأصدقاء في" المجمّع "، تعذر لكنه لم يلتصق به كثيراً، فهو على موعدٍ أقره هو مع امرأةٍ لم تُدعَ إلى موعدها، تلعثمت خطاه، وأوقعت أفكاره أرضاً، وعند مدخل كلية الهندسة قرر أن يتنازل عن الحرب التي أقرها هو، وأن يرى مجموعة الأصدقاء القدامى، هو يدرك أنه لن يعرف النطق أصلاً في حضرتها على أي حال.

وصل المجمع بعد خمس دقائق، التقط كرسياً أصابه التوحد قليلاً بعد ان ابتسم للمى، وهناك كان يتكئ مازن، ذو القامة الطويلة، الشعر الأملس، العينان الزرقاوتان، بدون لحية، والبسمة الجميلة، كان صديقاً قديماً من أيام سنته الجامعية الأولى، أمضيا بعضاً من الوقت مع بعضيهما لكن الوقت جعل صداقتهم تخف تدريجياً، وها هما، التقيا

بعد مدةٍ طويلة، منذ شهرين تقريباً لم يصادفه، إلى جانبه كانت تقبع فتاةٌ ذو عينين لامعتين وبشرةٍ سوداء، ثم عندما تحجج بأنه يريد شراء شيءٍ ما ثم سيعود، لكنه في الحقيقة أراد أن يفرغ عقله منها قليلاً وأن يغسله بعد أن يغسل يديه وجهه.

بعد خمس دقائق بقليلٍ عاد أدراجه، كرسيه ذاك خانه ووهب نفسه لإحداهن، التقط آخر وجلس إلى الطاولة، ثم التفت إلى تلك التي سرقت كرسيه، فتاةٌ بيضاء بشعرٍ أطول من حلمه، خدودٌ حمراء، وعينان قد تقتلان عشرين رجلاً لكنهما يختفيان خلف نظارتي رؤية .

صديقته لمى التقطت بعضاً من الكلمات ثم قالت :ـ" أعرفكم، أيمن .. لينا ".

ضحك الاثنان على قول أيمن:" مرحبا لينا، كيف كان امتحانك ؟"

- جيد، الحمد لله، شكراً لك.

- إذاً، أتعرفان بعضكما ؟

نعم نعرف، كنا ثلاثتنا في المخيم الصيفي ذاك لمى

- إذاً، هذا أيمن الذي حدثتني عنه ؟

وبدأت الكلمات تتطاير، أما هو فكان منشغلاً بها، هو استنشق

عينيها بما يكفي، كان لصاً ماهراً، كان يلتقط من عينيها عينيها دون أن تلحظ أي الأخريات ذلك، لكنه كان ينظر إلى نظارتيها كما لو أنهما قاتلتاه، الحديث طويلٌ وممل ولكن الفقدان قاسٍ، كان يتشبع بها أكثر.

وابتلت ذاكرته بها، تلك الفاتنة أضاعت لذلك الأحمق بقايا عقله، ورمته في غابات شعرها الاستوائية، وأفقدته القدرة على الحس والحب والنبض إلا لها وبها، اتكأ على شيءٍ من الذاكرة أهملته موجةٌ ما إلى جانب البحر، حين تصادف مع تلك الجميلة في مختبر الفيزياء، كان يوم سبتٍ هو، لا يزال يذكر، بداية مرضه بالموت قبل الأوان، فايروسٌ صغيرٌ اخترق عينيه ليصل قلبه مباشرةً وتعشش فيه، أصبح جزءاً منه، كان قد بدأ يؤمن ويقنع نفسه أن له كريات دم من نوعٍ آخرٍ افتعلتها هي وسمتها باسمها، كريات الدم " اللينية ".

ومن يومها وأصبح للهواء مذاقٌ آخر، كان يتنفس ملأ رأتيه، كان يكثر من التنفس عندما يخاطبها، يقنع نفسه باستنشاق الهواء أكثر في حضرتها عله يستنشق هواءً ما استنشقته هي أو ربما مر بالقرب من عينيها، لم يكن يحبها، كان متيماً بها.

انتعل نفسه منها وأعادها إليه، تحجج أنه يريد أن يرى صديقاً ما، هو لم يستطع أن يتشربها أكثر، إن امرأةً كتلك كأسان من عينيها

كافيتين لقتلك، كم كان قوياً هو حتى احتسى منها حتى الثمالة، أدلقا لسانه، سحب كرسيه، خلع ثوب العاشق ذاك وارتدى نفسه من جديد..

أدار نفسه بزاويةٍ منفرجة وإذا بصوت تلك الجميلة يبتلع قلبه.

- " أيمن انتظر لحظة " قالت لينا.

لا شعورياً، رسمت على وجهه ابتسامةً لم ترسم منذ ثمانية أشهر، فكر " أرجوكِ، لا تقولي "أحبك" أمام الجمع، ستحمر خداي بسرعة، أبقيها جانباً، قوليها حينما نكون فارغين إلا من أنفسنا ".. فكر " ستقول لي، وستعترف بأنني جريمتها السابقة والمعتقل الأخير لدى رموشها، والغارق الأخير في بحر عينيها، ستعترف بأن التاريخ أرّخ موتي على يديها " .. فكر " لو تأجّلين هذا الحديث قليلاً، فصل الصيف غير مناسب للحب، فصل الشتاء أكثر ملائمة، أقلُّ ضجيجاً ووضوحاً "، كانت فكرته الغبية تنص على أن الشمس تغار من العشاق، تحرق حظهم وتلعنه .. وهي امرأةٌ علمتها مغازلات الشباب الكثيرة وكلماتهم الجميلة كيف تقتل النص إلى الأبد، وكيف تهدي أحدهم سبباً للموت، كيف تهديه خيبة الأمل والجنون والإرادة للموت الأبدي، كيف تدفعه إلى الاستقالة من ذاته، قالت " أيمن انتظر"، دق قلب أيمن في تلك اللحظة أسرع من مهاجمي الألمان في مباراتهم مع الإسبان، أدار وجهه واستنشق نفسه من جديد ..

" التقط سترتك يا غبي ، من يرتدي سترةً في هذا الصيف " قالت لينا .

***

أشعرت بذلك الإحساس الغريب في أول لفافةٍ تستنشقها، تلك التي لا تتجرعها، تدخل ما استنشقت من الدخان إلى فمك، وإلى أول الحنجرة إن كنت قوياً إلى هذه الدرجة ثم تطردها وتبدأ بالسعال. كم مرةً تقمصت دور البطل في روايةٍ كنت تقرأها، وظللت تردد في كل جلسة " فليكن حبك طاهراً يا ليزا "، وكم مرةً جربت أن ترتدي شيئاً يعجبك دون أن يعجب الآخرين، أن ترتدي قميصاً أزرقاً مع بنطالٍ أحمرٍ وقبعة؟ وكم مرةً أحببت لو تشتري شيئاً من بسطات رام الله وأن تكون سعيداً دون أن تقسم لأصدقائِك ألف مرةٍ أن هذا القميص قد اشتريته من الجنة التي لا يبلغها سواك ؟!

أحاولت ولو لمرةٍ أن تكون غبياً مجنوناً غير عاقل ؟! أجربت أن تعطس بكل راحتك بعيداً عن القوانين التي تجبرك أن تكون مؤدباً حتى في عطسك، أجربت أن تأكل بيدك في مطعمٍ فاخر، وأن تركض في الطريق كطفلٍ صغير ؟! أو كم مرةً لعبت " الغميضة " أو عجنت " الملتينة " بعد أن تجاوزت مرحلة العقلانية بالنسبة إليهم ؟! كم مرةً حاولت أنت أن

تركض لتمسك ظلك وظللت تفكر لفترة من الزمن أن ذلك ممكن ؟! وكم هم عقدوه واستحالوه ؟!

عاد الأمر يغتالها تدريجياً، الفتاة التي تزوجت قبل عامين زوجاً تقليدياً تعيساً من رجلٍ غني يزيدها بخمسة أعوام، رفضت هي، لكن السلطة تحكم حياتنا وتسلب الإرادة منا، فالأخ الأكبر لم يفسح مجالاً للرفض أمام أخته وكأنها كانت ملك يده، وهي -بكل قوتها- لم تكن قادرةً على جبروته.

بدأت تلك الحياة، الملل الذي يجعلك تشعر بأنك أمين مكتبة مع أنك لا تحب الكتب، أو نجارٌ يعمل في مطعم، الطناجر الكثيرة، والملابس التي تتسخ قبل أن تجف من الغسيل حتى، الزيارات الروتينية من العائلات والأقرباء لجعلك تشعر بالروابط الوهمية ما بينكم لتصبح في النهاية قطعة شطرنج، صامتةً، مملةً تنتظر أن يحين قتلها.

وهناك، في السجن الشرعي، وفي بيت الدعارة القانونية المرخصة، لم يستطيعوا قتل الطفلة في قلبها، تزوجت ولم يأتِ ناجي ..

كانت تصحو مع السادسة قبل أن يصحو " ابن الشيطان" ذاك،

تقول في وصفه، تنهي حاجيات المنزل لتتفرغ لنفسها بعد أن يمضي "ابن

الشيطان".

لا أعرف كيف أمكن لسيدة فقدت نفسها في متاهات الحياة أن تكمل

حياتها بكل هذا العنفوان.

جرب أن تفعل كل هذه الاشياء قبل أن تنهي الرواية.

أحاولت أنت في يومٍ ما أن تخلص نفسك من انعكاسها في المرآة؟! إن لم تجرب الأمر كيف ستحرر نفسك من من يستوطنك ؟ صدقني لور جربت الأمر كثيراً، أو بالأحرى، لأكن صريحاً ، لا زلت تجرب الأمر، في كل مرةٍ تقف فيها أمام المرآة، تحدق بانعكاسها كثيراً ، تحاول أن لا تغمض عينيها، تحاول جعل انعكاسها يرمش قبلها، تحرك يديها بسرعةٍ إلى الدرجة التي لا تستطيع فيها أن تقرر أأخطأ الانعكاس أم لا، تراهن أنه أخطأ، لا أحد سيكون سريعاً إلى هذه الدرجة التي تكون فيها، لكنها إلى الآن لم تستطع أن تلحظ خطأه، على كلٍ ، ستجرب الأمر ثانيةً، حاول أن تجربه أنت.

المهم، أتعرف أن المخلوقات الفضائية موجودةٌ حقاً ؟ ألا تؤمن بها؟ لور تستطيع إقناعك بالأمر بكل سهولة، برأيك أين تذهب مقصات الأظافر وغطاء "روموت " الهاتف وفردة الجرابات وأغطية

معجون الأسنان وحتى المملحة ؟! أتظن أنها صدفة ؟! لا يا صديقي، إنها المخلوقات الفضائية تحاول صنع آلة لقتلنا جميعاً، ولكن السؤال الذي يجتاح فضولها، لماذا يحتاجون فردات الجرابات ؟! "

كيف لك أن تقتنع بأنها كانت ترتدي أجمل ملابسها قبل النوم وتتعطر وتضع أحمر الشفاه، لم تكن تحاول إغراء زوجها بتاتاً. كل الأمر أنها كانت تؤمن بأن الحلم ما هو إلا امتدادٌ للحقيقة، لذا فعليها أن تتهيأ جيداً قبل الحلم، وإلا، إن سافرت إلى حلمٍ ما دون أن ترتدي كامل أناقتها ورأها أحدهم هناك، ماذا سيكون رده ؟ ماذا لو التقت فارس أحلامها في ذلك الحلم، يجب أن تتهيأ جيداً، قليلٌ من الحمرة قبل النوم لن يضر.

لم تكن واقعية بتاتاً، كانت تقنع نفسها أن ما يحدث- كل ما يحدث- ليس إلا فيلماً سينمائياً نحن ممثلون فيه ليس إلا، وفي النهاية، ستسدل الستارة ويصفق الجمهور لنا، لذا فكثيراً ما كانت تنطق الكلمات بطريقةٍ دراميةٍ على نحو " فليكن حبك طاهراً يا ليزا " مع تحريك يديها، ليس ذلك فقط، كانت كثيراً ما تمشي بصورةٍ بطيئةٍ في اللحظات الحرجة من حياتها، تعلل أن ذلك لملائمة المشهد، أذكر مرةً حينما صرخ زوجها عليها بعد نتائج تحاليلٍ ما، جلست في المطبخ وأحضرت هاتفها لتشتغل

موسيقىً حزينةٍ ثم لتنطق " لماذا هذا يحدث لي ؟ إنني في أمس الحاجة إلى سمٍ يقتل ما تبقى من هذه الروح " ثم ضحكت وصرخت " أوقفوا التصوير، لقد انتهى المشهد ".

التصوير يستمر أربعةً وعشرين ساعة في اليوم، "أنه مرهق جداً " تقول في نفسها، لذا عليها الاهتمام بأناقتها واختيار ألفاظها حتى في داخل المطبخ، كانت تبحث عن الكاميرات باستمرار، لا بدَّ أن تجد إحداها في يومٍ ما لتثبت لقارئ هذه الكلمات أن كل ما يحدث ليس إلا فيلم سينمائي طويل جداً وعلينا الاستمرار.

من ذا يصدق أن إحداهن قد تتزوج بغير إرادتها في هذا القرن أو من يصدق كل هذا القتل والدمار والغباء والوحشية والأنانية والطمع في هذا العالم العاهر، لا أحد طبعاً، أأقنعتكم بأن كل ما يحدث ليس إلا فيلم سينمائي طويل ؟!

هي حاولت مراراً التأقلم مع ابن الشيطان ذاك، قالت لنفسها بأنها إن كانت مجبرةً على أخذ هذا الدور فلماذا لا تجرب أن تغير بعضاً من النصوص بينهما.

وتذكرت أنه لم يحضر لها يوما ولو على الأقل وردة . إلا أنها حاولت أن تستميله لتنهي هذا الملل.

في يومٍ ما، عندما سألها وهو يغادر المنزل إذا ما كانت تحتاج شيئاً عند عودته، أجابت بأن يجلب معه " ليجو "، تبسم هو وقال : "هل هناك أخبارٌ سارة إذاً بشأن الحمل ؟ " لكنها أجابت بالنفي، " إذاً لما تريدين "الليجو" ؟! "سألها، "لنلعب نحن" أجابت.

أعادت طلب الأمر خمس مراتٍ قبل أن يحضرها وحتى بعد أن أحضرها لم يشاركها اللعب.

في إحدى المرات، أفاقته على السابعة بصراخها، وعندما استفاق سألها : "ماذا هناك ؟"، " لقد وجدت خريطةً لكنزٍ مدفونٍ في بيتنا " ردت قبل أن تعطيه ورقةً قد رسمت عليها بعض الأشياء.

- هذه ورقة a4 أتعرفين ذلك ؟ قديماً لم تكن لديهم هذه المقاسات في الأوراق.

- أتظنني غبية ؟ أعلم ذلك، فأنا من رسمتها أصلاً .

- وكيف جعلت لونها هكذا ؟

- دهنتها بالزيت لتبدو وكأنها قديمة.

بعد عدة محاولات كهذه، حاولت أن تجرب شيئاً آخراً وأن

تكون أكثر عقلانية". فما أن عاد إلى البيت في إحدى الليالي وإذا بها قد أخرجت التلفاز وبعضٍ من الكنبات ووضعته في الحديقة بعد أن مدت خطاً للكهرباء، ووضعت الكثير من الزهور أرضاً وأعدت طعاماً.

قال لها :" ما هذا الغباء ؟ وإذا مرَّ أحدهم بالقرب من منزلنا ورآنا هكذا!؟!".

منذ عامين تزوجت، ومنذ عامين، لم تنجب ولم تعطِ ولو أملاً بحجم نملةٍ بذلك، لم يعرف الطبيب ما المشكلة بتاتاً، لكن حيوانات الزوج المنوية كانت سليمة" جداً، لذا، فمن المرجح أن السبب عائدٌ إليها لا إليه. قال في آخر لقاء مراجعةٍ لهما، ولم يمضِ أسبوعان حتى فاتحها بالأمر وقال لها بأن تجهز حاجياتها وأن الأوراق ستصلها بعد يومين.

كان كل شيءٍ قد تم بسرعة، ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت الوقت حتى قبلت يد أمها وهي تبكي، لقد فشلت في أن تكون أماً قبل أن تنجب حتى.

وعادت حياتها كما لو أنها لم تتزوج أصلاً، إلا وجعٌ يعريها أحياناً واعترافٌ بداخلها باستحالة تكرار الأمر، لا أحد سيتزوج مطلقةً الآن.

أعادت ترتيب غرفتها كما سابق عهدها، رتبتها بشكلٍ فوضوي، وأشعلت الموسيقى في الغرفة، وبدأت بالغناء وهي ترقص، أمسكت بذراع

المكنسة الكهربائية وقربتها من فمها وهي تتلو أغاني كاظم الساهر وتبتسم.

وضحكت، وقد تضحك وفي قلبك وجع مدينة كاملة.

كانت كطائر الفينيق، أعدت محرقتها بنفسها، ووضعت كل أوجاعها وآلامها وحياتها السابقة، وأخذت ترقص من حولها كما يفعل محاربي الأدغال، وفكرت بالمعارك القادمة.

لقد كان صوتها مبالغاً في جماله منذ الصغر، لكن الأخ الأكبر سلبها تلك المشيئة أيضاً، جعلها صنما لا تنطق أصلاً، فكيف لامرأةٍ أن تصدح بصوتها في هذا العالم الكافر الذي لا يتلو ولا يسمع ولا يحفظ نصاً غير " صوت المرأة عورة " ولم ينظر إلى عريه وخزيه وعاره.

قبل عدة أيام كانت قد قررت بأنها ستجرب الغناء، فاتحت أخيها وأمها بالأمر.

" ضعي أوهامك جانباً، أنت مطلقةٌ الآن، انتظري إلى أن تعطف أنامل رجلٍ آخرٍ على رفاتك، لا تلوثي سمعة العائلة " كان رد أخيها.

أتعرف ما مشكلة هذا المجتمع؟! هي ذات مشكلة الجنين في الشهر الثامن، يعيش بين واقعين دون التخلي عن الأول ودون التشبث بالآخر، يعيش في المرحلة الانتقالية منذ قرن، يحبُ عاداته وتقاليده لكنه

يقلد الغرب ويمارس سطوة الآخر، في المنطقة ما بين التخلف والتحضر يعيش هو، منطقة الشكليات، وهذه المنطقة بطريقةٍ ما هي أسوا من التخلف، كمن يأكل المسخن بالشوكة والسكين، وكمن يشرب الشوربة بالماصة، يبحث هذا المجتمع عن تحضره، وكمن يشتري جهاز حاسوب دون نظام تشغيل، أو لنكن واقعيين كمن يشتري فأرةً ولوحة مفاتيح فقط.

نحن تربينا على الشكليات وكأنها خلقت في جبلتنا، نقدس شخصاً يبدو عفيفاً وإن كنا نعلم أن شرايينه تصلح لأن تكون أنابيب تصريف صحي على أن تكون شرايين، وإلا لماذا يقدِّسُ شيوخ المنابر أولئك المترفين الذين يتبرعون بأموالهم لبناء المساجد وهم يعلمون أنها موروثةٌ من الشيطان نفسه، ونسأل أنفسنا بعدها لماذا لا يرتاد الشباب المساجد ويرتادون المقاهي التي قد شقي صاحبها وهو يجمع ثمن انشائها.

أنت راضٍ أن تزوج ابنتك لشابٍ دون الآخر لأن الأول قد علَّقت في صالة بيته ورقةً رغم أنك تدرك أنه لا يستطيع حتى نزعها من الإطار الذي حاصرها أو حتى تبديل مصباح البيت إن تلف.

قد لا ترضى أن تزوج ابنك من واحدةٍ قماشها أبيضٌ صافٍ لأن

ذبابةً ما تحدثت عنها بسوء، وقد تقبل أن تزوجه لفتاةٍ ذات ألوان الطيف السبعة ولكن لا أحد قد يقربها بسوء، فكيف ترضى بأن تزوج أحدهم بمطلقة ؟!

أن تطلقَ امرأةٌ في هذا المجتمع معناه أن تاريخ صلاحيتها قد انتهى، فإن كانت ذات أولادٍ فوظيفتها الرسمية الجديدة إلى الموت أن تربي أبنائها بما يضمن لهم أن لا يصبحوا مثلها، وإن كانت دون أولادٍ فوظيفتها الأشق انتظار تلك الساعة أن تأتي.

لذا، كي لا تصلي إلى هذه الحالة، لا تتزوجي قبل أن تملكي ما يجعلك تبقين على حياتك في المسار الصحيح إن طلقتي فيما بعد، اجعلي ذاتك منفردةً قائدةً لا تابعة، كوني لاعب الشطرنج لا بيدق، اجعلي الخطة "ب " متوفرةٌ تحت وسادتك في كل ليلة.

اختاري أنتِ زوجك، لا تجلعي أمك من تقرر زواجك كله، فإن كانت هي قد اختارت زوجها، فلك الحق باختيار زوجك، وإن لم تختر هي، فهل تثقين باختيار امرأةٍ لم تختر زوجها أصلاً ؟! على الحالتين، أنت من ستتزوجين لا أمك، وفي الحالتين أيضاً ، هذا زواجٌ وليس عقد بيع لسيارة، وأنتِ امرأةٌ ولست " بكسة " طماطم.

عندما سُألت إحداهن يوماً عن حياتها الزوجية أجابت " أنا يمكنني البت أن زوجي هو الأسعد في العالم " ونسأل أنفسنا الآن، الحياة الزوجية اقتصرت عليه وحده ؟! وأنتِ، لا يهم ؟! أخُلقتِ لإسعاد زوجك ؟! صدقيني أنتِ لست مدينة "ملاهي " إطلاقاً، أرجوكي .. زمن التخلف قد انتهى ولكن، أتعرفين شيئاً، نحن نعيش العبودية للمرأة وعصر الجواري والأمة ولكن بطريقةٍ أكثر حضارية، انزعي عن كاهليك التخلف وارتدي الحياة، لا تجعلي أكبر مشاغلك في هذه الحياة أن تستيقظي مع الثامنة كي تخرجي الدجاجة من الثلاجة وتضعيها في الماء كي تعدي العشاء ليلاً، لا تكن أكبر نقاشاتك عن أمِّ محمود التي تشاجرت مع زوجها البارحة لأنها شمت على قميصه عُطراً نسائياً دون أن تدرك أن هذه الرائحة هي نفسها التي رشها أسعد الذي يعمل في مكتب أبي محمود وحاول إزالة رائحة سجائر مازن التي لوثت الهواء، ولا تهتمي من هي أم محمود أم من هو أسعد أو مازن، أنا لا أعرفهم اصلاً !!

إن الزمن الذي تختبأ فيه النساء خلف عصي المكانس قد ولى، **إن** الزمن الذي تختبئ فيه بنات برناردا البا وينظرن إلى الرجال من **الشباك** الصغير أثناء عودتهم من الحقول قد انقضى بقضاء القرن التاسع **عشر،** نحن في القرن الواحد والعشرين يا صغيرتي، لا تشنقي نفسك **حسرةً** وأشنقي الماضي، لقد حان الوقت يا صغيرتي، ذلك الوقت الذي تشمر فيه

النساء عن عقولهن ويبدأنَ بالتحليق، كفوا أيديكم عن تلاوة قصة ليلى الحمراء لتخيفوا الفتيات عن الخروج من منازلهن لأن الذئب سيأكلهن لا محالة، أتلفوا روايات سندريلا والجميلة النائمة وبيضاء الثلج، المرأة لا تحتاج إلى رجلٍ لكي يعيدها من الموت أو يوقظها من النوم أو ينتشلها من الواقع البائس إلى جنات الفردوس العظيمة.

كانت قد فكرت، لا بد أن تفك وثاقها وتطلق الطير الذي يقبع بداخلها، لقد مضت سنينٌ طويلةٌ وهي تمارس الحلم بين جدران غرفتها وتتلو الترنيمات السحرية تلك، لقد طردت حلم ذلك الرجل من عقلها، لكن حلم الطيران لم يُطرَد بعد.

بعد أن طُلقت، لم يخطبها أحد، تعول أمها الأمر إلى عدم قدرتها على الإنجاب، هذا الواقع يرفض المطلقة فكيف بعاقرٍ أيضاً ؟! أجبرتها قبل فترةٍ أن تعيد التحاليل تلك، لكن الأمر لم يأتِ بدالة، ولكن، زوجة طليقها قد أنجبت قبل فترة، لذا فالأمر يعود إليها، لكن الطب لم يُعطِ ولو مفردةً قد تجعل القصيدة واضحة، فلماذا لم تنجب ؟! تعيد أمها السؤال في كل مرة، لماذا لم تنجبي ؟!

***

في دودمة الحياة، نستحق أن نحظى ببعضٍ من السعادة وبعضٍ من التعاسة أيضاً ، ولربما هي تعاستنا من تعطي حياتنا معنا، وتعطينا هبة الحب وهبة الكتابة، عينان لا مضمحلتان بمخيلته، جديلتان ترقصان على وتيرةٍ واحدة، شعورٌ جميلٌ هو الحب، وشعورٌ أجمل بواجبك الوطني للقضاء عليه مهما كلف من ثمن، تزداد الكلمات حيرة، تذبل في محاولة إكمال نص، وفي محاولة الانتحار يصبح كل شيءٍ مجازاً ، فكرته الغبية على أن الفيزيائيين أغبياء بالفطرة حتى ولو كان أحدهم، ولو أن تفاحة نيوتن سقطت على عربيٍ لاكتفها بأكلها، وأن ذلك السؤال السخيف بانفجار قنبلةٍ والمطلوب حساب سرعتها مهملاً من قتلوا جراء انفجارها، فضع عشرين خطاً وقل له" هل نتجاهل جاذبية الفلسطيني لأرضه أو لا؟" قل له "أدم الناس أرخص من ثمن قنبلتك السخيفة ؟ " وضع في أسفل السؤال " المعطيات ناقصة ".

أتنكسر الشواطئ في عيني امرأة ؟ أيضمحل ظل شاعرٍ أمام جبروتها ؟ أتثنى الكلمات وتوضع جانباً ؟ أيصحو على سجادةٍ حريرية ؟ أم أن ذلك القبطان الذي عاش كل أيامه في البحار .. مات عطشاً .

كانت امرأةً يستحيل الحصول على نسخةٍ أخرى منها، وكان رجلاً - كما يظن - ذا مواصفاتٍ مقلدة، أترى كيف يُعشَق رجلٌ قامته أقصر من أن يوضع لها "ستاند" لكاميرا التصوير يوم عرسه ؟ وجهه قبيحٌ جداً، واللحية عليه كثيرة التمرد، هما عيناه من تملكان شيئاً غريباً، قالت له إحداهن يوماً "عيناك فتنة " اشتعل عقله، تبلدت وتلبدت أفكاره، كيفما شاء رتب هواجسه، سيضع حبها في الطرف الأيسر من عقله على جانب زهور التوليب، عيناها سيلتصقان في السقف، ويبقي تلك الأريكة المريحة وذلك الطرف الأيمن من سقف عقله فارغاً.

باختصار، رجلٌ أوقع قلبه خطأً وامرأةٌ امتلأت حقيبتها بقلوب سبعين رجلٍ سواه..

لم تكن امرأةً فقط، كانت أنثى، وإن فاتنات فرنسا قد ذُبنَ في احمرار وجنتيها، كان يستحيل أن تمُرَّ ساعتان دون أن يذكرها أحد عاشقيها بأنها أجمل امرأةٍ خلقت، كانت تسمع كلمة " أحبك " ربما أكثر من سجائر أبي أحمد التي تباع تهريبا على المدخل الشرقي للجامعة، هي مرةٌ واحدةٌ التي مرت فيها من جانب " المنارة" ولم تسمع مغازلةً أو حتى كلمةً جميلة، أذكر أن جنود الاحتلال اقتحموا رام الله ليلتها.

وكان رجلاً لا يملك سوى قلبٍ واحد، لم يتجرأ على قول كلمة "

أحبك " إلى الآن، كان يتذكر اسمها كل تسع دقائق وجوباً، يزور "الفيس بوك " خاصتها كل ثماني ساعات، يكتب عنها كل يومين، ويعيد الكتابة في كل نص " أنها لم تكن مجرد فتاة أحبها، كانت مرضاً ".

وها هما، من يوم حين قالت له " يا غبي من يرتدي سترة في هذا الصيف" وتراه يتقلص على ذاته، يراها كل يومٍ وينكمش، أصبحت هوساً، ذلك اليوم رآها في "المجمع "، جلس معها وتحدثا قليلاً، بعد يومين كانت جالسة مع صديقتها أمام كلية الهندسة، وفي إحدى لحظات استراقه لعينيها، أمسك بها متلبسة تحاول سرقته أيضاً، هو طرح السلام ولكنه لم ينم ليلتها بعدما طلبت لقاءه ليشرح لها النظرية النسبية وهو يفكر " أوتختلقُ عذراً " قال في نفسه، "ربما كي تراه ؟! أربما تحبه كما يفعل هو ؟!" سأل نفسه، ولكن الظن تبدد وهو يرى بلاهتها في النسبية، تلك الفاتنة لم تكن تفهم شيئاً فيها.

سألته :

- إذاً ما النسبية ؟

- ببساطة، افترضي أن قطاراً ما..

وقبل أن يكمل تمتمت :_

- أرجوك، لا تبدأ قصة القطار، لقد حفظتها عن ظهر قلب، لكنني لم أفهم منها شيئاً..

- وكيف سأشرح إذاً ؟! أنظري دعي العلم جانباً.

هذا ما أريده.

- لنبسط الأمر كثيراً، مثلاً، ما هي أجمل بلدٍ برأيك ؟

- استراليا، أعشقها.

- لكنني أرى حيفا أجمل، الأمر نسبيّ إذاً، اختلافٌ في المرجع.

- أتعرف أن جذوري من حيفا ؟

- شممت فيك رائحة البحر (بعد أن ارتبكت خلاياه) .. لنعد الى النسبية أنظري إلى تلك الفتاة مثلاً ؟ هل هي جميلة ؟

- نعم كثيراً.

- لكنها ليست بذلك الجمال بالنسبة لي إذا ما قارناها بك، الأمر نسبيٌ، اختلافٌ في المرجع أيضاً (واحمرت وجنتاها).

- والوقت ؟

- نسبيٌ أيضاً، كيف تكون حصة الفيزياء بالنسبة لك ؟ أقصد طولها ؟

- تمضي الساعة وكأنها ثلاث.

- والموسيقى؟

- نصف ساعة.

- ليس بالأمر الدقيق، ولكن الأمر نسبيٌ أيضاً.

- (وقد خجلت) أحقاً أنا جميلةٌ الى ذلك الحد ؟ (قالت ضاحكة).

- ضحك وأجاب، نعم كثيراً .

- اختلافٌ في المرجع، إذاً غيرك سيراني أقل جمالاً، إن الأمر نسبي.

- إن قانون النسبية يسري على كل الأجسام إلا على جمالك، إن عينيك تصنع قانونهما.

- (وقد احمرت خجلاً) أتغازلني ؟

- لا قطعاً، كنت أشرح فقط.

***

"بدون موسيقى"

أغلق الباب وراءه، كانت مستلقيةً على السرير، الحمرة قد أكلت شفتيها، بشعرها المصبوغ بالشقار ووجهها المغطى بالمساحيق، وحلق أنفها وعينيها الذابلتين، ترتدي قميصاً يكشف عن صدرها وقليلٍ من ثدييها، كانت قد أرخت ظهرها إلى وسادةٍ على السرير ومدت قدماً وقد ثنت الأخرى.

تطلع يقين إلى فريسته، لكنه الآن أضعف من أن يفترس، لقد كان ضبعاً عفى عن فحولته الزمن، أو ليكن الأمر أكثر منطقاً، الحزن من قد فعل، كانت عيناه تتفحصانها بدون شهية، كانت طازجةً وقتها لكنه لم يكن شَبِقاً.

" اذاً، أأتعرى ؟ " سألته بعد أن طال جمود عينيه، تلك الكلمات في وقتها كانت كافيةً لتوقظ في عينيه الندم وتشعره بالحيوانية التي مارسها طويلاً، لم يكن محتاجاً في تلك اللحظة إلى جسد امرأةٍ ليمارس عليه عهره بقدر ما كان يحتاج إلى صدر امرأةٍ يرخي عليه نفسه ويبكي.

- سأدفع الليلة ضعفين، ولكن من دون جنس.

- إذاً، ماذا تريد ؟

- أيمكنني البكاء في حضنك ؟ أتستطيعين الإصغاء لي كامل هذه الليلة ؟!

لقد كان بالفعل محتاجاً لأن يبكي فقط ويشكو وحدته أمام عيني امرأةٍ وإن كان الأمر مدفوع الأجر.

***

" إن غزله متقن، لكن ذلك لا يكفي " قالت في نفسها وهي تتحسس شعرها بعد أن وضعت كوب النسكافيه جانبا ، كانت عيناها القاسيتان كأنهما انكسرتا من قبل، لكن عينين كعينيها تكسِرُ ولا تُكسَر، شعرها الفوضوي المتمرد غير متقن التصفيف زاد من فتنتها، وسنها الأمامي صاحب اللذعة يثير الفضول كثيراً ، وجنتاها سريعتا الاحمرار تجعلك تعشق التفاح من بعدها، وتتمنى لو أن لا امرأةً سواها خُلِقَت، لها كينونةٌ جعلت عشرين من سواه يتغزلون بها، لذا غزله لا يكفي، قالت هي.

ترى فيه - منذ كانا طفلين - شخصاً عصبياً غريب الأطوار، دراميٌ إلى درجةٍ لا تعقل، وله عقل طفل، لكن رائحة الإبداع تجول ما بين ثناياه، تدرك هي، لم يكن مميزاً بالنسبة لها، لكنه كان استثنائياً ، وإلا فلم تكن لتعطيه شيئاً من الأهمية، أو لربما نسيته بعد كل تلك السنوات، ولكن شيئاً ما - على الأقل - يبقيها تذكره.

أزاحت نفسها إلى اليمين والتقطت كرسياً كان جانباً وهي ترى يارة تبتسم متوجهةً إليها.

- مرحبا لينا، كيف أنتِ ؟

- الحمد لله، ماذا عنكِ ؟

- بخير، وسعيدةٌ برؤيتك.

- ضحكت " ولكن قبل ساعةٍ كنت معك ".

يارة هي توأم روح لينا، لم تفارقها منذ فترة، وكانت بمثابة ظلٍ لها أو أن لينا ظلٌ لها بالأحرى، كانت لها عينان لا يملكهما إلا قاتل، ضحكتها فاتنةٌ، وكأنها أنثى لا تملك إلا الترف والسعادة في حياتها، وكأنها لا تملك وجعاً، نطقت وقد أدركت أن أمراً ما يجول في خاطر لينا.

- لينا ما الأمر ؟

- أي أمر.

- ضحكت، لينا أعرفك منذ كنا في السادسة، قولي لي ماذا هناك ؟

- يا لك من ماكرة، لا أعرف، أتعرفين أيمن ؟

- الفيزيائي غريب الأطوار ؟

- نعم هو.

- ما به ؟

- وكأنه يتغزل بي، أشعر وكأنه ..

- ضحكت، أرجوكي لا تقوليها، يا له من أحمق.

- إنه حقاً شخصٌ جيد، لنغير الموضوع.

- حسناً.

- دون أن تضحكي، هل يمكنني أن اسألك سؤالاً ؟

نعم.

- ما رأيك بالحب ؟

- (بعد أن ضحكت) لا تقولي لذلك الأبله ؟

- لا، أقول بشكلٍ عام.

- لا يوجد ما يسمى بالحب ما بين ذكرٍ وأنثى، لقد أشبعونا من هذه الكلمة في الأفلام.

- لا أعرف.

- أتعرفين، أظن أن مازن غارقٌ في الأمر أيضاً.

- ومن تلك المحظوظة ؟

(ضحكت يارة) ..

- لا تقولي هذا ؟! (وضحكت)، بربك ؟

- أعتقد ذلك، يقول أنه يغار كثيراً.

- وأنتِ ؟

- قلت لك أنا لا أؤمن بالأمر، إن الفكرة تافهةٌ جداً، غيري الموضوع أرجوكي ، إذا كيف دراستك ؟

- جميلة، إلا الفيزياء هناك موضوعين لا أفهمهما.

- وماذا ستفعلين ؟

- سيشرحها أيمن لي غداً.

- عدنا إلى أيمن ذاك ؟!

***

"موسيقى Tchaikovsky : Swan Lake Suite"

يقولون أن قوانين الحركة بتسارعٍ ثابت تسري على كل الأجسام، إلا دقات قلوبنا عندما نعشق، فلا قوانين يمكن أن تسيطر عليها ..

في تصادمات أرواحنا اللامرنة، سنشعر بالغثيان المؤقت ، ستنام جراحنا كل جرحين في فلكٍ واحد، ولمغزلية الحياة ولأن أدمغتنا صغيرة جداً ، ستدور أحلامنا في إهليليجية العشق، كتيار كيرشوف وغباء لينا، ومحاولة تهجين قلبه مع قلبها كتهجين وطنين معاً ، أمر شبه مستحيل، وإن النجاة من قدرٍ محتم هو قدرٌ آخر، وإن معظم الذين يموتون في الحروب الكبيرة هم لم يحاربوا أصلاً ، ولو حاربوا لنجوا، وإن نيوتن لو كان عاشقاً ، لظن أن الجاذبية هي لعنةٌ تطارده من امرأة، واينشتاين كان ليدرك أن قوة العشق أقوى من القوة النووية حتى، وأن طاقة فصل الضفة عن غزة، تساوي طاقةً لا نهائية الطول كطول شعر لينا، وأن نهاية الحب موت، وتكامل الموت موتٌ آخر، وإن كل الناس حين تموت بطاقةٍ كافية ينتهي بها المطاف في القبور، إلا الشهداء ، فإن أرواحهم تغادر إلى الجنان فوراً ، وإن العاشق كاللاجئ وكالإلكترون المهيج، تستطيع أن تبعده عن وطنه، ولكنه في نهاية الأمر سيعود.

عينان عسليتان لا عسليتان، وجهٌ أبيض، خدودٌ مشبعةٌ بالحمرة التفاحية، شعرٌ أطول من مدى قصف صواريخ الأباتشي، ضحكةٌ ساخرة، قناعةٌ مفرطة، ولا شيء آخر، وأنت، مجرد إنسانٍ يتيه في عشق الفيزياء وفي عشق قاتلة، كان يدور حول نفسه من أثر تعويذةٍ رومانية .. اسمها الحب، قُصِفت غزة، وكان جنون العشق يقصف مقلتيه، أزاح ناظريه إلى اليمين قليلاً ، هناك، على زاويةٍ مقدارها الموت إلا ربع، كانت الطفلة ذي العسل المحنط، ثانيةٌ ولم تعانق أختها، ورحلت في تعداد المارة، في صمت من يرمون أرواحهم كي ينجوا ..

ستبقى هذه الموسيقى لعدة أجزاء بالرواية فلا تغيرها الا عندما **اقول لك.**

الآن .. لا شيء، استرخت عضلاته عن الانقباضات المتتالية ..

أكانت الكلمات خليعة اللسان لتصف جمال عينيها ؟! **أو كانت الفيزياء** عقيمةً في وصف ما كان يعانيه ؟! يسأل نفسه وهو يتطلع إليها **تسحب** كرسياً وتجلس بجانبه .

- إذاً كيف حالك ؟

- الحمد لله بخير ..

- وانت ؟

- بخير إن كنت أنت .. إذاً .. ما موضوع اليوم ؟

- عدة مواضيع، لكن في البداية، فأريد أن اسألك شيئاً ، أنظر الى هذا

الكون، أتظن آن قوانين الفيزيا تحكمه ؟

أدار وجهه قليلاً ثم حملق في عينيها ، فردت:

- ماذا تفعل؟

- إنني أنظر إلى الكون ..

- بربك هل هذا وقت مغازلاتك ؟! سؤالٌ أخر .. ما رأيك بالنسبية ؟ أتكن مطلقة الصحة ؟

- لا شيء يمكن أن يكون مطلق الصحة إلا الله، هناك الكثيرون من انتقدوها أصلاً.

- ولكنك قلت أن اينشتاين كان ذكياً جداً في حياته ؟

- بل كان غبياً في حياته، قلت أنه كان ذكياً في قوانينه، الأغبياء من يخترعون قوانين تفهم الناس حياتهم، الأذكياء يتكفلون بالعيش غالباً.

- ما أدراكَ أنه لم يعش حياته إذاً ؟!

- أنا فيزيائيٌ أعاني بعض ما عاناه.

- هل يعشق الفيزيائي ؟!

- (ضحك كثيراً) لا أعتقد ذلك، ولكن، أتعرفين لو أن آينشتاين قد رأى جمالك مثلاً ؟!

- ماذا كان سيحدث ؟!

- أجزم بأنه كان ليترك الفيزياء ويدمن الكحول .

- وأنت ، ألم تحتسِ كحولاً قط ؟!

- كحل عينيك كافٍ ..

قال هذه الكلمات دون وعي، ثم وكأنه أدرك نفسه وهو يرى وجنتيها تحمران خجلاً ، جعل أسنانه العلوية تلاصق السفلية، ثم كشف عنها، رفع حاجبيه إلى الأعلى، ثم جعل رقبته تُنزِلُ رأسه إلى الأسفل تدريجيا ثم نطق:

- لم اكن أقصد، وأيضاً .. تخيلي أن أحتسي الكحول ؟!

- اه، لكن الكثيرون في هذه الأيام يفعلون، أنتم الشباب لا أمان لكم.

- لكن لست أنا.

- اه، نسيت أنك متشددٌ في دينك.

- متشدد ؟! ليست الكلمة الصحيحة على الإطلاق، أنني أحاول [illegible]

الإسلام ليس إلا.

- أتصلي إذاً ؟!

- منذ كنت في الحادية عشر من عمري لم أقطع فرضاً إلا ما ندر، أما [illegible]

أسبوعٍ تقريباً ، فلم أصلِّ أحدهم.

- لماذا ؟

- لا أعرف، كسلٌ ربما، إعتقاداتٌ فلسفية .. وضجيج أمي .

- أتعدني ؟

بماذا ؟

- أن لا تقطع فرضاً ؟

- أتصلين ؟

- أقد حُرِمت الصلاةُ على فتاةٍ خليعة الحجاب ؟!

- لم أقصد ذلك أبداً ، لم أفَرِّق يوماً ما بين إحداهن ترتدي الحجاب وأخرى لا تفعل.

- أتراه فرضاً ؟!

- لا أعرف، ليس تماشياً معك، ولكنني لم أجد أيةً واحدةً تنص على الأمر قطعياً ، ربما يوجد ولكنني لم أبحث جيداً

- أتتزوج واحدةً لا ترتدي حجاباً إذاً ؟!

- على الأغلب لا.

- قلتَ أنك لا تفرق ؟ وقلت أن الدين لم يَنهَ أو يُنهِ الأمر قطعياً ؟

- لكن ..تذكري أنني رجلٌ شرقيٌ شديد الغيرة.

- الشرقية تجعلك تسيطر على زوجتك ؟!

- ومن قال ذلك؟! لكن ألا ترين أن شيئاً من الحب أن تهدي المرأة جمالها لزوجها فقط ؟!

- نعم، ولكن لماذا لا يكون الأمر سيان؟ لماذا لا يهدي الرجل جماله لزوجته فقط ؟

- الرجل ليس من ميزته الجمال كما المرأة، طبيعتا الرجل والمرأة مختلفتان.

- الرجل والمرأة مختلفان ؟! عقلك لا زال صدئاً إذاً **بأفكار جدتك.**

- صدقيني أغسله كل يوم، أقرأ من الأفكار ما يكفي لأحكم .. **ولكن لنكن** واقعيين، الرجل والمرأة مختلفان، أنتِ تلبسين فستاناً ، **تخيلي أن أذهب** إلى الجامعة بفستان، ماذا سيحدث ؟! ألن أصبح **حديث المارة وقتها ؟!** يتحدثون أن الرجل والمرأة سيان، ولكن تخيلي ذلك الذكر عديم الصبر أن يربي طفلاً ، ماذا سيحدث ؟ أؤكد لك أنه سيشبعه ضرباً بعد ست دقائق من البكاء، لو لم يكن هناك فرقٌ ما بين الذكر والانثى **لما خلقنا الله أصلا** ذكوراً وإناثاً ، لخلقنا

إذا كنت تعرف نصاً دينياً يفرض الحجاب فرضاً نهائياً **فأرجوك أرسله** لي.

جنساً واحداً ، ما الفكرة من بحثي إذاً عن أنثاً غيري **إلا لتكملة** نقصٍ ما فيَّ ونقصٍ ما فيها ؟!

- لكن المجتمع والقوانين مجحفةٌ بحقها.

- المجتمع والقوانين هي حجة كل أنثىً لا تدافع عن حقها، **صدقيني إن** معظم من ينادون بحقوق المرأة هم لا يريدونها أصلاً ، **المرأة وحدها** من تستطيع الحصول على حقوقها، أيُّ قانونٍ لا يسمح **بأن تأخذي حقك** مثلاً ؟!

بعض القوانين تلزمك بأعمالٍ معينةٍ وبساعاتٍ معينة.

أعمالٌ معينة، ماذا تريدين أن تعملي ؟ سائقة تاكسي ؟! جربي الأمر وأؤكد لك أن لا أحداً قادرٌ على إيقافك، عاملة في منجرة ؟ في إحدى الورشات ؟! والساعات المعينة، ماذا ستعمل الأنثى بعد الثانية عشرة ليلا مثلاً ؟! في محلٍ تجاري ؟ في حضانة ؟ أسيضع أحدهم ابنه في حضانةٍ ليلاً ؟! ألن يقتصر العمل على المشفى ؟!

- إذاً، لا أحد يجحف في حق المرأة ؟!

- إن الوحيد الذي يجحف في حق المرأة هي المرأة نفسها، والوحيد القادر على إعطائها حقوقها هي نفسها، صدقيني، إن الأسد لا ينتظر من الضباع أن تعطيه حقه.

- صحيح .. ولكن .. عن ماذا كنا نتكلم لنصل إلى هذه النقطة ؟!

- (ضحك أيمن) عن الفيزياء ..

- لا أرجوك .. لماذا ذكرتك بالأمر، أيمكنني سؤالك شيئاً آخراً ؟

- نعم تفضلي.

- لماذا تكره النظارات إلى تلك الدرجة ؟!

- أي حقٍ هو الذي يعطي لزجاجةٍ أن تكون أقرب مني إليكِ ؟!

***

١٦- في بعض الأحيان، يعطي لاعب الشطرنج إحدى بيادقه هدية، فيسارع الخصم إلى قتله ويقع في المصيدة، اللاعب الجيد هو من يجعل خصمه يلعب على هواه.

كان يعود إلى ترفه في عشق الفيزياء، إن امرأةً كتلك قد تجعلك تعشق الجحيم في عشقها، فكيف بالفيزياء ؟! كان يبتسم كل نصف دقيقةٍ على أسوأ تقدير، نادراً ما قد حصل هذا من قبل، آه ما قد تفعل عيناها بك، قد تعيدك إلى الحياة مئة مرة، وتعيدك إلى الموت مئتين، وتجعلك تتمنى لو أنك لم تعرف امرأةً قبلها، تتمنى لو أنها تكون وحيدة، عينان لاعسليتان لابنيتان وحيدتان في فلكٍ واحد، وجنتان ورعتان بتوشيحةٍ من الحمرة الخجلة، الآن توقن أنك راسبٌ لا محالة، فالمسألة معقدة، وتوقن أنك مهزومٌ من أول الحرب، كيف لا وعشيقتك اليوم ملاكٌ لا يرحم ؟ وكيف تغوص في حلمك المتراخي ؟ أنت أيقنت حبها واستحالته، وقررت وأنت تراها تبتسم وهي تجمع كتبها قبل الذهاب، أنك لن تبوح بحبك فأنت تعرف النتيجة، كيف لملوك أستراليا أن ترضى بعبيد إفريقيا أزواجاً؟!

ما الفرق بينكما ؟! لا شيء .. سوى المسافة بين السماء والأرض

والاستحالة، إن الفرق بينكما مبالغٌ فيه، إن فتاةً كتلك، تملك عائلةً كاملة، كيف سترضى بابن مطلقة ؟! وإن أنثى كتلك بكل أنوثتها كيف سترضى بقصيرٍ مثلك ؟! وإن واحدةً مثلها تملك الجنسية الأمريكية كيف سترضى بإبن الجنسية على حدود السابع والستين ؟! وهل ترضى ابنة المدينة المرفهة بابن القرية المكبوتة ؟ وهل ترضى الفتاة التي تشبعت ب"الكورنفلكس" صباحاً أن تفطر على الزيت والزعتر ؟! إن ما يفرق بينكما هو لا شيء، فلا أشياء أصلاً تجمعكما.

ولكن، أتراها قد عانت من الأمر أم تراها قد اعتادته وهي تقبل دعوته لشرب الشاي، كان يوم ثلاثاء عندما التقاها مصادفةً أمام كلية الهندسة، طرح السلام عليها ثم أجرى حديث اللقاء الممل ذاك، ثم كان أن تجرأ على دعوتها لشرب الشاي.

- إذاً، هل أستطيع دعوتك لشرب الشاي غداً ؟!
- أن تدعوني فلا، ولكن أن أشرب الشاي أنا وأنتِ فليست هناك مشكلةٌ في الأمر.
- غداً ؟ على الحادية عشر تماماً ؟
- التقيك هنا، ولفت رأسها ..

وهناك، قد انتظر ما يزيد عن إحدى عشرة دقيقةً بعد الحادية قبل أن

تبتسم مقبلةً عليه.

- لماذا تأخرتِ ؟

- كي أرى إن كنت ستنتظر أو لا.

- وماذا رأيتِ ؟!

- إذاً، أين سنشرب الشاي ؟! بعد أن ضحكت

- أين ما شئتِ ..

- لا يهم، أين تريد أنت ؟

- إذاً، كافتيريا التجارة مناسبةٌ جداً.

- التجارة بعيدة.

- ولكنك قلت أينما شئت أنا !! هيا بنا ..

ومن مدخل الهندسة إلى كلية التجارة، لم يكونا قد تحدثا سوى بضع الكلمات المكررة، انتهيا من تحضير الشاي بسرعة، صعدا درجات كلية التجارة واحدةً تلو الأخرى، وأمام المكتبة هناك جلسا على إحدى الدرجات.

سألها وهو يتطلع إليها :

- كيف حالك ؟!

- هذه المرة السادسة الذي تسألني عن حالي، قلت لك، بخير.

- من ثانيةٍ إلى أخرى، الأحوال تتغير من حالٍ إلى حال.

" وضحكت "

"ارتبك هو" إذاً كيف حال أبيك ؟

الحمد لله، هي بخير.

- وأمك ؟

- أمي بخير، أختي الكبيرة ستنهي هذا العام مدرستها، وأختي الصغرى لا أعتقد أنها تعاني أية مشاكل في النطق، أخي يعمل في إحدى الشركات وحالته جيدةً جداً، هلا اكتفيت من هذا ؟!.. تذكرت قال لي مازن بأن عيد مولدك قد اقترب ..

- يا له من غبي .. عيد مولدي في السابع والعشرين من يوليو ، ما الذي ذك الموضوع ؟

- أردت أن أفتح موضوعاً وأن أخفف ارتباكك ليس إلا

- (وضحك) متى امتحان الفيزياء ؟

غداً على الثانية عشرة.

- ومتى ستنتهين منه ؟

- أعتقد على الثانية ظهراً.

- جميل، ذكرتني، هناك حفلٌ لمرضى السرطان غداً في جمعيةٍ قريبةٍ عليَّ أن أذهب معهم.

كان قد تيبس هو، وأنقذته هي عندما سألته أن يتمشيا ..

"إذاً المهم " قالت هي، بدأت فلسفته بقوله أن لا شيء مهم إذا

نظرنا إلى الأمور من تفاصيلها .

ماذا تقصد ؟

كيف أشرحها لك .. الشمس .. كانت جميلة ً ومقدسة ً إلى الحد التي كانت تُعبد عندما كانت شيئاً جامداً لا نعرف ماهيته، لكن العلم جعلها عبارة ً عن مجموعةٍ من الانفجارات لا شيء أكثر.

اه .. جميل، فهمت الأمر.

- انها شيء مثل الاشتراكية .. نحسبها معقدة ولكن ..

- ما الاشتراكية ؟

- حقاً ؟! لا تعرفين ما الاشتراكية ؟! الاشتراكية .. ماركس ..ألا تعرفينه ؟

- من هو ماركس ؟

- ماركس، مؤسس الحزب الشيوعي .. اليسار ؟

- ألهذا محمود درويش يسمونه شيوعي ؟ لأنه يكتب بيده اليسرى ؟!

- بربك !!

- (وضحكت) أعرف أنا لست مطلعة ً بالقدر الكافي ، كنت أتمنى عدة أشياء في حياتي ، ان أقرأ الكثير من الكتب وأن أتعلم الموسيقى ، والشطرنج و ..

- أتعنين ذلك حقاً ؟!

- ماذا ؟

- تريدين أن تتعلمي الشطرنج ؟!

- نعم ، كثيراً .

- انتظري قليلاً

وأخرج واحدةً من حقيبته.

***

١٧_ أنتَ تحتاج إلى فرصة واحدة لا أكثر لكي تنتصر في حروبك. لا تستسلم، أكمل طريقك وابحث عن فرصتك.

شخصٌ ما أضاع حلماً على ناصية الطريق. واختار أقل الأسوأين سوءاً بالنسبة إليه، الهندسة لا الطب، ما الفرق بينهما ؟ " لا شيء سوى السنين التي سيضيعها بلا فائدةٍ " يقول هو، لم يرسب في أي مادةٍ في مواده الجامعية لكنه لم يعش حياةً جامعيةً كما كان يخطط، كان ذكيا، أنهى الهندسة بأربعة أعوامٍ ونصف، ووجد عملاً منذ شهرين.

وها هو يعيش يومه روتيناً، يصحو مع السابعة، يغسل وجهه وأسنانه، يمشط شعره، يتأنق كثيراً كما كل المفروض من كل المهندسين، البدلة الرسمية للاجتماعات مع الشركات، والقميص الذي ينغرس أسفل البنطال في المشاريع، يلتقط حذائه، يحتسي القهوة مع سيجارةٍ اعتادها منذ الهندسة، ويمضي إلى عمله، من مشروعٍ إلى آخر ومن تصميمٍ إلى آخر، تجرع الإسمنت بما يكفي لقتله الآن، تصبح الساعات ثقيلةً قاتلة، يشعر وكأنه يصب الإسمنت في حواف عقله وقلبه معاً، لقد اعتاد الروتين، والوحدة واللاوحدة.

أتعرف ذلك الشعور، شعور الوحدة واللاوحدة معاً ؟ شعورٌ

مفاده تواجد الأشخاص معك مكانياً بدون إدراكٍ منهم لما يعانيه قلبك أو عقلك.

يعود إلى منزل العائلة، فيدب النشاط فيه، ويعود إلى حلمه "التمثيل"، لا زال يوقن أن كل الأمر يحتاج إلى فرصةٍ واحدةٍ لا أكثر، يكثر من المسرحيات بعد الثامنة، إن لم تكن حيةً على مسارح يتتبعها تتبعاً، وعلى الإنترنت لم تبقى مسرحيةٌ واحدةٌ معاصرةٌ لم يكد يحفظها نصاً غيباً.

بعد فترةٍ أدركت أمه الأمر، لقد أسائت لابنها بفعلتها، لكن الأمر خرج عن طوع يديها، لقد قررت حياته الآن ولم يزد وفاة والديه في حادث سيرٍ قبل فترة الأمر إلا تعقيداً، انغلق على نفسه أكثر فأكثر لكنه ما زال يوقن، فرصةٌ واحدةٌ هي كل ما يحتاجه لتعود نفسه إلى سابق عهدها ويعود إلى ذاته.

***

الحب لا يجعلنا أفضل، بل يجعلنا أسوأ بصورةٍ جميلة ..

في متاهات الحياة سنصادف الكثير، سنموت على شفاه الحب، سنعشق، سنقاتل من أجل ذاتنا، وسنبيع كلماتنا بسرمديتها الجميلة، وفي منتصف الليلة، وكعادتنا، سنتحدث عن كينونة الحب، وعن عاداتنا السخيفة، وقبل أن تدق الثانية عشر ليلاً - كعادتنا المغزلية - سنتذكر

لينا. وعيني لينا الغبيين، نظاراتها السخيفة نادرة الاستعمال إلا أوقات الدراسة، وجهها الأبيض الغمامي بتوشيحةٍ من الحمرة الخجلة، وشعرها الذي طال إلى نهاية الليلة، وقبل أن ننهي كأسي ألم، سنشنق نفسنا بغصلة شعرٍ من شعر لينا، وسنوقظ جراحنا، لنقنعها بالواجب الأزلي بإوجاعنا، نعد لها الفطور، جرحا ألمٍ قد يكفيان، ونشرب الدمع شاياً، وفي نهاية الأمر نبتسم، ونكون أقل تفاؤلا بقولنا "ربما بسماتنا هي التي ستميتنا ".

من دون فنجان قهوته كان جالساً في فراشه، كان قد أدمن القهوة قبلها إلى أن رآها، فاكتفى بإدمان عينيها، وكلاهما قاتل.

سحب إليه غطائه، وسحب قدميه إلى أن صنعا أطول جبلين ممكنين، وضع يديه حولهما، واستطلع بناظريه الغرفة، تأمّل في صورة والده قليلاً ، ثم فكر " هل كان والده يحب أمه حقاً ؟! لا لم يفعل .. وإلا لماذا طلقها؟ أهو يفكر فيها الآن كما يفكر هو بلينا ؟! ألا زالت هاجسه ؟ لكن أربعة عشر عاماً مرت، إن الأمر شبه مستحيل، أتراه في هذه الأربعة عشر عاماً لم يفكر ولو للحظة أن يزورها وأن يسترق شيئاً من عينيها ؟! أتراه يجلس ليلاً ويفكر بمصيرها بعده ؟ أم أن الجفاء قاسٍ ومنسٍ ؟! كيف هو شكله الآن، ألا يزال يشبه الصورة تلك ؟" تقول أمه أنه لم يرث عنه شيئاً ، تؤكد أن عينيه كعينيها وفمه كمثلها، وكل الأشياء موروثة منها، ولكنه ينفي وإلا لكان نسخةً طبق الأصل عنها، حتى لو لم تحبه فذلك لا ينفي كونه والده.

"ما الحب ؟" يسأل نفسه وهو يرخي رأسه إلى الوراء حتى استراح على وسادته، ولماذا طيفها لا يزال يلاحقه ؟ أقد أحبها حقاً ؟! لكن، أيفعل الإنسان أمراً وهو لا يعرف ما هو ؟! كيف أحبها إذاً وهو لا يعرف معنى الحب أصلاً ؟! أيُخلقَ الأمر من دون معنى ؟! أيكون مبهما؟ أيكون فكرة ؟! أو يكون شيئاً فراغياً معناه أن لا معنى له، شيءٌ كما الله.

منذ رآها في أول حصةٍ للفيزياء تلك، شيءٌ في تكويناته الداخلية تغير، لم يسمع صوت موسيقى ورقص كما كان يشاهد في الأفلام عادةً ، ولم يدخل الحب إلى قلبه من النظرة الأولى، ولم تدق نبضات قلبه حينها - هو يقسم أنها كانت تدق فيما بعد لكن ليس في بداية الأمر - ولم تحدث بينهم لحظة انجذابٍ ما، كان كل شيءٍ طبيعياً .

لكن الأمر بدأ بعد فترة، بدأت تجتاح عقله شيئاً فشيئاً إلى أن استوطنته بالكامل، من نقطةٍ عسكرية تحولت إلى مستوطنة كاملة تنهش ضلوعه كلها إلى أن اختفت دولته وأعلنت دولتها، يفكر فيها أكثر من ما يفكر بنفسه، تارةً يجتاحه الفضول عن سر لذعتها تلك، وعادةً يفكر بحديثها عن المرأة، ويبتسم كلما تذكرها وهي تحمرُ خجلاً ، عندما يصادفها يشعر بكيانه يهتز، ويشعر بعينيه تبتسمان، يرتبك لسانه أمامها، تخرج الكلمات يتيمةً مرملةً ، أيكون هذا حباً مثلاً ؟!

لم يقرأ يوماً عن معنى الحب، لم يكن بالموضوع المثير للفضول لديه، لم يكن يعرف حينها أنه سيأخذ اشتراكاً لا شهرياً ولا سنوياً فيه، إلى الموت.

مسح يديه على جبينه باتجاه شعره، ثم عادتا إلى أسفلٍ ودعك بهما عينيه ثم فتحهما، تثاءب بعمق، أزاح ظهره عن مخدته وقد جلس متربعاً، وضع كوعيه على قدميه ثم أرخى وجنتيه على كفيه، وسأل نفسه " ما الحب إذاً ؟!".

في السابق حينما كان صغيراً، كان يرى في الحب أن يختار الأنثى التي سيسكن إليها، أن يعرفها من قبل، لم يكن يدرك وقتها أن الحب مختلفٌ تماماً، وأن الحب هو من يختار أفراده لا الأفراد من يختارونه، هو من يلقي عليهم تعويذةً ما.

قالت له أمه يوماً "لا تقرب النساء قبل سن الخامسة والعشرين" وزادت عليها " لا تفكر أن تحب إحداهن"، كان صغيراً وقتها ولم يدرك الأمر، والآن وعاه، تطلب منه كبت قلبه عن الحب، ويسأل نفسه " أتستطيع إذاً هي منع فمها من التنفس ؟!".

في الأفلام الهندية التي كان يدمنها، الحب يأتي بسرعة، اثنان

يلتقيان فجأةً ، وتحدث المستحيلات وتنتهي القصة بزواجهما. في الأفلام الأمريكية خاصة، الحب يعني الجنس، عادةً ما يقولون في افلامهم لنقم بالحب DO THE LOVE قبل القيام بالجنس، هم فعلياً لم يعرفوا من الحب شيئاً ، يقول هو .

أما في المجتمع العربي فالحب متلخصٌ في العلاقات الطائشة السريعة وفي اللون الأحمر، أي وردةٍ حمراء قد تعني حباً ، ضحك كثيراً بعدها وهو يتذكر مطعم KFCوزجاجات الكوكاكولا، أتعني تلك أيضا الحب ؟! ويكمل تفكيره إذا كان الحب عبارةٌ عن لونٍ أحمرٍ يلطخ أيامنا، ملابسنا وأفكارنا، فقتلى سوريا هم أكثر الناس عشقاً.

لكن الحب بعيدٌ عن كل هذا، تبدأ فلسفته تلك، يقول في نفسه:" الحب كما الثلج مع أنه يشعرنا بالبرودة إلا أنه يجعل أيامنا أكثر جمالاً و بياضاً ووضوحاً "، ويعلل أنه من يوم ما رأى تلك الجميلة، بدأت حياته تتخذ مساراً أكثر جدية، بدأ يرى الأشياء بقلبه لا بعينيه، بدأ يحب حياته مع أنه كان يدرك أن النهاية لن تكون بيضاء على وجه الإطلاق ..

بدأت أفكاره تتوه يميناً ويساراً ، يسأل نفسه :" أنستطيع

الحب وسط الحرب أيضاً ؟" ويكمل أن الحب في وطنٍ يقتات الجنود من شعبه دمائهم لشيءٌ عظيم، فرصاصات الحب أصعب من رصاصات الحرب، فكيف إذا اجتمعت الرصاصات كلها في جسدٍ واحد، وإلا، أولا يكون الحب مقاومةً أيضاً ؟! ألن نثبت حينها أننا قادرون على العيش وعلى الحب في أكثر حالاتنا سوءاً ؟! إن مقدرتنا على الحب حتى في هذه الظروف تدل على أننا من أقوى الشعوب، يفكر بأن شكسبير لو عاش في حياتنا مثلاً لمات روميو بسكتة قلبٍ من مصاريف الزواج، أو قتل برصاصةٍ من جندي.

"أيستطيع الإنسان أن يعشق أكثر من مرة ؟"يسأل نفسه، يجيب للوهلة الأولى بأن الحب يأتي مرةً واحدة، وأن الذي يحب أكثر من مرةٍ ذلك إنسانٌ واهمٌ ، لكنه بعد التفكير قليلاً بالمنطق، يرى في الأمر ممكناً ، إن الحب القائم على أن الفتاة تملك شيئاً ما ينتعنا إليه، قادرٌ على جعل أخراهن تملك الأمر ذاته، إذاً فالأمر ممكنٌ، لكنه يبتسم وهو يفكر أن الذي يحب أكثر من ثلاث مراتٍ في خمس عشرة سنةٍ هو إنسانٌ مريضٌ نفسياً أو ذو قدرةٍ هائلة، من يستطيع أن يملك قلبا قادراً على تحمل الحب وويلاته أربع مرات ؟! الحب قد يأتي كثيراً ، لكن الحب الحقيقي يأتي متفرداً شجاعاً ينتزعك انتزاعاً من نفسك، وفي بعض الأحيان، يصبح الحب كالموت .. يأتي مرةً واحدةً ولا يعود ..

الحب، ما الحب ؟! ذلك الفيزيائي يرى فيه مجازاً أو فكرةً جميلة، وصفه بأن الحب كما الماء، البرودة الزائدة أو السخونة الزائدة كلٌ منهما يميته، هو يحتاج إلى الحالة الوسطى ليبقى حباً، وأحيانا يصبح الحب كالذهب، للطبقات الراقية فقط، ثم تبسم وهو يفكرويقول " الحب لا يفنى و لا يستحدث، ولكن يتحول من واقعٍ سعيد إلى ذكرياتٍ تعيسة" .

لكن الأمر وصل إلى حد المنطق وهو ينطق أخيراً بأن الحب " هو ذلك الشعور السخيف بإيجادنا ذلك الشخص الذي يناسبنا، والتمني بأن يجمعه الله بإنسانٍ أفضل منا " .

***

- أأتعرى ؟

- أهذه هي المرة الأولى لك ؟

- نعم، المرة الأولى، ولذلك دفعت الضعفين أنت.

- وماذا يجبرك علي الأمر ؟

- هل سألت هذا السؤال لنفسك ؟

- لم تتلوثي بعد، يمكنك الخروج من الأمر قبل أن تدخليه.

- أجئتَ لممارسة الجنس أم لتدعوني إلى التوبة ؟

- يبدو أنك واعيةٌ إلى درجةٍ معقولة، أأكملت دراستك الجامعية ؟

- منذ عامين أنهيت المحاماة، وها أنا ذا ..

- لم تجدي وظيفة ؟

- أعرفت هذا لوحدك ؟!

- ووالداك؟

- لقد أخذهما الله.

- سيعاقبك الله من وراء هذا.

- أرجوك دع الله جانباً، في النهاية سنتخالص أنا وهو، لا تأخذ دور أحدٍ من العشرة المبشرين بالجنة وتعطيني دور العاهرة، أنا لم يعطني الله ما أعطاك، أما أنت ماذا ستقول له؟ أرجوك، كلٌ منا يملك درجةً كافيةً من النقص ومن الذنوب، اهتم بنقصك وذنوبك قبل أن تنظر إلى ذنوب ونقص الآخرين.

***

صحى مع السابعة، كان يوم أحد، ولكن امتحانات النصف سنةٍ تقدم أيام الآحاد عادةً، لم يدرس كثيراً على امتحانه هو بعدما اهتم بتدريس ذات اللذعة، هو يفهم القوانين على كل حال، هجر سريره، فتح خزانته، استطلعها كمن يبحث عن فريسةٍ سمينة، تناول بنطال الجينز على غير عادته، ولبس قميصا أزرقاً بحرياً ذا كمين، غسل وجهه مرتين، فرشى أسنانه، مشط شعره ثم تعطر، نظر إلى المرآة، فتح الزر الأعلى

من قميصه ثم أغلقه، فتحه ثانيةً ، أغلقه من جديد، نظر إلى المرآة ثم أعاد فتحه، وضع قميصه تحت بنطاله، عادةً ما يتركه فوقه، شيءٌ ما قد تغير، كان قد وقف أمام المرآة ما يقرب الخمس عشرة دقيقةً في ترتيب هيأته الجسمانية، لم يفعل ذلك من قبل مطلقاً ، ولا أعتقد أن امتحاناً في الفيزياء يتطلب منك كل هذا، هي عينا امرأةٍ فقط من تجبرك على اعتناق أناقتك.

وجه أمه كان يرقبه بصمت وهو يراه يغلق الباب بكل أناقته، كانت تدرك أن شيئاً ما يحصل، وأن ابنها المدلل يخبأ أمراً .

أغلق بوابة البيت، أومأ بيده إلى خالد ثم تبسم، كانت السيارة التي تقله قد وصلت، صعد إليها وامتطى كرسياً ، أخرج من جيبه سماعات الأذن، وضع طرفها بهاتفه وسماعتيها بأذنيه، شغل موسيقى جبران، أغلق عينيه، دندن قليلاً ثم فكر.. بعينيها طبعاً .

نزل من السيارة على مدخل الجامعة الشرقي، سلم على أبي أحمد واشتري منه علبتي عصير عنب، مازحه كعادته، تبسم لحارس الأمن على المدخل، رد هو الابتسامة تلقائياً ، ثم اتجه إلى مدخل كلية العلوم، ثم فكر.. بعينيها طبعاً .

دخل كلية العلوم، استدار يميناً وهو يمشي، نزل الدرجات واحدةً تلو الأخرى، كان كفرخ حمامٍ حديث الولادة سعيداً، تابع نزول الدرجات، استدار يميناً حينما رآها .. ثم نطق :ـ

- صباح الخير.

- استغربت هي، صباحك، ماذا تفعل هنا ؟

- لا شيء، المعلم جاء يطمئن على تلميذته.

- والتلميذة ستخذل المعلم، حقاً لا أفهم شيئاً .

- لذا جئت ..

- كيف عرفت أنني هنا ؟!

- صدفة .. (وضحك).. تفضلي، لقد جئت بعصير العنب.

وضعه على الطاولة وتناول كرسياً ووضعها إلى جانبه وجلس :

- إذاً ، ما الذي لا تفهمينه ؟!

- بصراحة ؟!

- نعم.

- كل شيء (وضحكت).

- إذاً ، سأشرح كل شيء.

- ولكن أرجوك، بطريقةٍ مبسطةٍ بعيدةٍ عن القطار ذاك.

- حسناً .. ولكن خذي الأمر كدعابةٍ ولا تنزعجي من أية كلمةٍ سأقولها،

اتفقنا ؟!

- اتفقنا.

- ما الموضوع الأول ؟

- كمية التحرك.

- سهلةٌ جداً ، الكتلة مضروبةٌ في التسارع، أنظري إلى ذلك الأحمق.

- ما به ؟

- إنه يتطلع إليكِ منذ جلستِ.

- وما دخل هذا بذاك ؟!

- هو يملك قلباً ، لو تدحرج هذا القلب ذي الكتلة بتسارع نبضات قلبه لأصبح له كمية تحرك .

- والدفع ؟

- قوة جذبك لقلبه مضروبةٌ بالثواني التي نظر فيها إلى عينيك .

- والعلاقة بينهما ؟!

- دفعك لقلبه يساوي الفرق ما بين كمية تحركه بعد رؤيتك عن قبل عينيك .

- (وضحكت)، حسناً ، والنسبية ؟

- سهلةٌ جداً ، شرحتها لك، امرأةٌ جميلةٌ الكل يرى أنها جميلة ولكن يختلفون في مقدار جمالها بناءاً على ذوقهم، اختلافٌ في المرجع وقلت انالنسبية تسري على كل الأجسام قلت لك ..

- إلا على عيني، أضفت .. (ثم ضحكت).

- إلا على عينيك، تتمردان على القوانين وتصنعان قانونهما.

- حسناً ، كيشروف ؟!

- تيارٌ مغلقٌ من الحب يجري في شرايين أحدهم، المشاعر الداخلة إلى شريانٍ ما هي نفسها الخارجة من الوريد المتصل به، الأمر سهل .

- هل هو سهلٌ إلى هذه الدرجة ؟!

- كيرشوف ؟

- لا، أقصد الحب.

- بل أعقد من الفيزياء ..

- أأسألك شيئاً ؟

- تفضلي ، ولكن يمكنني الامتناع عن الإجابة إذا لم يرقني السؤال .. (وضحك)..

- أعرفت فتياتٍ من قبلي ؟!

- الإسلام يجب ما قبله.

بعد ساعةٍ ونصف تقريباً ، انصرف كلاهما الى امتحانه، بل أقصد إلى امتحانها هي، فهو وحتى بعد أن وُضعَت ورقة الاسئلة أمامه كان يفكر فيها، هو كان يدرك أن شرحه هذا ليس كفيلاً بجعلها تفهم الأمر كله، هو حاول على الأقل، لكنه كان يعرف أنها لم تدرس جيداً ، فقرر في

امتحانه هو أن يترك ورقة إجابته فارغة ليشاركها الرسوب، ربما الحب أصغر وأبسط من ما نتخيل.

***

١٨- في لحظةٍ ما، سترى أنك قد خسرت كل شيءٍ، أو كثيراً من الأشياء، ابتعد عن ساحة الشطرنج، أنظر إليها من زاويةٍ أخرى، وأكمل مسيرك.

"موسيقى Marcha fúnebre - Chopin"

" أيمكنني القول الآن بأنك امرأةٌ مستهلكةٌ قد عفى عن عينيها الزمن ؟ لون عينيك بهت، والحمرة المخففة كانت مفخخة وتقتل أكثر، ضحكتك أضحت كطحين الأنوروا لكل اللاجئين، وأنا شرقيٌ أنانيٌ أحب التملك، طحين وجهك قد يصنع خبزاً يشبع متعوسي الأرض، وإن قلبك يابس، شعرك المرتب بعنايةٍ مملٌ جداً، إن من فوضى شعرك انبثقت الثورات، يمكننا القول الآن، أن الأمر استحالة، وأن العلاقة بيننا كالعلاقة بين شحنتين موجبتين، وكالعلاقة بين ملاكٍ مثلك وشيطانٍ مثلي، وكالعلاقة بين كافرٍ ودينٍ سماوي، لقد كفرت بحبك.

أو أيمكنني القول الآن بأنك امرأةٌ "فوتوشوب"، مساحيق التجميل تجعل وجهك ضبابياً قد أخفيت معالمه كمقبرة، ضحكتك أصبحت مصطنعةً جداً، والحمرة تجعلك أكثر فتنةً وأقل جمالاً ،ومزاجية

الأنثى من تجعلها قبيحة، وأكاد أقسم أن لا أحد أتقن المسرحية كما أتقنتها عيناك، إن عينيك جامدتان، وإن عسل عينيك [illegible]

أيمكنني القول بأنك خيبة، وأنا أبحث عن وطن؟ خيبتي كأوسلو لم تعطني شيئاً، شعرك أطول من مفاوضات السلام، شفتاك قد لطختا بالدم لا بالحمرة، قلبك سياسيٌ قذرٌ يسلب الناس بسمتهم ويهديهم خيبة الأمل، ضحكتك كضحكة "نتنياهو" باردةٌ وصفراء، حديثك كحديث المفاوضين لا يسمن ولا يغني من جوع، كان من الأولى لو تحتج كيلوباترا القاتلة تلك على أن تخلقي أنتِ.

إذاً لا مجازاً، أيمكنني الإساءة أكثر؟ والقول أنك لا زلت طفلة وأنني أتقنت دور الدمية كثيراً، إن قلبك أرضٌ خراب، وإن عينيك قاحلتان وإن لا جميلةً تخلو من الغباء، وإنك أشد النساء جمالاً رغم كل هجائي هذا؟ وأنني كاذبٌ بكل هجائي هذا رغم إيماني بالنهاية الحتمية بيني وبينك ؟! وأنني رجلٌ مفصومٌ أصابته الشيخوخة المبكرة، وعمى الألوان والمؤقت المؤقت، وتعاسة الوقت، وفقدان الذات، والانكسارات الكثيرة أمام عينيك وقلبك، والتيتم دون موت أحدٍ من الآباء، والوحدة المضنية واضمحلال الذاكرة، والتأتأة، والخوف من الظل والظلام وكل الأشياء وسرقة ثلثي الوطن، وخسارة ألف قمرٍ في ليلةٍ واحدة، والرجفات الكثيرة

لساعديه وشريانه التاجي، والانسياق إلى النهاية المؤلمة، والتجارب الكثيرة للانتحار، والفرار من كل ما يحدث وما لا يحدث، وبعضٌ من تعاسات الحب .. وأنتِ".

قال لها يوماً بأنه يتنفسها، ها هو الآن يموت خنقاً.
وتكاثر الكلمات في وصف امرأةٍ لا يعني بالضرورة أنها بتلك الروعة حتى تفنى الكلمات في وصفها .. فالكافرين من أكثر ما وصفه الله تعالى في كتابه الكريم.

"ها قد كبرت يا أمي، يقولون أن ظلام الولادة يبقى حاضراً في أرواحنا، في جبلتنا، يقنعوننا بأن الغراميات والحب المقدس هو شبه معجزة، وأن الذين يموتون في الحروب الكبيرة هم لم يحاربوا أصلاً، ملذة الموت لم تكن مبتغاة، موت الشمس من النافذة المفتوحة، أمسيات رجلٍ منبوذٍ على شباك العشق، وتريات كاهنٍ لا يتقن اللحن، وجهٌ يضيء الشمس ما بعد غيابها، توشيحةٌ من الحمرة التفاحية، وقامةٌ لا تنتهي، ذكريات عزباء، مفرداتٌ لا تتماشى مع بعضها، من يرقصون على وترٍ ولحن، ومن يموتون على وترٍ ولحنٍ أيضاً، اللحظة ذاتها.. أمٌ تقدم الزهر لطفلها، وأمٌ تضع الورد على بقايا طفلها، اللحظة ذاتها .. من يفرون من الموت ومن يبحثون عنه.

والموت، هو انتهاء الكلمات في وصف ذاتك، ومحاولتك جاهداً نسيان من أنت، أو نسيان أنك تحاول أن تنسى من أنت.

قوانين كيرشوف مرةً أخرى، اشتقاقٌ ضمنيٌ للحب من جذوره، والواو التي زحلقت أفكاره عن تراجيدية الحياة، تهجين وطنين ليصبحا وطناً واحداً ، وإن غباءنا المستمر يحدده عاملان حسب مندل.. وهما العشق والوطن. وهو وحماقته وعيناها التان أقيمتا على حدود السابع والستين، شعرها الذي يطول كظل الغابات في ساعات الغروب، بسمة طفلةٍ في الصف الثامن، فلسفة شاعرٍ في وصف وجنتين حمراوتين، والموت المؤقت ومن ينسون أوطانهم ويمضون في سخريةٍ ، يوقعون أسماءهم ويرحلون، وكأن الحياة تدور على محوريها، زهرات الأوركيد القديمة، وأغنيات درويش في الغزل المحطم، وكأن كل الذي كان كان مجرد صدفةٍ لا مجازاً، كأن الأقدار تسخر منا.

وأكثر الكلمات إيلاماً هي تلك التي لا نفهم معناها، ولكننا نشعر أنها تعيش بداخل قلوبنا أو قلوبنا تعيش بداخلها.

كان يوقن أن الأمر يؤول إلى النهاية الحتمية، لكنه لم يعلم حينها أنها ستكون بكل تلك السرعة، لم يعلم وهو يبتسم عند التقاطه ورقة

امتحانه المصفرة أنه شارك نفسه الخيبة فقط، وأن التلميذة تلك قد تفوقت على أستاذها حينما حلت جميع مسائل الامتحان ذاك وسطت على عقله، و أهدته مسألة عشقٍ سيعجز عن حلها.

لقد أهدته التعاسة المطلقة، وبخلت عليه بشيءٍ من عينيها، قاتلتاه ومعشوقتاه الأبديتان، هو لم يكسب من الحب ما يقيت به جوعه حتى.

كما لو أنها كانت شمعة، وانطفأت بعينيه.

مازحا يوماً وقال : طويلة الشعر .. طويلة اللسان أيضاً، يوماً ما سأقص لسانك وشعرك ".

سهلت هي عليه الأمر كثيراً عندما قصت غصلتين من شعرها وشنقته بهما.

"لقد اندثر كل شيء " قال في نفسه وهو يتطلع إلى صورةٍ تركها قابعةً هناك، وقرر التخلي عن حقه بها وحقه بخمس عشرة سنةً قضاها بين جدران هذا البيت، كانت أمه تستلقط عينيه مكابرةً وهي تراه يمضي، لكنها كانت أقوى من أن تستنجد رجلاً، قالت في نفسها ، كان ابنها

لكنه يبقى رجلاً أيضاً .

" القدر أقوى منا جميعاً يا حسناء " قال هذه الكلمات قبل أن ترك كل شيءٍ فارغاً منه.

" لقد اعتاد الهجران " يقول في نفسه وهو يغلق عينيه ويرخي رأسه إلى الوراء في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة.

وإن أنثى مثلها تغرس فيك الخطيئة والصواب، وتجعلك ملحدٌ بالنساء جميعاً ، تجعلك تتمنى لو أننا نعيش في عالمين مختلفين، أو على الأقل كوكبين مختلفين. جنة الله بأنهار العسل واللبن أن وضعت على كوكب الزهرة وملئت بكل أنواع الورود والثمار والخيرات قد تكون مناسبةً للنساء، وأية داهيةٍ في أية بقعةٍ تحت أي سقفٍ على أي أرضٍ وفي أية سماءٍ وبأية مجرةٍ ستكون ملائمةً جداً لجنس آدم، أعطهم قليلاً من الطعام وامنع عنهم الحب والكحول.

لماذا انتهى الأمر وهو لم يبدأ بعد ؟ أيكون القدر أقوى منا جميعاً ؟ أو لماذا يعادينا هو ؟ أتحاكمنا امرأةٌ على جريمةٍ لم نرتكبها ؟! أنكون جبناء إلى تلك الدرجة التي تجعلنا نقرر الرحيل إلى مستقبلٍ لا نعرفه أو إلى مكانٍ لا ندري أين هو ؟

نعم، لقد اعتاد على التوهان بعدما تاه في عينيها، ملّ أوجاعه الكثيرة، فقلل استبدالها بوجعٍ كبيرٍ جداً، ملّ الفقدان .. فقرر أن لا يمتلك شيئاً، على الأقل، عندما نخسر الأشياء كلها يصبح الخسران شيئاً تافهاً، وقتها .. لن نملك شيئاً أصلاً لنخسره، ولكن ألن نتمنى في تلك اللحظة أن نملكه ؟!إن فكرة الترف والعدم متقاربتان جداً، إن من يملكون شيئاً لهم نفس وجع من لا يملكونه أصلاً، من يملكونه سيخافون من ضياعه، ومن لا يملكونه سيتوجعون متمنين امتلاكه.

وماذا لو كانت عيناها ذلك الشيء المقدس ؟! كما الحجر الأسود **يكاد** يقسم أن عينيها من الجنة.

ماذا تفعل عينا امرأة ؟ قل ماذا لا تفعل ؟!

كان دائماً ما يقول لها بأنه يشم من عينيها رائحة بحر يافا .. **اقترب** ، اقترب .. حتى غرق.

فتح باب السيارة بعدما فتح عينيه، أغلقه وأبقى **عينيه** مفتوحتين، تناول أغراضه من الصندوق الخلفي، ثم امتطى نفسه **جاراً** حقيبتين بنيتين ماراً بالبوابة الزرقاء والساحة المبلطة **إلى أن وصل الباب** الأزرق، استنشق شيئاً من الهواء، أرخى حقائبه على الأرض، **أدار وجهه**

إلى اليمين، وأخذ نفسه إلى ها هناك، أعاد استنشاق الهواء مرةً أخرى، ثم اتكأ على المقعد الخشبي وأرخى جسده عليه بعدما أغمض عينيه.

نعم .. لقد كان يفكر بها بعدما فكر بأمه، ماذا تراها تفعل الآن ؟ ألم يحن وقت نسيانها ؟ ألن تعتق نفسك من رقتك وتصبح حراً ؟! تسعة أشهر مروا بسلام ؟ لماذا عادت فكرة الانتحار تتسلل إلى خلايا عقلك ؟ يكفيك ما عانيت.

كيف انتهى الأمر ؟ انتهى تماماً مثل ما بدأ، لقد كانت يداه طائشتين، ومن ذا يقنعها أن ذلك حدث خطأً ؟!

كان يوم خميس، لا يزال يذكر، حينما صادفها بعملٍ تطوعي في إحدى مستشفيات مرضى السرطان، لنقل أنها كانت صدفة، هو أسقط ورقة الدعوة بعدما انتهيا من الدراسة على الأرض لتلتقطها هي، كان يوقن أنها ستأتي لا محالة، أنهت امتحانها وذهبت هناك، وهو وكأنه اندهش من وجودها. وهناك كان قد اعترف لها بحبه خطأً، لكنها لم تسمعه، لذا قرر أن يجعل الأمر أكثر جدية، حضّر نفسه، أعاد ترتيب كلماته مئتي مرة، وأخيراً، فتح "فيسبوكه" بعد حاسوبه، تطلع على موقعها لمدة ثلاث دقائق، كتب رسالته إليها وأقر بحبه، مسحها، ثم أعاد كتابتها مرةً أخرى.. مسحها، أعاد الأمر أربع عشرة مرةً قبل أن يقرر أن ذلك جبن، هو ليس

تافهاً إلى ذلك الحد، أيجعل مواقع التواصل الاجتماعي تسهل عليه الأمر؟ أتجعلها تمتص عرقه بعدما تمتص مشاعره ؟ إن سماع كلمة " أحبك " أكثر تأثيراً في النفس من قراءتها، إن قراءتها بأي حالٍ لن تجعلك تشعر بشعور كاتبها، إن الرجفة في لسان قائلها تجعلك تفهم ما يعانيه قلبه.

أو .. متى أصبح الحب تافهاً إلا عندما أصبحت المشاعر إلكترونية ؟! أي موقعٍ للتواصل الاجتماعي يمكنه نقل دقات القلب ورجفانه وهو ينطق الكلمات ؟

أيهم يستطيع جعلك ترى احمرار وجنتي الفتاة خجلاً تدريجياً ؟!

أي عدد من الميغابايتات يمكنه أن ينقل شعور أحدهم ؟

لم يكن يؤمن بالتكنولوجيا اللامجتمعية كثيراً ، تذكر بعدها أنه إلى الآن لم يرسل لها ولو رسالةً واحدة، كيف سيقول لها في أول رسالةٍ أنه يحبها، إن التكنولوجيا وإن استطاعت أن تفكر اصطناعياً، إلا أنها عقيمةٌ بخلق المشاعر، إن ذلك استحالة.

أمضى تلك الليلة وهو يتخيل لقائهما، ستحمرُّ خجلاً بكل تأكيد، ولكن.. أستعيد إليه كلمته ؟! تبسم كثيراً وهو يتخيل ذلك، لو تتلعثم بها، لو تقولها تدريجياً ، حرفاً حرفاً ، لو كأنها شيكات، هو سيقبل بأي شيء، ولكنّ المهم أن يسمعها.

لم ينم كثيراً، لكنه كان يحلم، وعند الوصول إلى منطقة اللارجوع في الحب، يبدأ الحب حقاً، وأشباه الحب هي مجازاتٌ يختلقها الإنسان بسبب حاجته العمياء لإكمال ذاته بأية طريقة.

في الصباح.. توضأ وصلى، ودعى في صلاته أن تكون له. كان صوتها يرافقه وهو يعدُّ كل شيء، لبس قميصه الوردي، بنطاله القماشي الأسود، وحذاءه الأبيض، رش العطر كثيراً كما لم يفعل سابقاً، صعد إلى السيارة مبتسماً وغادرها كذلك، أمضى محاضراته متبسماً، لكن قلبه كان يرجف.

وعلى الثانية عشرة إلا خمس دقائق، خرج من كلية العلوم، توجه مباشرةً إلى الهندسة، وعند مدخلها كانت جالسةً هناك مع صديقتها تلك، تبسم لها بعدما سلم عليها، أشارت له بالجلوس وتحدثا كثيراً، لكنه لم يجرأ أن ينطق أي شيءٍ عن سبب قدومه، وبدأت محاضرة الواحدة قبل أن ينطق شيئاً، هو لم يحصل على ما أراد، لكنه اكتفى بقليلٍ من عينيها.

لم يندم ليلتها، هو إلى الآن يعترف بخجله وجموده، لكنه بعد ثلاثة أيام تجرأ على أن يطلب منها التمشي قليلاً منفردين، تحجج بأنه يريد التحدث معها بموضوعٍ خاصٍ فقبلت هي.

وما بين العلوم والآداب تمتم كثيراً، ثم قال لها بأن تأجل الأمر، أصرت عليه بالقول، كانت تدرك أنه سيقول لها " أحبك " ، أصرت عليه إلى أن اعترف، ثم صمتت قليلاً، وأجابت "شكراً" ، لا أعرف أكان ذلك غباءاً أم قتل بلطافة، تخيل أن تقول لإحداهن "أحبك" فترد "شكراً" ؟!

لكن ذلك لم يغيرالكثير في صداقتهما التي استمرت يومين كاملين بعد ذلك الموقف، حينما تجرأ على دعوتها إلى عرضٍ فنيٍ سيحضره هو وأصدقاءه، لم تكن الكلمات منمقةً كما كانت غالباً، لقد خرجت عفويا خجولةً مثله " هناك حفلٌ موسيقيٌ عند الثانية ظهراً، أتريدين القدوم ؟! " ولم يكن يعلم لماذا وافقت بعدما قالت أنها ستجلب معها صديقتها، لم تكن لديه مشكلةٌ في ذلك، المهم أن تكون عيناها حاضرتين.

وهناك .. عند الثانية، لم يعلم أنه بعد أن وصل قمة السعادة سيبقى عالقاً بين القمم، لكن القمة التالية ستكون مختلفةً تماماً، قمة تعاسته كانت على وشك.

كانت قد مضت أكثر من نصف ساعةٍ على الحفلة تلك حينما طلبت منه اصطحابها لإحضار زجاجة عصيرٍ لها ولصديقتها، تبسم وطلب من صديقته مرافقته، فذهب ثلاثتهما إلى كافتيريةٍ مجاورة، كانت ساحة الحفل قد اتسعت لما يقرب من مئتين، وكانت مزدحمةً حينما حاولوا

الرجوع إلى موقعهم في الأمام، إلا أن صديقته أمسكت بيد لينا وطلبت منه تتبعهما وبدأت تجر لينا بين الأعداد، أما هو فكان وراءهما حينما اصطدمت يديه خطأً بظهر لينا، تأسف وأكمل مسيره ثم جلس، كان قد استغرب حينما غادرت هي الحفل مع صديقتها بعد خمس دقائق، لكنه عرف سرها بعد عدة أيام حينما باحت له بالأمر وطلبت منه مغادرة حياتها متهمةً إياه بأنه فعل ذلك عمداً، صادفها هو كثيراً قبل أن ينتهي الأمر بفراقهما الأخير، عندما باحت له بأنها ستسافر إلى امريكا بعد فترة. يا لغباء امرأةٍ التقيت بها باصطدام ، وأعادت إليك الذكرى باصطدامٍ وتحججت باصطدامٍ لتنهي الأمر.

كان يدرك أن ذلك ليس السبب الحقيقي وراء ابتعادها، كان يعرف أنها تريد أن تنهي الأمر لأي سبب، أرادت أن توقف الحب ذاك بعد أن خافت أن يلتهمها.

كما فعل "فلاد تيبيسو" الأمير الروماني عندما أراد أن يقضي على مشكلة الفقر، فقام بقتل خمسة آلافٍ من الفقراء فعلت هي، فقامت بقتله لا بقتل الحب من قلبه.

كيف انتهت قصتهم بكل هذه السهولة ؟ باختصار، لاعب الشطرنج السيء تمرد على القوانين وحاول الوصول إلى قلب المليكة لا

قتلها كما تنص الشطرنج، فتمردت المليكة وقتلتك قلبه.

أما أمه.. فقد علمت بأمره بعد عدة أيام، علمت أن قلبه قد خفق لأنثى، صديقتها أخبرتها مجدداً بمجالساته الكثيرة للفتيات، فنقمت عليه، وتشاجرت معه كثيراً حينما قال لها أن جميلة تلك الفتاة المدللة التي ألهتها والدته على علاقةٍ مع شاب ذي سمعةٍ سيئة، وقتها هوى الأمر إلى أن تفاقمت أزمته بعد نتائج فصله المتدنية ورسوبه بمادتين، وبعدما ضاق من الأمر ذرعاً حينما تشاجرا كثيراً، صرخ قائلاً بأنها أصبحت سجانةً له وأنه يريد مغادرة المنزل، لكنه تفاجأ كثيراً حينما لم تمانع هي أو تطلب منه البقاء على الأقل.

فتح عينيه، اتجه إلى الباب الأزرق، التقط حقائبه مجدداً، فتح الباب، استنشق غيمة، تبسم، أغلق ذاكرته بعد أن أغلق الباب.

***

أنا إنسانٌ ضعيفٌ، مريضٌ، جبانٌ، وحيدٌ، متآكلٌ، متهالكٌ. **أنا قابلٌ للسقوط في أية لحظة، أنا مصابٌ باليأس المتقع، ومن ينجو من اليأس؟! أنا أقبع في القمة، تلك القمة التي لا أرى فيها إلا حتفي والنهاية، يا للنهاية التي لم أكن أخطط لها مطلقاً، أضعت عشر سنين من عمري في الركض وراء لا شيء، وها أنا اليوم أعاني من كل الأشياء.**

أنا أخاف من السرير ومن العتمة والضوء، ومن الضجيج والهدوء، ومن القمة والقاع، ومن الأصفار الكثيرة، أنا أكاد أخاف من كل الأشياء، كل الأشياء أضحت عدوي الآن، لكنني مضطرٌ للتعامل معها جميعها، أشعر بالبرد والقسوة والحنين إلى لا شيء وإلى الأشياء جميعها، تلك الأشياء التي لم أعرفها من قبل.

أحتسي في اليوم ما لا يقل عن زجاجتين، ثم أكسرهما وأبدأ بالضحك، أنا مدمن للحزن والسجائر، أكاد أقسم أن قلبي كرئتي، الثلاثة مصابون بالتسمم والسواد.

ومن أشد بؤساً مِن مَن يملك الأشياء جميعها لكنه يفقد نفسه ؟! والنفس أمارةٌ بالسوء وبالحب، لكنني منعتها الحب فانشغلت بالانسياق لأشياء أخرى، منعتها الحب كله، لكل الموجودات، وصل بي الأمر أن أكره ربطة العنق الأنيقة التي أرتديها، والحب علاقةٌ متبادلة ، أن تكره الأشياء معناه أن تكرهك الأشياء.

في البيت لا شيء يطيق النظر إلي، لأن لا شيء في البيت إلا الجمادات، وحتى الجمادات أراهن أنها تيبس وجهها إذا ما دخلت.

في العمل، الكل مجبرٌ على التبسم لي، ابتسامةً صفراء قاحلة مدفوعة الأجر. كنت في بادئ الأمر سعيداً شرهاً في جعلهم يفعلون ذلك، كنت قاسياً وأحببت القسوة، لكن الأمر الآن يمقتني، إنهم يرون فيّ وحشاً يُدرُّ عليهم رواتب في نهاية الشهر، وحتى الوحوش أراهن أنها تبتسم إذا ما انتهت من فريستها، لكنني اليوم لست أفعل.

أنا محتاجٌ إلى كتف أحدهم وصدر إحداهن، أنا اليوم وحيدٌ إلى درجةٍ لا تعقل، وبعد عشرة سنين من البناء والعلاقات اكتشفت أنني لم أكون صديقاً يربت على كتفي أو امرأةٍ تقبلني عن حب، كل علاقاتي رأسمالية بحتة مدفوعة الأجر، أحدهم يشاركني الصفقات والشرب، وإحداهن تشاركني الجنس، وفي كلتي الحالتين، الأمر مادي.

لقد مللت من الجنس مدفوع الأجر، صرت أشعر بأنني أقيم الجنس مع آلة. ومللت من أن أحظى بعضوٍ أنثوي فقط، أنا محتاجٌ لجسد امرأةٍ كاملٍ وروحها قبل كل شيء، محتاجٌ أن أبكي في حضن إحداهن وأن أبالغ في البكاء، أن أكون ضعيفاً على خصرها وأن أشعر بكل رجفةٍ فيّ وفيها، أن استنشقها ليلاً وأتحمل مزاجياتها، أن نتشاجر كثيراً وأن نبتسم في نهاية الأمر، أن تشاركني السرير طيلة الليلة لا لأمارس الجنس ولكن كي تكون بجانبي، أن أمتلكها وتمتلكني، أن أقول لها "

زوجتي"، يا لتلك الكلمة ما أجملها، أن تقول لإحداهن بأنها ملكك فقط، أن أتصبَّح في وجهها وأشعر بالامتلاء.

لا أعرف إن كان الله موجوداً حقاً أم لا، ولا أعرف إن كان ينظر إليَّ الآن أم أنه لا يفعل، ولا أدري أكانت تلك الثلاثين سنةً من حياتي مقدرةً أم ما هي إلا صدفةٌ عابرة، ولا أعرف إن كان الله سيسامحني أم أنه سيعاقبني على كل ما فعلت في الفترة الأخيرة إن كان موجوداً، ولكن بغض النظر عن كل شيء، أنا أحتاجه الآن، فإن كان يسمعني فأرجو أن يَمُنَّ عليّ وينقذني من هذا الخواء، وإن لم يكن يفعل أو إن لم يكن أصلاً، فأنا لن أخسر شيئاً في خضام هذه العاصفة.

منذ فترةٍ طويلةٍ أكرر نفس السؤال " من أين تأتي السعادة ؟ وما هي ؟" لكن أحداً لم يجبني، ربما لأن الأمر مجرد وهمٍ افتراضي ليس إلا ، وإن كان .. فأنا أحتاج هذا الوهم، أحتاجه حقاً.

***

" من مذكرات دالا "

"موسيقى Clair de Lune"

من أنا ؟

مجرد إنسانٍ ينتظر حتفه الآن، الطائرة ستقلني غداً إلى حيث نشأت، وملك الموت سيأخذني بعيداً إلى الله وأراهن أنهما الاثنان سريعان بما يكفي لجعلي لا أشعر بالأمر.

لكنني أشعر به الآن، لذا قررت أن أكتب.

هذه ليلتي الأخيرة ها هنا، وأنا أنهيها بالطريقة المثلى التي تجعلني قوية بما يكفي لجعلي فخورةً بقوتي، لا أفعل شيئاً، من أقوى من الذي لا يفعل شيئاً ؟! صدقوني أنه ليس بالأمر السهل بتاتاً.

أنا أعدُّ ساعاتي، جربت تغيير بطارية الساعة عدة مرات، لكنها لم تسرع، منذ عَرفتُ أنني مصابةٌ بالمرض شاخت عقاربها إلى الدرجة التي تجعلني أقسم في بعض الأحيان أنها تغافلني ولا تتحرك، والوقت عدو العشاق وعدو المريضين.

أتعرفون من يرافقني في هذه الغرفة التي اتسعت كثيراً منذ مرضت ؟ لا أحد . الجميع يحاولون التخفيف عني ، لكنني لا أشعر بشيء..

أعددت حقيبتي قبل ساعةٍ تقريباً ، وضعت بعض الملابس، وصوري الكثيرة، زجاجتين من العطر، بعضاً من مساحيق التجميل، والتذكارات الكثيرة من هنا وهناك، ولعبة الشطرنج .

إنها جميلةٌ جداً، صرت أؤمن بأنّ الذي لا يلعب الشطرنج هو يفعل أنصاف الأشياء دوماً، وأنا لم أفعل شيئاً في حياتي سوى الركض حول ذنبٍ .. وهو ينتهشني الآن، لقد قتلني قبل أن أقتله .

يا لها من جميلة، لأكون صريحةً هي الوحيدة التي خففت علي وحدتي في المشفى ذاك، اسمها..ياللغباء، لم أعرف حتى اسمها وأنا قد قضيت معها ثلاثة أيام، ولكن .. بماذا قد تفيد الميت أسماء المارة ؟!

كانت قد أتت قبل فترةٍ في زيارة عاديةٍ كما كنت أفعل أنا سابقاً، لكنني في آخر فترةٍ قد أخذت إقامةً جبرية .. يا للقدر.

تصادفنا، كانت جالسةً وبجانبها لعبة الشطرنج تلك، كنت قد

تعلمت بعض قواعدها وأنا صغيرة، سألتها أن نلعب فتبسمت.

ثم أمضينا الكثير من الوقت - الكثير بالنسبة إليّ أنا ، فثلاثة أيام على ميتٍ وقت" طويل" جداً - حتى أنها أعطتني رقم هاتفها وعنوان بيتها، ولكن .. لا أعرف بما ستفيدني الآن، على كلٍ لا يهم، لأحتفظ بها، فلا ضير في ورقةٍ صغيرة، لن تأخذ مساحةً كبيرةً في حقيبة السفر.

لأكون صريحةً، أنا لست خائفة، بل إنني أموت خوفاً ، لا شيء أقسى من أن يقتلك من أمضيت حياتك تريد قتله ..

والموت ليس مخيفاً إلى تلك الدرجة، الوقت أكثر إخافة.

لا أعرف كيف مضت كل تلك السنوات بكل تلك السرعة وتأبى هذه الثواني أن تمضِ، أن تصبح حياتك منهيةً لا محالةً ولا تملك شيئاً سوى الانتظار .

فكرتُ بالانتحار مراراً ، ولكن لا أعرف لماذا أتعلق بشفا شعرةٍ قد تنقذني وتبقيني في هذه الحياة ، كم أنا ضعيفة ،ضعيفة" إلى حدٍ لا يطاق .

فليعطني القدر قليلاً منا لوقت لأموت هناك لا هنا ..

***

١٩- إذا واجهتك مشكلةٌ ولم تعرف حلها بتاتاً، ابحث عن مشكلة أخرى وحلها، إن لم تستطع، اصنع أنت واحدةً، حرك أبعد جندي عن منطقة الصراع القائمة، عندها على الأقل سيرتبك الخصم ويظن أنك تخطط لأمرٍ ما، اجعله يظن على الأقل أنك ذكي.

"بدون موسيقى"

صحت مع التاسعة فهي لم تنم قبل الثالثة صباحاً، منذ ثلاثة أيام كابوسٌ ما يطاردها، أيهم قد يصحو ليجد نفسه في كل يومٍ قد أصبح قاتلاً هارباً من العدالة، وقتيله هو زوجه المستقبلي ؟! أي تعاسةٍ تلك ؟! أزالت الغطاء عنها، واستنشقت نفسها وأزاحتها من على السرير، مشت حافيةً على بلاط الشقة تلك، وتوجهت مباشرةً إلى الحمام، رشقت الماء على وجهها، وتطلعت إلى فتاةٍ ما تقف في المرآة، تطلعت إلى عينيها مباشرةً، أي حظٍ تعيسٍ تملكه بداخل هاتين العينين، أغمضتهما، رأت في السواد ظله، كان مبتسماً خجولاً كعادته، عيناه سوداوتان حزينتان، ولحيته المتمردة كثيراً، شعره الأسود الممشط بغير عنايةٍ، غمازته الوحيدة كأرملة، بسمته الزائفة، وجهه الذي اسود قليلاً عن سابق عهده، قامته

أكثر ازدياداً طولاً، صمته، وجموده.

ثم بدأت تتغيّرُ الملامح قليلاً من هنا وهناك، خففت لحيته قليلاً قبل أن تزيلها من على الوجود، وأعادت لعينيه بريقها القديم، جعلت من وجهه صافٍ تماماً، ورفعت شعره وقوفاً مرتباً، قصرت من قامته قليلاً، وقللت من امتلائه، وأعادته ابن أربعة عشر عاماً، يرتدي شنتةً سوداء قد أصابها الجدري الأبيض، مرحٌ فكاهيٌ، قدماه لم تعتد على الهدوء، تراه ها هنا وها هناك وحيداً،تذكرت حينما اصطدم بها لأول مرة، تذكرت كيف تأسّف، تراه في الأرجاء منفرداً، تأخره كثيراً عن الدروس، الحفل الختامي في المخيم، وداعها إياه بقولها " أتمنى أن لا أراكَ ثانيةً "، يكبر قليلاً، اصطدامها به مرةً أخرى، تصادفها معه في حصة الفيزياء، تراه يشرح لها النسبية بعدها، نقاشاتهما الكثيرة، وبعدها ترى ظله وهو ينكمش على نفسه قبل أن يعترف بحبه، وداعهما الأخير، ثم تفتح عينيها بعد أن يترائى في السواد دم رجلٍ مقتولٍ بسكينٍ زرعته يداها.

خرجت من الحمام، توجهت إلى المطبخ، أشعلت الغاز تحت إبريقٍ من الماء وضعته هي قبل أن تشعله، فتحت إحدى الغزائن، تناولت السكر و"النسكافيه"، وتناولت من خزانةٍ ثانيةٍ كوبين وضعتهما على الطاولة، وضعت بهما قليلاً من "النسكافيه" وكثيراً من السكر ثم

قالت :

- عرفت أنكِ ستقومين الآن، لقد جهزت "النسكافيه" .

- شكراً لك، أنعد الفطور ؟

- لا، أيمن سيأتي به كعادته .

تنهدت صديقتها، فيارة التي رافقتها منذ صغرها، تقف بجانبها اليوم في أقسى أيام حياتها، وأشدُّ ليلاليها حلكة ، منذ يومين تنام عندها، تطمئنها بأن الأمر سيكون بخير، لكنها اليوم مضطرةٌ للمغادرة باكراً، يجب أن تعود لأهلها هذه الليلة على الأقل لتطمئنهم. "منذ الحادثة وهم يتصلون بها خوفاً " تقول للينا، ثم إن عليها أن تطمئن أهل لينا الذين قد وصلت طائرتهم البارحة حيث طمأنت ياسمين أختها بالأمر.

يا لفجاعة أحدهم يعود ليرى زفاف ابنته فتستيقظ عيناه على واقعة قتل .

كان قد طرق الباب بعد ما ارتشفت كل واحدةٍ على الأقل أربع رشفاتٍ من "النسكافيه" ، كان يحمل عدة أكياسٍ من الطعام التي أعدتها يد مطعمٍ مجاورٍ، سارعت لينا لفتح الباب له، كان صامتاً، نظرت إليه، تفرست عينيه ثم قالت : تفضل، شكراً، لقد أتعبتك في مصيبتي.

" لا عليك " أجابها، ثم دخل ووضع الأكياس على الطاولة، وبدأ يفتحها واحداً تلو الآخر، ويلقي بما حملت على بطن الطاولة المستديرة تلك.

" يارة، تعالي إلى هنا كي تأكلي " قالت لينا وهي ترى أيمن يجمع نفسه كي يمضي فقالت :

- وأنت ؟

- ماذا بي ؟

- ألن تأكل اليوم أيضاً ؟

- لا لست جائعاً .

- إذاً لن آكل أنا اليوم .

- لقد أكلت صباحاً لينا ..

- ليس ذنبي، لن آكل إذا لم تأكل

كانت تهدده باغلى ما قد يملك، بنفسها .

- ولكن

- بدون ولكن، اجلس وكل ..

أخذ يلتقط كرسياً ويجلس إلى الطاولة على خطوات يارة " صباح الخير أيمن "

- صباح النور.

- لقد أتعبناك كثيراً.

- لا عليك، المهم اجلسوا وكلوا.

جلست، وبدأت بتناول الطعام بعد أن تناولت شيئاً من عينيه.
كانتا شهيتين كما لم تراهما من قبل، إن عينين كعينيه قادرةٌ على اشباعها
الآن، كان ذهنها يتشوش به، تذكر تفاصيلهم الدقيقة، غزله الفيزياني
المتقن، وتلميحاته بحبها.. أما الان فلا شيء ..

يوماً ما سألته عن اندماج ذرتي الهيليوم، أجاب :" هو اعتداءٌ
على الملكية ليس إلا، افترضي أنك بروتونٌ وأنا إلكترونٌ أدور حولك،
سيكون شيئاً من الإلحاد أن أترك بروتوناً أو إلكتروناً آخر يقترب منك "
لم تدرك في تلك اللحظة أنه كان يغازلها، أما الآن لو يقول أن باب البيت
جميلٌ لاعتبرت ذلك مغازلةً لها، لم تدرك أنه بدأ يغوص بقلبها الآن.

وتذكرت يوماً ما مرضت، قالت له بأنها أصيبت بالرشح من
فايروس، فتحت يومها على "الفيس بوك" خاصته ووجدت منشوراً قال
فيه :" يا لحظ الفايروس ويا لتعاستي، أيدري أنني تمنيت لو أكون مرضك
كما أنت مرضي ؟ أيدرك أنني تمنيت لو أكون أقرب إليكِ منه ".
أجفَّ لسانه ربما بعد كل تلك السنوات ؟! أم أن قلبه ربما الذي
قد جف حقاً ؟! كان بارداً إلى درجةٍ لا تصدق.
اكتفى من الطعام بسرعة، تناول نفسه ونهض، ربتَ على
ملابسه، ثم ودعها كعادته قائلاً أنه سيعود.

أما هي فكانت لم تكتفِ منه، لاحقته إلى أن اختفى كليا، هي الآن تقتنع أن شيئاً ما اصابها.

كانت قد لمحت بعدها صورة فتاةٍ صغيرةٍ تسقط من حقيبة يارة وهي تفتش داخلها للبحث عن ورقةٍ ما، سألتها عن الصورة فأجابت بأنها ابنة اخيها، ليلى، صغيرة البيت المدللة، وكأنها أزاحت عن قلبها غشاءه وقتها، كم تعشق الأطفال هي، تمنت لو تملك أحدهم، لو تكون أماً، ولكن ماذا سيحدث الآن بعد كل هذه التعاسة؟

سألت يارة وقتها عن علاقتها بمازن، فأجابت بأن حبهم انتهى منذ فترةٍ طويلة، ولم يعد يعنيها أي شيء، الحب تافهٌ كانت تقول لها دوماً في السابق، وها هي تشد يديها على كلامها، أوضحت بعدها أنهما لم يلتقيا قبل ذلك اليوم منذ ثلاث سنوات، " أتعرفين ماذا قد تفعل ثلاث سنواتٍ في الحب ؟! ترهقه أو تقتله" قالت يارة.

***

"بدون موسيقى"

كانت صديقتها قد غادرت منذ نصف ساعةٍ، وها هي منذ وقتها تجلس بلا حراك، تفكر بكل ما حدث، وتفكر بعينيه، يا لعينيه ويا لبرودته.

كان الباب قد طرق حينما أسرعت هي لفتحه، كانت تدرك أنه هو، انتظرته منذ غادر، فتحت الباب، كان هادئاً متجهماً كعادته منذ ثلاثة أيام، دخل دون أن يقول سوى " مرحبا "، وفتح الكيس الأبيض الذي رافقه، وأخرج منه عشقها الأبدي، "الكنافة ".

تبسمت هي، إذاً لا زال يذكر .

كان يأكل صامتاً، وبعد أن أنهت هي منه، ردت شكراً، لم يجب، اكتفى بالتبسم.

اشعل التلفاز على برنامجٍ فلسطيني، لكنها هي ارتعبت خوفاً عندما توقف البرنامج لتذاع أخبار السادسة وترى صورتها لأول مرةٍ على التلفاز ولكن كقاتلة، هي دمعت، لكنها في تلك اللحظات وكأن شهيتها للحزن انتهت حينما قالت " يا لهم من أغبياء، الساعة لم تبلغ السادسة ليذيعوا أخبار السادسة ". ثم بدأت تقهقه، علت قهقهتا إلى أن نزلت

دموعها، أما هو فكان هادئاً وهو يطفئ التلفاز قبل أن تنتهي النشرة.

سألته :

إذاً وماذا بعد ؟

ماذا بعد بماذا ؟

- كيف سينتهي الأمر؟

- بطريقةٍ لن تتصوريها بتاتاً .

- كيف كنتَ تتمنى الأمر أن ينتهي ؟

- كنت أتمناه كنهاية التايتنك، أموت أنا غرقاً وتموتين أنت على فراشك.

- اصبر الى أن ينشؤوا بحراً لنا في رام الله ..

- بحر عينيك كافٍ .

وكأنها استنشقت البحر فردت :

- إذاً ألا زلت معجباً بفتاةٍ كانت طائشة ولم تعِ شيئاً وقتها ؟

- لا أعرف لينا، لا أعرف ؟

- ألا زلت تكره نظارات الرؤية تلك ؟ أم أنك أحببتها بعدما كرهتني ؟!

- من منا يعشق جدار الفصل العنصري يا صديقتي ؟!

- أتعرف، ربما أصابني شيءٌ من ما أصابك قديماً .

- أنتِ لا تعرفين شيئاً ، كل الأمر أن عقلك مشوش، لو أن وليداً لم يمت لما قلت هذا الكلام حتى.

- لقد كان يخونني أيمن.

- ماذا ؟

- رأيتهما قبل فترة .

- من هما ؟

- ياسمين ووليد، يحتسيان الشاي في مكان ما دون أن أعلم، رأيت صورتهما مع بعضهما، قرأت بعض الرسائل بينهم، أهداها وردةً على مرأى عيني، لا أعرف لماذا خطبني إن كان معجبا بها هي.

- ولكن لماذا أكملت الزواج إذاً ؟

- كنت أريد ان أعاقبك، لكنني جهلت أنني كنت لا أعاقب إلا نفسي ، لمَ لم تأتِ يومها ؟

- لقد وجدت الرسالة بعد سفرك.

- إذا ، ألا زلت معجباً بفتاةً كانت طائشة ولم تعرف ما تفعل وقتها ؟

تبسم وهو يقف متوجها للباب، لكنها أعادت السؤال مرتين ولم يجب .

- لقد مضى وقت طويلٌ يا لينا.

***

٢٠ - لا تكن ملكاً في الشطرنج ، الملوك أغبياء ومُضطَهِدون، لا تكن فيلاً بحجمٍ فقط يسير في خطاً طويلةٍ مائلة، ولا تكن وزيراً يُحسَبُ له ألف حساب ولكن يَخافُ أن يقتل، ولا تكن قلعةً مستقيمة المسير واضحة، كن جندياً يسير بخطى واثقةٍ دون أن يلحظه أحدٌ ليصل النهاية ويصبح وزيراً ، النهاية ليست مهمة بقدر الرحلة.

"موسيقى Vivaldi - Four Season Winter"

ها أنا ذا، كيف ولدت وكيف سميت؟ النتيجتين من سببٍ واحد .. شجار. فأيسر، أبو محمد، جدي، الذي تزوج مرتين، أنجب من الثانية طفلاً ذا ملامح تشبهني كثيراً ، أسماه سامي .

وإذ استيقظ هو وقد بلغ من العمر اثنين وعشرين سنةً على صوت صراخ إحداهن قد لاطم صراخ أمه، كانت بنت الجيران التي استيقظت لترى الماء قد شرّب غسيلها الذي كاد أن يجف، ودون مجهودٍ اتضح لها أن السبب ماسورةٌ تالفةٌ من مواسير بيت أبي محمد .

عشقها وهي تصرخ، كانت جميلةً بمنديلها المتدلي الذي يكشف شيئاً من شعرها، كانت شهيةً وهي تصرخ

وأقنع هو أمه بوجوب الاعتذار لبيت أبو الياس ..

ولم تكن زيارة الاعتذار تلك الوحيدة، بل تلتها اثنتين بسرعة، واحدةٌ حين دُعيَ أبي مع والديه للعشاء بعد أسبوعين حينما تفرد جدي بجلسته دون جدي الآخر الذي كانت صورته الأخيرة قد توسطت إحدى واجهات المنزل، والثانية حينما قرر والديَّ أن ينهيا سلسلة اللقاءات السرية التي امتدت لشهرٍ كاملٍ وأن تُقرَأ الفاتحة علناً..

كان والدي قد تأنَّق، أما والدتي فادعت الخجل وباستحياءٍ هزت رأسها بالموافقة حينما أرادت جدتي اقناعها بالأمر .

وبعدها بثلاثة أشهر، بدأت رحلتي الأولى من خصيتي والدي لأستقر في رحم أمي .

أما الشجار الآخر فكان قبل والدتي بشهرين، حينما أخبر الطبيب أمي بأنني ذكرٌ ولست أنثى كما كانت تريد .

أحمد الله على أنني خلقت ذكراً، فها أنا ذا أواجه العالم، ولو خلقت أنثى لكان يتوجب علي أن أواجه الكون كاملاً، أن تُخلقَ أنثى يعني أن تملك حرباً لأجل ذاتك منذ ولادتك.

الذكور يحاربون أعداءهم في الحروب، والإناث عليهن خوض الحروب ضد كل شيء حتى أنفسهن .

ومذ عرفت أمي أن حنين لن تأتي، كان قرار تسميتي هو من يشغلها حتى أتيت ،" منير " صرخت ثم قالت لوالدي بأنها تريد تخليد ذكرى والدها، أما والدي فقد ردّ بأن الأولى أن يُخلِدَ أباه، ردت هي بأن حفيداً من شقيقه ابن الزوجة الأولى لجدي قد سُمِّيَ على اسمه، ومن هنا فلها الحق.

وبدأ الشجار .. إلى أن اقترح والدي شيئاً " لماذا لا نأخذ أنصاف الأشياء ؟" ومن هنا جئت، من أنصاف الأشياء .

الشق الأول من أيسر ويتبعه الشق الأول من منير، لأصبح أنا .

والدتي وافقت، لتكشف فيما بعد أنها كانت الرابحة بصفقة أبي بادعائها أن اسمي يخالف تماماً اسم جدي الأول .

واسمي .. كان بدايةً لسلسةٍ من الخلافات التي انتهت بطلاق أمي وأنا ابن خمس سنوات، لأصبح فيما بعد لباقي حياتي، ابن مطلقة.

لم أكن قد نَطقتُ بعد لأواسيها أو لأخرجها من صومعة الصمت تلك، وأنا وإذ توقفت عن التأتأةِ حين وصلت الثانية عشر من العمر، لم أكن أدرك أن مشاكل النطق تلك ستلازمني طوال حياتي وأني سأعشق لاذعة.

من أنصاف الأشياء قد جئت، أنا .. ابن الطبقة الوسطى، أعيش في بيتٍ متواضع، لا في قصرٍ ولا على هوامش الطريق، لا أظهر في التلفاز كالبرجوازيين أولئك، أعيش رغماً عن أنفي رغم أنني مستمتعٌ بالعيش هكذا، بنطالي الذي أرتديه الآن اشتريته من إحدى المحلات التجارية الغير معترف بوجودها أو بكنيتها، قميصي "ماركة "، أما حذائي فهو هديةٌ من أحد أصدقائي بمناسبة عيد ميلادي قبل مدة، البارحة أفطرت على سندويشة "فلافل طعج "، من محلٍ يدعى ميس الريم على دوار الساعة، أما قبلها باسبوعٍ تحديداً فقد كنت في أفخم مطاعم رام الله التي لن أقوى على ذكر اسمها، أعيش كل لحظةٍ كأنها الأولى وكأنها الأخيرة، لا أحتاج أن أكون شخصاً يرتدي "ماركة "، محفظتي متقلبة المزاج، وشفتاي قابلتان للابتسام كثيراً، لست خجولاً بأبي رغم أنني لا أعرف أين هو، ولا أعرف ماذا يعمل، أنا ابن الطبقة الوسطى.

وها أنا ذا، وقد فشلت في أن ألصِقَ اسم إحداهن على هويتي بعد أن أدركت أنها قد تركت لي رسالةً لأقابلها بعد ذلك اليوم قبل أن تسافر ، لكن القدر لم يرني تلك الرسالة إلا بعد أن سافرت، وقد فشلت في دراستي، وحتى أنني فشلت في أن أكون ابناً صالحاً، فإنني أنهي سلسلة الفشل هذه بتلك الطريقة السريعة.. الانتحار ، أن أحتسي تلك الزجاجة التي اشتريتها وأنا ابن الخامسة عشر عاماً من أحدٍ لا أعرف من هو، قال

لي أن الأمر سينتهي في غضون ثمانٍ ساعات ..

أعرف أنني ضعيف إلى درجةٍ غير معقولة، ولكن .. حتى أبولو إله الشمس، أُطفِئت شمسه حينما عشق الجميلة دافني، أأكون أقوى من إله الشمس ؟! أو أتكون دافني أكثر جمالاً من لينا ؟!

أيمكنني البت بأنني أحببتها أو ملكت الحب ؟ لا .. لا يمكن، وبعض الأشياء وجدت لنحاول الحصول عليها لا لنحصل عليها .. الحب، الحرية وكل الكلمات المجازية في أشعارنا، وجدت فقط لتعطينا هبة الكتابة و هبة الوجع ".

كان قد رفع الزجاجة حينما طُرِقَ الباب، لو تأخرت تلك الطرقة لسبع ثوانٍ أخرى، لكانت لهذه الرواية نهايةٌ أخرى.

أغلق زجاجة " الأكامول" تلك، ووضعها جانباً، ثم اتجه إلى الباب مباشرة، فتحه بعد أن طُرِق مرةً أخرى ..

- كنت أعرف أنك آتٍ لا محالة .

- كيف حالك أيمن ؟ هل يمكنني الدخول أم سنتحدث هنا.

- قبل أن تدخل، قل لي أن الأمر لم ينتهِ ..

- بل انتهى ..

نعم، كان قد انفصل للتو عن ذات العيون التي وكأنها تملك شتاءاً داخلهما، منذ فترةٍ قصيرةٍ جداً قد ارتبطا، لكنها لم تكن مقتنعةً بالأمر تماماً ، تحججت بشيءٍ ما .. وانتهى الأم، لم تُعِر هي بالاً للموضوع، أما

قلبه هو فقد أصابه الصدأ بعدما بللته بها.

- وماذا الآن ؟!

- أترى أيمكننا أن نبدأ من جديد ؟!

- وكأن لا شيء حدث .

- ستتنقل للعيش هنا ، لدي خطة جديدة ، وعملٌ جديد .

- أيمن لماذا لا زلت تحتفظ بصورتها تلك ها هناك ؟

- وحدهم المهجرون من يحملون مفتاح العودة

- أتحبها ؟

لكنه لم يجب فأعاد سؤاله :

- أتحبها ؟

- بل أتنفسها .

***

"موسيقى Marcha fúnebre - Chopin"

لقد مضت أربع ساعاتٍ وتبقى لي أثنتان، وأنا أكادُ أجن، قال لي بأن الأمر سينتهي في خضون ست ساعات، وبعدها سيكون السم قد أنهى مفعوله وساكون أنا قد انتهيت أيضاً، ثم أغلق الباب بسرعةٍ قبل أن أحاول اللحاق به، فعل ذلك بعد أن استطاع أخذ كل بطاقات الحساب البنكية وكل الأرقام والأشياء وحتى مفتاح السيارة وهاتفي المحمول، لقد سرقني ابن اللعينة، على كلٍ.. لا يهم كل ذلك الآن، من ذا يكترث ببضعٍ من الملايين وهو يحتضر ؟!

قضيت نصف الساعة الأولى في الطرق على الباب علَّ أحدهم يسمعني ولكن .. انا محتجزٌ في الطابق السابع أو الثامن لا أعرف على وجه التحديد أي، لقد أخطأت في العد وأنا أصعد الدرجات تلك، والمنطقة ليست عامرةً بتاتاً، ففي الساعات الأربع التي قد مضت لم تمر من هنا إلا سيارة واحدة، ناديت من فيها بأعلى صوتي لكن عجلاتها لم تقف.

باب الشقة مصنوعٌ من الحديد، لذا فمحاولاتي الكثيرة في خلعه كانت يائسةً تماماً، والأمر تقريباً انتهى، قلت لنفسي في البداية ولكن لا شيء قد يبدو منتهياً بالنسبة لرجلٍ يواجه الموت بكفيه الخاويتين.

الشقة مغلقة الشبابيك إلا شباكٌ واحد، ولكن كيف لي أن أقفز من الطابق السابع إن كان الأمر جيداً ولم أكن في الثامن، بحثت عن حبلٍ في الشقة وفكرت لوهلة " لو وجدت حبلاً ، هل سأكون جريئاً وأتدلى به وأنجو؟! "، وربما عدم وجود الحبل في تلك اللحظة أنقذني من الاعتراف لنفسي بخوفها.

لقد سرق الهاتف أيضاً ، لذا فقد تعقد الأمر كثيراً ، لا أعرف كم من الطرق الجنونية فكرت فيها لكي أهرب في ظل انعدام شيءٍ قد ينقذني.

كنت أحاول التشبث بأي رمشٍ قد ينجد نفسي في إقناع نفسها بأنها ستنجو، حاولت سحب أسلاك الكهرباء من الشقة لاستخدمها حبلاً، لكنني لم أستطع أن أجمع القدر الكافي ليجعلني أنجو، أعدتُ محاولاتي الكثيرة في خلع الباب مرةً أخرى، استخدمت براميل المياه لأفعل، لكنها كانت ضعيفةً أمام جبروته، لم يكن لديَّ الكثير من الاحتمالات، الأكياس والأوساخ والحجارة لن تنقذني في محنتي هذه، والسم يجري في عروقي، أنا أشعر به.

لم أكن أعرف ماذا أفعل وأنا أجمع الأخشاب لكنها بدت لي في بادئ الأمر أنها ستكون ملائمةً لمحاولةٍ جميلةٍ للنجاة، وبعد كثيرٍ من المحاولات الفاشلة ها أنا أجلس ضاحكاً ساخراً من نفسي على غبائها

مستتفها ً كل ما حدث، ومستتفها ً ثلاثين سنةٍ قضيتها وها هي الآن تنتهي بهذه الحماقة.

كيف حدث الأمر ؟ بطريقة غبيةٍ جداً. رأيته، كان يضحك ملأ فاهه، لا أعرف لماذا لفتتني تلك الضحكة بالذات، استوقفته ثم سألته كما المجنون:_"ما السعادة؟"، أجاب وكأنه يحفظ النص مسبقاً " أن يحدث كل ما يحدث دون أن تكترث كثيرا ً، أن تبتسم بعد كل شيء"، كانت إجابته مبهمة ً بالنسبة لي، لكنها كانت مهيأة ً وقتها وكأنها مقنعة، " كم تملك من الأموال؟" سألته فأجاب:_" ما يكفي"

- كم تريد ؟

- لماذا ؟

- لترسم على شفتي بسمة.

- كم يمكنك أن تدفع ؟

- إذاً ، ستقبل بالمال ؟

- ولماذا لا أقبل به ؟!

- قلت أنك تملك السعادة، فما حاجتك للمال؟

- اذا افترضنا صحة فرضيتك الأولى، فإن هذا لا ينفي كونني لا أحتاج المال.

وهكذا عقدنا الصفقة، سأمنحه شهرا ً واحدا ً كاملا ً ليثبت إمكانية الأمر، ومنذ شهرٍ وأنا أرافقه، بدأ بعمل أشياءٍ سخيفةٍ جداً ،

دعاني في بادئ الأمر إلى مشاهدة السينما، لم يكن بالأمر الملفت كثيرا ، ومقاهي رام الله لم تكن جديدة ً علي، السباحة أمر ٌ لا أحبه ولا أعرف ممارسته، ممارسة الرياضة في النوادي أمر ٌ متعبٌ، وركوب الخيل ليس بالأمر الجديد فأنا أملك واحداً ، أريحا حارة ٌ جداً ولم تكن صالحة لرحلتنا، وادي القلط باهت ٌ جداً ، كنا نتناول معظم أكلنا من مطاعم تقليدية، كان يقول لي بأن هذا سيكسر الروتين، لكن عبثاً ، جربنا الكثير من الأمور، حتى أنني اتبعت نصيحته وكنت أستمع للموسيقى في وقت استحمامي، وها نحن قد وصلنا اليوم الثلاثين،واليوم صباحاً ، أتم خدعته كاملة، دعاني إلى هنا، وجعلني أشرب كأساً من العصير قبل أن يقهقه ويبوح لي بأن العصير مخلوط ٌ بالسم ..

وها أنا أعدُّ ساعاتي الأخيرة .

على كل ، بعد كثيرٍ من التفكير، ليس بالأمر المهم كثيراً ، أنا لا أملك شيئاً ذا قيمةٍ لأفقده أصلاً ، هذه الأموال - بكثرتها- لم تأتِ إلا بكثير من التعاسة والوحدة، لم تجلب لي سوى الانشغال عن كل الأشياء والتشبث بها.

حقاً ، أنا أفتقد تلك اللحظات الجميلة التي عشتها وأنا صغير، لأكن صريحاً ، بعد هذا التفكير الذي منحتني إياه خمس ساعاتٍ وحيدا

فأنا أعترف .. لقد عشت بعضاً منها بعدما كبرت أيضاً.

اليوم الذي بعت فيه السيارة الأولى في المتجر الذي كنت أعمل فيه، لحظة شرائي لسيرتي الأولى والرحلة الأولى فيها، نجاحي في تأسيس شركتي، تجربتي لإحدى الألعاب في مدينة الملاهي خاصتي، وعندما كبت إحدى الموظفات كأس الماء علي، شجاري معها ثم كيف ضحكنا سوياً، عندما عَلِقَ المصعد بي في إحدى المرات التي كنت كنت قد تأخرت عن اجتماعٍ ما، ارتدائي أحد القمصان يوماً بشكلٍ خاطئٍ في الأزرار.. وحتى في هذا الشهر، لأكن صريحاً، لقد كان أمراً ممتعاً أن أنتظر ساعتين في السينما حتى ينتهي الفيلم وأنا أمعِنُ النظر في طفلةٍ أمامي تبتسم على أمرٍ لا تفهمه حتى، ضحكات عينيها، وجديلتاها الصغيرتان، وكي أكون مطلق الصراحة ينبغي أن أقول أن شرب القدر الكافي من الماء ما يجعلني أصبح جملاً في محاولاتي لتعلم السباحة لم يكن أمراً مملاً بتاتاً، بل وضحكت كثيراً على نفسي وأنا أرى ترهل جسدي في النادي الرياضي أمام تلك الأجساد المشدودة من الرياضين أولئك، وكم ضحكت وأنا أرى نفسي كصيادٍ أحاول اصطياد هاتفي عندما وقع في حوض الاستحمام بعد أن حاولت أن أطفئ الموسيقى .. لأكن صريحاً لقد جعلني أبتسم ذلك الوغد ولو كان محتالاً لم يكن يبغي إلا أن يسرقني، لقد كان الشهر الأخير من حياتي جميلاً بما يكفي لأنهي حياتي به.

حياتنا ليست إلا كما تفاحة ٌ تجر أمامنا ونتبعها ولكن لا نصل إليها أبداً ، ما الفائدة إذا ؟ الفائدة في الطريق الطويل في بحثك عنها، في كل الاشخاص والمواقف واللحظات التي عشتها في محاولتك للوصول ، أكاد أقسم أنها أجمل من التفاحة ذاتها.

نحاول الوصول إلى الكمال وإلى السعادة المطلقة، لم تكن فكرة الكمال هي المهمة بقدر فكرة المحاولة للوصول إليه ، نحن خلقنا لنحاول الوصول إلى الكمال لا لنصل إليه، وياله ما أجمله من نقصٍ ذلك الذي نوقن به ونحاول إنقاصه ..

وها أنا أصل ذروة التفكير الآن، لو كنت أملك قليلاً من الوقت، فقط قليلاً منه، لاستمتعت بل لحظة، لأبقيت فمي مفتوحاً على آخره، لضحكت على كل أمرٍ تافهٍ، ولكنَّ الوقت الآن ينفد، وأنا أنتظر، لماذا انتظرت كل هذا الوقت، ألم يكن بإمكاني التفكير في هذا الأمر من قبل؟ أو لماذا انتظر فرعون أن يبلغ الماء حلقه كي يؤمن بوجود الرب؟!

إن البسمة خليقتنا، وهي الوحيدة التي ليس لها مكونات ثابتة، إننا قادرون على خلقها من كل الأشياء ومن أتفهها.

لو أملك قليلاً من الوقت، لجربت أتفه الأشياء ولصرخت وابتسمت لا لشيءٍ إنما لأصرخ وأبتسم.

إنني لا أملك الكثير من الوقت، فلما لا أستغل بواقيه في الصراخ والضحك، ماذا في الأمر إن جربت الجنون قليلاً في آخر لحظات حياتي، برميل الماء يصلح لأن أقرعه مطولاً ، وصوتي ليس بشعاً إلى تلك الدرجة التي تجعلني أكبته لثلاثين سنة، وجسدي قابلٌ للرقص والانحناء، فلماذا لا أفعل؟!

يا خالقي كيف مرت تلك الثلاثين سنة بكل تلك السرعة والجبروت والملل؟!

إنني الآن أكثر رجلٍ سعيد في الدنيا، أنا أعترف وأصرخ ملأ فاهي، من يرى حتفه ويبتسم ؟! أنا أفعل، ولماذا لا أفعل إن كان الأمر منهياً، ما الضير ؟!

يا خالقي كيف مرت ثلاثون سنة وأنا أستغل بواقيها الآن، كم هي الدنيا غبيةٌ ومنافقةٌ ومخادعةٌ وكيف لرجلٍ أن يملك كل تلك الأصفار ولم يكن يستطيع الابتسام، والآن لا يملك إلا صفراً واحداً لكن أحداً لا يستطيع إخفاء قهقهاته المتعالية.

"ألم أقل لك؟ السعادة أن يحدث كل ما يحدث دون أن تكترث كثيراً "، جاء صوت أحدهم من وراء الباب المغلق.

***

منذ فترةٍ وهي لا تكاد تبرح فراشها، من ذا يمكن أن يزيح من

عينيها ثقل النهاية الموجعة ويغرس في شفتيها الآن بسمة ؟! من ذا بإمكانه أن يكون قوياً في اللحظة التي يدرك فيها أن الأمر يؤول إلى النهاية الحتمية وإلى اللاوجود ؟!

لقد أفطرعلى خلاياها صباحاً قبل أن تقتله في المساء، الداء الذي عاشت حياتها كي تقتله قد توقع الأمر وأعطاها خلايا داخل جسدها ربما ليسهل عليها الأمر، أعطاها سره، هل بمإكانها الآن أن تقتله وقد أضحى بداخلها؟! اكتشفت الأمر منذ فترةٍ، فبعد أن شعرت ببعض الدوار في رأسها وكادت أن تقع أرضاً، نصحها والدها بأن يصطحبها إلى مشفىً قريب، من ذا يمكنه أن يساعدني على النطق والقول أنها كانت مصابةً بالسرطان ؟!

ولكن.. لم يكن ذاك السرطان الوحيد الذي قد عانت منه، إن الأمر برمته موجع، لماذا يحدث ؟!

نعم .. هي تدرك الآن أنها تحبه حد الهوس، من هو ؟! ذلك الشاب الذي يزورها منذ أتت الى هنا، هي تدرك أنه لا يزور المشفى من أجلها هي، ولكنه يأتي ..

أتكون أنانيةً ولو لمرة لتخفي عنه الحقيقة ؟! أتكون أنانيةً لأنها تحبه حد اللامنطق ؟!

ماذا كان ليحدث لو أن يومها لم تأتِ، أو لو أنها تغيبت عن الخروج إلى الحديقة يومها ؟!

كيف حدث الأمر ؟!

قبل أن قررت العودة، فقد امتلأت بالحنين إلى هذه الديار التي لم تكن قد تعلقت فيها من قبل، لكن شيئاً ما بداخلها قد قض ذاكرتها وجعلها تقرر أنه ينبغي لمريضة السرطان أن تموت في ديارها لا في مكانٍ آخر، أو أن تزورها قبل الموت على الأقل، كانت تتحضر للصراع الأخير. كانت قد أتت،وشاركتها الشطرنج .. وهكذا أصبحتا صديقتان لعدة أيام. وبعد أن وصلت ها هنا، أحبته، لكن القدر قد سخر منها مرةً أخرى إلى الدرجة التي جعلها خيطاً رفيعاً يصل بين اثنين لا أكثر، أراد منها أن تكون ممثلةً ثانويةً لا بطلة النص، أتكون بطلة النص بنسيان قليلٍ من الصدق أو الانسانية ؟!

***

" إن هذا العرض مبالغٌ في غبائه، ليست الفرصة التي كنت أنتظرها بتاتاً ، ورغم كونها غبيةً إلى درجة مفرطة إلا أنها جميلة ولكن، أأمضي كل هذا الوقت في مسرحيةٍ واحدة ؟! ".

***

٢١- إن اضطرت لأن تضحي بالوزير لكي تنجو.. ضحي.
" من مذكرات لور"

"موسيقى Vivaldi – Spring"

" لماذا لم تستطع الإنجاب ؟ " سؤال أمي الذي أعادته ألف مرةٍ علي يا ناجي، إن زوجة طليقك قد أنجبت لذا ..
لقد استطعت الهرب، لماذا أهرب ؟ جاوبتك كثيراً يا ناجي، عليَّ أن أغني في حفلةٍ ما وأخي يمنعني ..

السلطة الذكورية لهذا المجتمع البائس القذر، كيف لنا أن نتحرر من الاضطهاد ونحن نسقيه أخواتنا وأمهاتنا ؟

أتعرف لو أن مخرج التايتنك كان عربياً مثلاً ؟ لصعد جاك على لوح الخشب وأبقى روز تتجمد من البرد بحجة أن الرجال قوامون على النساء، وكانوا لصنعوا من الفيلم ثلاثة أجزاءٍ أخرى، بحجة " أن الشرع قد حلل أربعة ".

هذا المجتمع الذي يستتر تحت عباءة الدين ويسيره حيث ما شاءت هواجسه، كم من هؤلا الحمقى يعرفون أن القوامة هي نفقة الذكور وكم منهم قرؤوا بداية الأية التي يتلونها دوماً " فتزوجوا مثنىً وثلاث ورباع " ، أولا يمكنهم تلاوة بداية الآية " فإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى "؟، أي أن الله أجاز ذلك بعد وجود السبب .

أيمكن في هذا المجتمع المنحل فكرياً أن نقتل جهلنا ؟

لأكون صريحةً معك ناجي فإن لا شيء مستحيلٌ في هذه الدنيا، حتى " أخيل " قد قُتِلَ بعد قليلٍ من التفكير.

تروي الأسطورة عن رجلٍ ضخم أرادت أمه جعله محارباً فذاً قوياً ، لذا فكانت تذهب به يومياً إلى نهر "ستيكس"، وهو الحد ما بين مملكة الأحياء والأموات، فتمسكه من أقدامه ثم تنزله في الماء وتخرجه عدة مرات، وهكذا يومياً إلى أن كبر، فأصبح جسده منيعاً تتكسر الرماح عليه، وكان من المحاربين في حرب طروادة الذين لم يستطع في البداية أحدٌ صده حتى انهم قالوا أن قتل " أخيل " شيءٌ من المستحيل.

أتعرف كيف قتل يا ناجي؟!

عندما تذكر أحد الأعداء القصة وقام بالانقضاض عليه وضربه في قدمه، فهي الجزء الذي لم يمسسه ماءٌ في صغره، إذ كانت أمه تمسكه من قدمه.

وأنت .. ألا زلت مقتنعاً بأن هناك أموراً مستحيلةً ؟ ألا زلت مقتنعاً بأنك لن تستطيع قتل وساوسك وأفكارك اللعينة وهؤلاء الجبابرة الذين ينقضون عيشك؟ " أخيل " قد قتل.

إن كنت تخاف المستحيل،لا تكن صلباً من البداية، كن لينا وذب بسرعة. إن حاولت أن تكون شيئاً وأن لا تنكسر، سيحاول الجميع كسرك، سيطعنونك حتى في شرفك إن لزم الأمر، سيلقون عليك بما هب وطاب من نكرهم ومنكرهم، ستكون أنت شيطان هذا العصر وهم ملائكةً بلا أخطاءٍ مع أن إبليس يعتاذ بالله منهم، إن كنت مختلفاً، سيجعلون اختلافك معصية، إن كنت ذو فكر، سيجعلون فكرك إلحاداً وينسبون إليك الكفر حتى تكفر، إن كنت صلباً فكن صلباً حتى الموت. وها أنا ذا، لم أنكسر، لقد هربت يا ناجي ..

كيف حدث الأمر ؟ بدأت بالتخطيط في البداية، ماذا سآخذ في رحلتي هذه ؟ ثم قررت أهم الأمور التي أحتاجها، أولها قصاصة الأظافر، أتعرف لماذا يا عزيزي ؟

أنا لن أسمح لنفسي بهذه المهزلة التي تحدث بأن نضيع

قصاصاتنا ونترك رجال الفضاء يعبثون تحت الأرض ويحاولون صناعة آلة لقتلنا جميعاً .. لذا سأخذ قصاصتي.

سأحتاج على الأقل إلى ست زجاجات ماءٍ وكثيرٍ من الطعام في هربي لمدة ثلاثة أيام .. ولكن بعد كثيرٍ من التفكير، على ما أذكر أنهم لا زالوا يبيعون الماء والطعام في خارج هذا البيت القذر، أعتقد أن هناك ما يسمى بالبقالة، يا له من رجلٍ صالحٍ من فكّر في بيع الطعام في الأسواق وإلا لكنت اضطررت لسرقة الثلاجة معي.

دفتر مذكراتي هذا بالتأكيد، والقلادة هذه، هل قلت لك أنني سرقتها ؟ لم أسرقها ولكن .. أف، سأقول لك قصة هذه القلادة فيما بعد.

على كلٍ .. لا أحتاج إلى الكثير من الأغراض فعلياً ، ولكن فكرت أن آخذ مفكاً وفرشاة أسناني رغم خوفي منهما، ومعلقة ودميتي القديمة، وبما أنني لن أستطيع أخذ حاسوبي المحمول لأنه ثقيلٌ جداً ، لذا فكرت في أن آخذ الشاحن الخاص به ومكتة سجائر، وعلبة طارد الحشرات.
لأكون صريحةً .. لا أعرف بماذا سأحتاج المفك، ولكن ربما أحتاجه، الاحتياط مهم، لذا أخذت مفكين.

على الساعة الثالثة إلا ربع تماماً، كنت قد استعددت للأمر، سأغادر، حملت حقيبتي ومضيت، لم أستغرب كثيراً أن باب بيتنا كان مغلقاً، وتوقع كيف فتحته ناجي ؟

بالمفتاح يا غبي، كيف سأفتح باباً ؟!

على كلٍ ، قضيت الصباح في التفكير عن المكان الذي سأقصده، لأكون صريحةً ، لقد نسيت أنني سأحتاج مكاناً للمكوث فيه وأنا أخطط للهرب ولكن لا يهم كثيراً ، ما كان علي سوى أن أنهي هذا اليوم دون أن أعود أو أعاد إلى البيت، الحفلة غداً وعليّ أن أكون موجودة.

أفطرت في أحد أكثر مطاعم رام الله قدماً ، لكي أكون صادقةً ، لا لم أفعل، لا أذكر أن هناك في رام الله مطعم قديمٌ لهذه الدرجة، إن رام الله كالأفعى تغير جلدها باستمرار.

كنت قد بدأت أفكر بأن علي الاختباء في مكانٍ ما، لا أعتقد أنهم لم يكتشفوا اختفائي إلى الآن، سيخبرون الشرطة بالتأكيد، وهم في لحظات سينزلون بخيوطٍ من السماء ليقبضوا علي.

كيف سيعرفون موقعي ؟

الأمر سهلٌ جداً، لقد زرعوا في أيدينا أداة تعقبٍ منذ الولادة ليعرفوا أماكننا إذا ما أصابنا أي أذىً .. أتظن أن حياتك ليست مهمة لدى حكومتنا؟ مخطئٌ جداً أنت يا عزيزي، إنهم يسهرون ليلاً ونهاراً لخدمتك وجعل حياتك أفضل .. لأكن صريحةً، علي التوقف، لقد بالغت كثيراً في أحلامي.

المهم، كان لا بدَّ من مكانٍ كي أغفو فيه لأنني أعلم أن لديَّ ليلةٌ طويلةٌ لن أجد مكاناً لأنام فيها، لذا فكرت .. مكتبة البيرة ستكون ملائمةً جداً للنوم، رواد المكتبات قليلون، والكتب هادئة.

على كلٍ، قضيت يوماً ممتعاً، وها أنا ذا، أجلس على أحد المقاعد الخشبية في ساحةٍ ما، الساعة قد بلغت الثانية عشر ليلاً، لم يتبقَ الكثير من الوقت، ولكن .. المارة القليلون يتطلعون إلي بنظراتٍ غريبة، أراهن أنهم يظنونني عاهرةً يا ناجي، لا يدرون أنني ضحية هذا العهر أصلاً.

ناجي، سأنقطع عن الكتابة لك يا صغيري قليلاً، علي أن أغني غداً وبعدها .. علي الهرب كثيراً، أرجوك .. كن بخير يا ناجي.

أتعرف كم أحبك؟ أحبك بالقدر الذي لم يحب أحدٌ أحداً إياه، كيف لا أحبك وأنت صغيري ناجي؟ طفلي المدلل الذي أحبه أكثر مني ..

إن لم أكتب بعد هذه السطور فاعلم أن أمك تحبك بالقدر الذي تتمنى فيه لو تأتي، لو تربت على شعرك، لو تحضنك ، لو تقبلك، لو تناديك باسمك فتجيب ..

"إلى صغيري ناجي الذي ربما لن ينجو" ولن يكون، إلى الحيوان المنوي الذي لم يخلق بعد، وإلى البويضة التي لم تخصب بعد، أرجوك كن بخير، فأنت الوحيد الذي أحبه..

صغيري ناجي .. ستبقى أمك تذكرك في كل نهارٍ ، وفي كل ليلة ستروي لك قصةً عنك، عن شعرك الأحمر وعينيك البنيتين، وعن صوتك الجهوري، وعن قامتك الرفيعة المديدة. سأبقى أدعو لك بالنجاة وبالسعادة المطلقة وبأن تبقى بعيداً عن هذا العالم وبأن تأتي ..

أقسم برب الحرب أنني لم أنسكَ يوماً .. في كل صباحٍ أرتب ملابسك التي اشتريتها له، أعد زجاجة الحليب خاصتك ، أهز ذراعي وأتخيلك مستلقٍ فيهما ، أتحسس شعرك كمن يداعب الغيم ، أغمض عيني فأسمع صوت بكائك، أفتحهما فلا أراك، أغمضهما كي تعود مجدداً وأغني لك " نم يا حبيبي "، أخاف عليك .. ربما أنت الآن جائع ، ربما أنت عطش ، ربما رأسك يؤلمك، ربما أوجعتك يداي، أهزك رويداً رويداً وأغني " نم يا حبيبي " .. حتى تنام ..

أتعرف يا ناجي لماذا لم تأتي ؟ ربما لأن هذا العالم القذر لا يستحق أمثالك، أنت شيءٌ من الجنة، ربما ألقاك هناك..

لا بأسَ عليكَ صغيري، ستراك أمك دائماً قبل أن تنام وستدعو الله أن تزورها في منامها، ستطعمك وتحنو عليك، ستدللك حتى تفسدك، وستحدّثُ الجميع عن ناجي الذي لم ينجُ.

أو ربما لأنني لست أماً صالحة بما يكفي لكي تمتلك ملاكاً مثلك.

صغيري ناجي .. كن بخير .. أمك تحبك .

***

"موسيقى Requiem For A Dream"

الساعة لم تبلغ الثامنة إلى الان، يدا امرأةٍ بلغت الثالثة والعشرين ونيف من العمر قد وُضِعَت على ركبتيها وقد أسندت بها رأسها وأغلقت عينيها وجسدها يلامس الأرض .

" إذاً كيف قتل ؟! ولماذا التهمة ألصقت بي أنا ؟ نشرة الأخبار وهم يبحثون عني، اختبائي، بصماتي التي وجدت عليه، إن الأمر قد ألصِقَ بي لا محالة، أو .. أترى، أيمن لا زال أيمن ذلك الأحمق الذي لاحقني في سنتي الجامعية الأولى وأنا لم أعِرهُ انتباها ؟! أأحببته حقاً أم أن ذاك سببه الفقدان؟ أحاول أن أملأ شيئاً بآخر، ولكن .. من ذا ينكر أنني أدمنت عاداته ؟ من ذا ينكر أنني أدمنت زيارة مشفى السرطان عندما سافرت فقط كي أتذكره ؟! من ينكر أنني أدمنت الشطرنج لأجله ؟ أكنت أحبه وأنا لا أعلم ؟! حتى لو، ماذا سيفيد الحب لقاتلة ؟! ".

الموت، الجرعة الأخيرة التي لا بد منها، أنكون قاسيين ونحن نفكر بالتملك حتى عندما نفقد أحدهم ؟ أنكون أنانيين إلى تلك الدرجة

التي تجعلنا نبحث عن سعادتنا لا عن شيءٍ آخرٍ حتى في جراح أحدهم؟!

أيضحك الذئب على وجع آخر ؟

ولكن، كيف له أن يختفي من ذاكرتي الآن، كيف لي أن ألتفت إلى شيءٍ سواه بعد أن اكتسيت حبه بعد كل تلك السنوات العارية ؟ وبعد كل تلك اللحظات التي تجردت فيها منه، والآن أوقن بعد كل هذا الصقيع أني أحتاجه الآن أكثر من ما أحتاج نفسي، ماذا بإمكاني أن أفعل من دونه الآن ؟!

خرجت من إلحادها به فجأة، أيقنت حبه واعترفت بحبها لنفسها، غطت شعرها وصلّت لربه، وبكت وهي تدعو بأن يخرجه الله من سباته، قهراً تبكي وقلما تبكي امرأةٌ مثله ، اختنق برستيجها فجأة، فتاة الولادة القيصرية ذات عيون العسل المحنط بشفتيها الجافتين، تتمنى لو ينطق ولو مفردةً ، لو يعود إلى غزله، لو يمازحها، يعاقبه هو الآن على صمتها الطويل ذاك بصمته.

نهضت من على الأرض، توجهت إلى الحمام مباشرةً ، **فتحت** صنبور الماء، غسلت وجهها ويديها، توجهت إلى الصالة، **وقفت أمام المرآة** الكبيرة تلك، تمعنت في امرأةٍ تقف هناك، هي ذاتها، **أغمضت عينيها**، فكرت فيه مرةً أخرى، في عينيه ذات الكحل الرباني تينك، **فتحت عينيها**،

كانت ترى من على المرآة جثة وليد تقبع خلفها، كانت عينيها قد صمتت وقد انتابهما الخوف كثيراً ، أدارت عينيها، لم يكن هناك، أيقنت بأنها تشوشت كثيراً بالأمر.

أخذت نفساً عميقاً لو زادته قليلاً لاحتاجت إلى بضعٍ من باكتيريا البحار لتمدها بالأكسجين بدل الذي اختفى من الصالة، توجهت إلى غرفة النوم، كان فراشها مرتباً ، رفعت الغطاء من على السرير قليلاً وجعلته يحضنها ويلفها بعد أن استقلت على السرير، ثم انتابها هو وعيناه، أغمضت عينيها، فتحتهما من جديد، ثم أغمضتهما مرةً أخرى، أعادت الكرة عدة مراتٍ قبل أن يغلقا نهائياً لفترةٍ وجيزة.
كانت قد ابتسمت له وهو يمسك بيديها، لكنها استيقظت على صوت صراخ.

لم تدرك من أين أتى صوت الصراخ ذاك، أزاحت من عليها غطاء السرير ونهضت من فراشها ذاك، أضاءت غرفتها و اتجهت إلى الصالة، كان كل شيءٍ هادئاً صامتاً ، اتجهت نحو المطبخ، أشعلت الضوء فيه، التقطت كوب ماءٍ وضع جانباً ، فتحت صنبور الماء وصبّت منه قليلاً في كأسها ذاك وبدأت تتجرعها وهي تغلق صنبور الماء.
أنهت ما كان في الكأس من ماء ، أطفأت ضوء المطبخ ثم اتجهت إلى

غرفتها من جديد، أطفأت ضوء الغرفة قبل أن تصبح كسمكة سردين داخل علبتها، أغمضت عينيها من جديد.

صوت قطرات من الماء كان يؤرقها وهي تحاول النوم، تتلوى على نفسها محاولةً تجاهله، فتحت عينيها من جديد، هي أغلقت صنبور الماء جيداً، تقول في نفسها، وكيف بامكان ذلك الصوت أن يصل من المطبخ ؟! حاولت تجاهله كثيراً، شدت على عينيها محاولةً إقناع نفسها بأن تغفو، عبثاً كانت تحاول، فتحت عينيها من جديد، نهضت من فراشها واتجهت إلى المطبخ.

كانت تفرك عينيها قبل أن تتفاجأ بالمطبخ مضاء ، لقد أطفأته على ما تذكر، وحتى الصنبوركان مغلقاً وصوت الماء اختفى كلياً، اتجهت إلى الباب، لقد كان مغلقاً، " لا بد أن الأمر أثرَّ علي" قالت في نفسها.

أطفأت ضوء المطبخ من جديد، أخذت نفساً ثم أعادت تكرار كل ما سبق، أطفات ضوء الغرفة، تلحفت بالغطاء، أغمضت عينيها ونامت.

الثالثة صباحاً، صوت قطرات الماء الواقعة على الأرض عاد من جديدٍ لتعيدها هي من غفوتها، كانت بدأت ترجف من الخوف ، إن تلك

الأنثى القوية التي عذبت اثنين وسبعين رجلاً في حبها تشعر بالخوف الآن.

لكنها لن تنهض، قالت في نفسها، إنَّ هذا الأمر هو اصطناع نفسها الخائفة بعد كل ما حدث، بدأت تنظر إلى الساعة المقابلة راجيةً إياها أن تسرع وأن تنتهي هذه التخيلات.

وإن الوقت يطول في انتظار أن ينتهي، وينتهي في انتظار أن يطول.
" لينا ، لينا ، لينا " جاءها صوت أيمن من المطبخ، كانت قد أيقنت، نهضت من فراشها من جديد، اتجهت إلى المطبخ، لم يكن هناك، لكنه كان مضاءا صوت قطرات الماء قد اختفى مرةً أخرى.

اخذت نفساً قبل أن تنظر الى المرآة الكبيرة مرةً أخرى، أغمضت عينيه، " هل يا ترى ألا زال يحبني ؟! " سألت نفسها .

فتحت عينيها ثم صرخت، كانت قد رأت جثته من جديدٍ على المرآة ولكنها سرعان ما اختفت، كانت أدركت أن الخوف يملأ حشاشتها، اتجهت إلى الحمام، فتحت الصنبور وتطلعت إلى مسقطه، كان ممتلئ بالدم، ارتعبت خوفاً، صوتٌ قادمٌ من المطبخ، صراخ امرأةٍ، صوت قطرات الماء عاد من جديد، وهي تهرب لا تعرف إلى أين، لقد وقفت صامتةً

تفكر بعينيه، " كيف سينتهي الأمر، بطريقةٍ لا تتوقعيها بتاتاً " قال لها، وفكرت فيه.

اتجهت الى التلفاز، تناولت علبة "الأكامول" تلك من مرقدها، فكرت بكل شيء.

" ألم تقولي بأن الحياة أصغر من أن ترسم وجوهنا خبزاً يابساً ؟! الموت؟! ما معناه .. اقتلي الموت .. تمردي عليه، خونيه إن خانك، وعندما تدركين أن الأمر اقترب كثيراً ؟! غادري هذه الحياة بإرادتك .. انتحري .. اقتليه لذلك الأحمق المسمى بالموت، ستطول الليلة أكثر، لتصبحي سندريلا وتعودين من قبرك، تمردك وعصيانك للموت سيغيظه ويعيدك "
" يموتون انتحارا "
" تمردي على الموت ، تمردي على الموت ، تمردي على الموت "

"ما معنى الموت ؟".. تسأل نفسها وهي ترجف، أنستطيع اللحاق بقدرٍ قد مضى إلى ما قد مضى ؟ أيستطيع الآن أمهر رسامٍ أن يرسم من على شفتيك بسمة ؟ أيمكنني النجاة من عينيه فجأة ؟ أيذوب ثلج روسيا لينقذ أهل إفريقيا من الجفاف ؟ أتنبت رموشي أكثر ؟ أم أن شِعرُهُ في وصف شَعري قد انتهى لا محالة ؟

الموت هو نفسه، النتيجة واحدة، ولكن الطرق مختلفة، موتي بقارعة الطريق أو موتي بحبه، النهاية هي الموت، فإما أن تتوهي في الأراضي بحثاً عن شيءٍ لن تجديه، وإما أن تتوهي في العيون السوداء، تبحثين عن ألف جوابٍ لسؤالٍ واحدٍ، وأيضاً لن تجدي أية أجابة، سيبقى شيءٌ بداخلك يطاردك، ويعلن أنك مجرد واحدةٍ في ملايين من يعيشون ويموتون، وكأنهم لم يعيشوا وكأنهم لم يموتوا أيضاً، وتبقين كوشمٍ بلا معنى، تطاردين الفراشات في ساعات اضمحلال الوقت، أو تطاردين الوقت في ساعات اضمحلالك أنت.

من يضمحلون في محاولة النجاة، ومن يموتون في محاولة ارتشاف فنجان قهوة، يصرخ الوقت كمرآةٍ حزينة، تلطخ أحداث وجهها ببعضها، فيبدو المستقبل وسادةً ذهبيةً والماضي ليلُ عتيقٌ، ولو أديرت الساعة حتى تكتمل مرة واحدةً، لكان المستقبل الذي كنا نأمله هو الماضي بحد ذاته.

ولو تفكرنا في الذين يرحلون في انتظار ترقية الموت إلى منصبٍ أعلى لوجدناهم يكثرون عن الذين ينتظرون أن يموت الموت.

في لحظات اليأس المطلقة، نسمع أصوات نايٍ من حولنا، وكأنها تشاركنا أحزاننا والآمنا، سيمفونية عذاب تجتاح ما تستطيع اجتياحه، تتقطر الأفكار من عقولنا، مسألة رياضياتٍ عالقة، خطأ فادحٌ في الجمع،

وخطأٌ إعرابيٌ لعينيه وموقعهما من النص، محاولات نسيان أي شيء لإفراغ جزءٍ من الذاكرة له فقط له، تهجين وطنين مرةً أخرى، ونظرية اللاتحديد في الحب، أول ليلةٍ في أيلول، ومن ينجون من أحلامهم، ومن لا يفعلون شيئاً إلا الخوف، وعيناها الباكيتان التان تقتلان ألف قتيلٍ .. وجحود امرأة.

اللحظة الأخيرة، من يرمون أحلامهم ويمشون في سخريةٍ، ومن يرقصون على وترٍ و ناي، ومن يحملقون إلى لامكانٍ مخيفٍ جداً ، ومن يكتفون بعينيه، وكيف للمرة العشرين بعد الألف، يشعرون أنهم قد بالغوا في معصيتهم. عينان عسليان ترقصان في فلكٍ واحدٍ، توشيحةٌ من الحمرة، وجهٌ أبيضٌ، وشعرٌ أطول من آخر لحظةٍ ما قبل الاعتراف بالحب، كانت الساعة تدق على العاشرة والنصف، كانت تبتسم، أينشتاين وقوانينه السخيفة رحلت، تيار الوجع قد آل إلى نهايته، محاولات تهجين الأوطان كلها رحلت وأعلنت دولته، قانون نيوتن الأول في الحب، محاولات النجاة من أحلامنا فقط، تغاريد امرأة في حب رجل.

فكرت فيه، كانت قد اقتنعت بأنها تحبه، لكن خوفها أكبر من أن تواجهه، شربت علبة "الأكامول" وهي تبتسم بعد أن علقت صوت دقاء قطرات الماء بأذنيها، كانت قد أيقنت بأنها قد جُنَّت تماماً .. به.

ثم هوت.

***

٢٢- لا تنتظر النهاية، النهاية لن تأتي أبداً ، افعل الأمر المناسب في الوقت المناسب، لا تنتظر أن يموت أحد بيادقك لتحرك الآخر.

"موسيقى Chopin, Fantaisie Impromptu"

كيف له الآن أن يقوى على استعادتها بعد أن آل الأمر إلى النهاية الحتمية ؟! أيموت الحب بعد موتنا أم يبقى ؟ أيُرجِعُنا الحب من الموت ؟ أنصحوا لنجد أنفسنا في عالمين اثنين مخبولين من عبق النهاية ومدهوشين من كل ما يحدث ؟! أيعود شهداء الحرب بعد تحرير أوطانهم ؟

" يا خالقي كم كانت فاتنة حتى وهي شبه ميتة " يقول في نفسه..

كانت العربة التي أتقنتها يدٌ ماهرةٌ من خشب العاج قد طليت بالبياض من خارجها وقد زخرفت بنقوشات وردٍ على جانبيها، تستند على أربع عجلاتٍ خشبية، اثنان كبيران يقبعان بالخلف وصغيريهما يجريان أمامهما، وقد جُرَّت بحصانين أنيقين كاملا السواد يقودهما رجلٌ قد انغرس داخل بزته السوداء الكاملة بقميصٍ أبيضٍ وقبعةٍ سوداءَ ماثلتها

لون قفازاته الجلدية، وقد أمسكت يداه بسوطٍ وبحبلين يوجه بهما الأحصنة، كانت العربة ذات بابٍ واحدٍ وحيدٍ ينفتح إلى الخارج بجهة العربة اليمنى، أما يسراها فقد اتسعت لشباكين صغيرين، كان القماش الأحمر قد بطّن العربة من الداخل وقد وضع بها مقعدٌ يتسع لثلاثة أشخاصٍ لكن اتساعه لم يُستَغلّ جيداً في تلك الليلة.

لم تكن سريعةً ولم تكن عكس ذلك تماماً، كانت تسير كمن يركب دراجته متنزهاً، أما الشارع ذاك فكان يخلو تدريجياً من السيارات أمام تلك المركبة بينما كانت تزداد أعداد المتفرجين المذهولين من المشهد تلقائياً.

هناك، على الشق الأيسر من المقعد كانت هي، لم تكن ترتدي فستان عرس، كان فستاناً أحمراً طويلاً، يَضيقُ من أسفل الرقبة إلى الخصر رويداً رويداً، وهناك تلفه ربطةٌ لتجعل منه بعدها ينفرج كثيراً، حذاؤها الفضي قد قُصِرَ شيءٌ من ثوبها ليبان لمعانه، كان شعرها قد مُشِّط َوقد سحبت غصلاته إلى نصفها ثم حيكت في بعضها إلى ما وراء رأسها بما يجعل منها لوحةً فنيةً، كانت عيناها المتمردتان على الألوان قد كُحِّلَت بالسواد، وجهها ترك كما هو، ناصع البياض فاتنٌ، لم توجد مغازلةٌ يمكنها وصفه إلا تلك التقليدية، كما القمر كان هو، أو كما وجهها كان القمر، والحمرة زادتها قليلاً من الفتنة، كان جسدها مرخياً وقد ترنّم

رأسها واستراح على كتف إحداهن.

بياض الثلج ذات الوجه الأبيض القمري، الأميرة النائمة، سندريلا تلك المدعوة إلى حفلةٍ ما، ثلاثتهن قد لُخِّصنَ في واحدةٍ، ولو زيدت على جمالهن جمال ثلاثين امرأةٍ من نساء أهل الارض لم يكن قد وصلن إلى جمال سنها اللاذع ذاك ..

كان القمر قد ارتدى معطفاً كاملاً مع أن الجو قد خلى من البرودة تماماً، والسماء كوجهها صافيةٌ إلا من بعض النجوم، كان الوقت هادئاً لا بارداً، هواؤه ينعش الذاكرة ويقتلها، كان القدر مناسباً جداً لأول مرةٍ لما سيحدث.

كانت قد استفاقت من نومها العميق ذاك، انفرجت شقي رموشها شيئاً فشيئاً إلى أن انفتحت كاملاً، أغلقتهما من جديد، فتحتهما مرةً أخرى وقد بدأ الغباش يضمحل، رفعت رأسها عن كتف إحداهن، قلصت من فتحة عينيها قليلاً، أدارت وجهها إلى اليمين مع ضحكة إحداهن .. ثم لاحظت ثوبها، أطلقت بصرها وبدأت تتحسس نفسها، عقدت حاجبيها بعد أن أغلقت فمها، رفعت قدميها قليلاً إلى أن بان حذاءها، ثم جال نظرها في الأرجاء .. القماش الأحمر الذي بطن العربة، صديقتها تلك .. ثم ما كان منها إلا أن أطلقت عينيها من شباك العربة،

أخذت نفساً بعمقٍ ثم حررت أسره، لم تكن قد وعت شيئاً إلى الآن.

قللت العربة من سرعتها إلى أن صهل الحصان فجأة.

" ماذا حدث ؟ " نطقت هي، كانت الضحكات جوابها الوحيد .

- يارة،قلت لك ماذا حدث؟!(قالتها قبل أن تتوقف العربة).

- الآن ستعرفين (قالت يارة قبل أن تنهض) ، هيا أخرجي

- لن أفعل قبل أن أفهم ماذا حدث.

- قلتُ أخرجي لينا .

- قلتُ لن أفعل ..

- إذاً ..

فتحت الباب وأمسكت يديها وجرتها وراءها ..

كانت دفتا البوابة الكبيرة تنفرج رويداً رويداً ، **رافق ذلك** سجادةٌ حمراء وكأنها مُدَّت من تلقاء نفسها إلى طرف العربة، **كانت** الدفتان قد وصلتا حتفهما عندما أضيأت شمعتان وكأنهما أضيأتا من نفسيهما تلقائياً على طرفي السجادة الحمراء تلك، تلتهما اثنتان أخريتان، اثنتان لتصبحا ستاً .. وهكذا إلى أن أصبحتا ثماني وأربعين واحدةً أنارت المكان قليلاً ، ثم بدأت الأضواء تنمو ها هنا وها هناك على وقع أقدام.

كانت البدلة البيضاء الأنيقة تكسوه، قميصٌ أبيضٌ وربطة عنق

سوداء، وعيون فاتن زرقاء سماوية، حليق اللحية هو، ذو شَعرٍ مائلٍ إلى الصفرة المشبعة، طويل القامة، ممتلئ الكتفين ذو بسمةٍ سرقت الكثيرات قبلها، كان يمشي متجهاً إليها مع أحدهم، كان والدها.

لكنها.. هناك كانت صامتةً.. كان متأنقاً قد لمعت عيناه فرحاً بعكس عينيها اللتين لمعتا حيرة، لم تكن إلى الآن تعي شيئاً على الإطلاق، كانت كرضيعٍ ولد للتو مذهولاً، كأم شهيدٍ رأت ابنها يُقتَلُ قبل ثانيةٍ تماماً، وكحمامةٍ عادت للعش فرأته فارغاً.

كان قد انحنى على ركبته مخرجاً من جيبه خاتماً قد تأنق داخل علبةٍ حمراء حينما هدأ الصوت كلياً وهدأت الأضواء كلها إلا واحد كان يفضحهما، ثم نطق:

- قلت لك سأعيدك من الموت ..

- " لست تدرك انك قد اخذت نفسك اليه بالنسبة لي " (قالت في نفسها).

- أتقبلين الزواج مني ؟ قال بصوتٍ واثقٍ من نفسه فاتحاً علبة الخاتم بكلتي يديه.

كانت وكأنها بدأت تتشرب الأمر، " لقد فعلها إذاً " قالت في نفسها ثم بدأت تبحث عنه. كانت قد أيقنت أنه سيكون مختبأً خلف

"كاميرةٍ" ما، هو قال لها قبل خمسة أعوام أن لا أحد سيلتقط صورة زفافها غيره، قال لها أنه يغار كثيراً عليها، أهو راضيٌ الآن وهي تتزوج غيره وهو يكتفي بتصويرهما ؟!أقد كان يغار من أحدٍ يصورها إلى تلك الدرجة التي تخلى فيها عن دور الزوج ليأخذ دور المصور ؟! يا له من أحمق ..

كانت تبحث عن عينيه في الأرجاء، الى جانب "النافورة" ، بين أفواج المشاهدين، إلى اليمين.. إلى اليسار .. حتى التقطته متكئً على الأرض يحمل كاميرةً تصور المشهد.

كانت عيناه تلمعان دمعاً ، شعره مصففٌ بعنايةٍ، وجهه رغم حنطيته طازجٌ صافٍ ، لحيته المخففة مرتبةٌ كثيراً ، كان قد ارتدى بدلةً خالصة السواد بقميصٍ وليدٍ لها وربطة عنقٍ حمراء، كان وكأنه قد تأنق بما يكفي ليصبح بطل هذه الرواية، لكن ربما القدر حال دون ذلك وأسكنه الهوامش، كان صامتاً كقرنفلة، وكزهرة جلنارٍ كان متبسماً ، كأن بسمته قد وُلِدَت حزينةً ، وجعلت وجنته اليسرى تتقلص على نفسها لتنجب غمازةً يتيمة ، كان شهياً فاتناً حزيناً .

من ذا يستطيع الآن إنكار حزنه ؟! أيصل اليأس بأحدهم لأن يبتسم مخفياً وجعه، أنحتسي الألم ونحن راضون به ؟ أية كلمةٍ يمكنها

وصفه الآن ؟ كان من المفروض أن ينتهي النص به زوجاً ، وها هو ..
حدَّقت في عينيه مباشرةً ، استطلعتهما لما لا يزيد عن سبع ثوانٍ لا أكثر،
ثم أجابت :" نعم أقبل ".
مدت يدها إليه ليضع بإصبعها خاتماً من الألماس، كان محظوظاً جداً ،
أقصد الخاتم.

و ما كان إلا أن لطخت ملامح وجه السماء سبعٌ من القنابل المضيئة التي تلت بعضها في جعل لون السماء مختلفاً في كل واحدة، رافق ذلك ضجيج التصفيق والمباركات، أمسك بيدها كمن يمسك البحر ثم سارا جنباً إلى جنبٍ وسط تصفيق المدعوين ومباركاتهم إلى أن وصلوا نهاية السجاد الأحمر، كانت قد أُعِدَّت لهما مائدةٌ خاصة، اعتلتها وردةٌ حمراء من ورد التوليب ذاك التي كانت قد سجنت في كأسٍ ماءٍ على قماشٍ أحمرٍ.

كان قد سحب لها الكرسي حينما هدأ الصوت تدريجياً على صوت "بيانو" يتيمٍ يتلعثم ويهذي بنوتاتٍ متلاصقةٍ هاربة، ثم ما كان منه إلا أن تعلم النطق تدرييجاً وبدأت تتضح معالم صوته حينما شاركه العزف كمانان لأول مرةٍ يكونان مشوشان جداً وسعيدان، تلى ذلك غيرةٌ لجيتارٍ شاركهما الموسيقى، ثم ما كان منهم جميعاً إلا أن هدؤوا على

إيقاع طبلةٍ رافقها صعود إحداهن على المسرح .

كانت ذا عينين واسعتين جميلتين لكنها كانت كمن فقد حبيباً للتو، وجهها كان متعباً ، كانت شفتاها قد لطخت سريعاً بالحمرة، وبعض مساحيق التجميل على وجها التي لم تزدها إلا بؤساً في طريقها، شعرها الأسود كان يصل الى منتصف ظهرها ، لها أنف دوقة، وجهها فاتنٌ متناسقٌ كثيراً ، ليست طويلة، جسدها ممتلئٌ بغير بدانةٍ، ذرفت دمعتين قبل أن تبدأ بالغناء ثم أنجبت صوتاً بلغ فجأة .. وغَنَّت .. نعم، لقد غَنَّت.

كانت الشموع قد جعلت الأرض سماءً بنجوم، الورود الحمراء تغلغلت في الأرجاء كما التفاح الأحمر فعل تماماً ، كانت الطاولات منسقةً جداً بقماشٍ أبيضٍ يعتليه نقوشاتٌ لقلوبٍ وزهورٍ وضعت أعلاها كؤوسٌ مُلِئَت بما لذ من المشروبات، وهناك في الأرجاء، حبالٌ كثيرة من حبال الغسيل علقت وأُلصقت عليها صورٌ لوليد ولينا قد ألصقتها ملاقط خشبية، البلالين الحمراء والبيضاء المنفوخة التي تملأ الأرجاء، المراجيح المعلقة الكثيرة، وحلوى "غزل البنات" الوردي المتناثر هنا وهناك، الموسيقى تملأ أفكار لينا وتملأ الجو، أربع كاميراتٍ على الأرض، وواحدةٍ في السماء كمن يصور فيلماً سينمائياً.

كان حفلاً لم يَبِن فيه النقص أبداً، لكنها هي كانت تشعر بالنقص منه، كان يؤرقها، تستنتظر عينيه من بعيد، تارةً يصور إحداهن، وتارةً يقف متبسماً للمارة، تارةً يمسك هاتفه، وتارةً أخرى يستلقط نفساً بعمقٍ ثم يرميه، كانت تدرك أنه يعاني بعضاً من ما تعانيه لكنه هو المخطِئ لا هي، تقول في نفسها.

ومن هناك، من أعلى القصر ذاك، قماشٌ أبيضٌ طويلٌ مُدَّ من أعلاه إلى أسفله، خفتت الأضواء من هنا وهناك، تلاها صوت الموسيقى، بدأ القماش الأسود يلتحي بالسواد كلياً، وتظهر عليه جملة " وليد ولينا.. قصة حبٍ لن تنتهي ".

ضحكت وقالت في نفسها " لن تنتهي لأنها لم تكن أصلاً ".

بدأ الفيلم بصورٍ تظهر تدريجياً لهما، فيديوهاتٌ قديمةٌ من أول تعارفٍ لهما هناك في أمريكا، ضحكةٌ لها معه، ونكتةٌ هو قالها، زيارتهما لمرضى السرطان في يومٍ من الأيام، تبسمهما مع مريضٍ ما، احتفالهما بعيد ميلادها، ويوم خطبتهما، إلى ذلك اليوم، يوم ما حدث الأمر، ضحكاتها في السيارة، صراخها بعد معرفتها بموته، لقطاتٌ من اختبائها في الثلاثة أيام، ولحظة انتحارها، تَسوَدُّ الشاشة قليلاً لتعود بصورتها بالفسان الأحمر التي ترتديه راكبةً العربة تلك، خروجها من العربة وطلب يديها للزواج.. وتنتهي بقولها " نعم أقبل ".

صفق الجمهور بعد عبارة " إنتهى الفيلم، لكن لم ينتهِ الحب "

أما هي، فتبسمت، " لقد خدعني ذلك المجنون" ، ثم ضحكت، لم تتمالك نفسها على الإطلاق، قهقهت بما يكفي .. ثم جعلت تضرب بيديها رأسها، أخفضت رأسها إلى الأرض، ثم بكت .. " لقد خدعني ".

"ألم أقل لك أني سأعيدك إلى الحياة" .. قال وليد .

" قلت لي أقسم .. " صرخت وهي تضحك دامعةً .. لكنها لم تكن قد أدركت كل شيء، كثيرٌ من الأشياء ناقصةٌ في هذه القصة ولا بد من إدراكها.

مسحت كلتي عينيها بيدها، واستطلعت الأرجاء إلى أن وجدت صديقتها على طاولةٍ قريبة، نادت عليها ثم استقامت على خطى صديقتها إليها، أمسكت يدها بعنفٍ وشدتها وهي تمشي.

"الى أين ؟ " صرخ وليد.

" سأعود .. خمس دقائق فقط، هناك أشياء يجب حلها الآن .. **اتصلي** بالغبي بسرعة " قالت موجهةً الخطاب ليارة ..

- أيُّ غبي ؟

- من غيره .. أين هو ؟

- في الداخل، هناك يجهزون لكل شيء.

- إذاً هيا بنا ..

- ماذا هناك لينا ؟

- من المفروض أن يسأل هذا السؤال ؟

***

"موسيقى Chopin - Spring Waltz"

"إذاً أخبرني عن كل شيءٍ الآن"، قالت وهي تمسك كأساً من الماء.

- عن ماذا تتحدثين ؟

- عن مسرحية شكسبير عزيزي، عن ماذا سأتحدث في هذا الوقت ؟

- عن مسرحية شكسبير، قُلتِ للتو.

- بربك؟ ليس وقت السخرية .. أكان كل شيءٍ لعبة إذاً ؟

- تقريباً ..

- موت وليد ..

- كان شيئاً ناقصاً وتافهاً، كيف لكِ أن تقتنعي بأنه قد مات بمجرد أن أختك اتصلت بك وأخبرتك بالأمر، وكيف لهم أن يكتشفوا أن بصماتك عليه في ظرف نصفِ ساعةٍ أو أقل ؟!

- كم كنت غبيةً حقاً ..

- جداً .. اعذريني.

- كنت قد خططت للأمر قبل أن تراني حتى.

- نعم صحيح

- لم يكن مريضاً ولكنها كانت حجة لكي ألتقيك أنا ويحدث ما حدث؟

- تماماً .

- مازن .. كان ينظر إلى الساعة كثيرا ، وقد اتصل بأحدهم قبل عشرة دقائق من الأمر، لقد فهمت الان ..

- يا لي من ماكر.

- لم أكن قد جننت وأنا أراه في تلك الشقة .. لم تكن تخيلات ، كان موجوداً، وصوتك أيضاً .

- مؤثرات صوتية وبصرية من الواقع .. نعم.

- نشرة التلفاز التي تحدثت عن الجريمة ؟

- قلت بأن النشرة بها خطأٌ في الوقت .. تذكري .. كانت الساعة لم تبلغ التاسعة حينما بدأت نشرة التاسعة، تذكري .. لقد صورنا الأمر مسبقاً ..

- والسم ؟

- منومٌ ليس إلا ..

- لم تكن تحمل السم طوال تلك السنوات ؟

- " بلا .. لكنني بدَّلته قبل أن تبدأ اللعبة "

وقد أخرج من جيبته علبة الأكامول ووضعها على الطاولة ، "ها هو السم الحقيقي ".

- كنت تخطط كي أشربه إذاً ؟ لم تنسه إلا عمداً .

- " كيف عرفت الأمر ؟" (قال ضاحكاً).

طرق مازن على الباب ودخل مصطحباً فتاةً صغيرة ..

ضحكت لينا وقالت، " لذلك لم ترتبك حينما صَعَدت يارة السيارة، لقد تزوجتم إذاً "..

" ماذا ؟ " قالت يارة .

- الفتاة في الصورة التي سألتك عنها، لست غبيةً إلى هذه الدرجة

- نعم، منذ ثلاث سنواتٍ.

- جميل .. ولم تدعوني حتى ؟!

- لم نكن نعرف أخبارك، كنت قد انقطعت عنا لفترةٍ طويلةٍ جداً .. وقد حدث الأمر بسرعة.

- قلتِ لي ان لا أقتنع بفكرة الحب، الحب غبيٌ يارة.

- أنا قلت لك ذلك، فقط قلت ..

- الآن فهمت الأمر، عدد الشجرات كنت تعرفه دون أن تعده في ذلك اليوم ..

- كنت قد أتممت عده قبل ذلك ..

- جميلٌ جميل .. كنت قد التقيتك قبل أن يحدث الأمر بعدة أيام، أكان ذلك مخططاً ؟

- هي الصدفة الصادقة الوحيدة ..

- منذ متى تخطط للأمر ؟

- ثلاث سنوات، أقصد ثلاثة أسابيع ..

- إذاً .. الليلة الأخيرة أيمن، جعلتها كما تريد أنت، لقد أوقعت بي أقسم.. ولكن .. سؤالٌ واحدٌ وأجب بصدق أرجوك.

- ماذا ؟

- ألا يزال ذاك الشيء موجودٌ إلى الآن ؟

نظرت إلى عينيه مباشرة .. توتر هو ، أغلق فمه ثم نطق بعد أن أخذ نفساً " أنا مضطرٌ للمغادرة، يحتاجونني في الخارج "

- أيمن .. أجب.

- قلت لك مضطرٌ للمغادرة، ليلةٌ سعيدة، أتمنى أن تروقك الحفلة ..

كانت قد شربت الماء ثم نطقت:" كم أنتم قاسيون ..".

- لقد قَسوتِ عليه بما يكفي لينا ..

- أنتِ من أقنعتني بأن الحب خاطئ .

- لم أكن أدرك مقدار حبه لينا ..

- لكن .. وما الفائدة الان ؟ أرجوكي ، لقد انتهى الأمر ، أنا امرأة متزوجة .

أنزلت رأسها، اقتربت من الثلاجة، فتحتها، أخذت زجاجةً من الماء وسكبت قليلاً منه في كأسها ثم تجرعته مرةً واحدة، وأفلتت الكأس

لتجعلها تلقى حتفها، وضعت يدها على رأسها، جعلت أنفها يلتقط الهواء من الأرجاء، ثم ما كان منها إلا أن بكت وصرخت " هذا اليوم الذي تحلم فيه كل امرأة، أما أنا فهذا كابوسي الآن ".

***

- أيمن، لقد وجدتها.

- من هي ؟

- تلك المنتظرة، إنها تغني الآن، أعترف أنها الوحيدة التي يمكن أن تكمل بقاياي وتهبني السعادة لأهبها نفسي

- إنها مطلقة.

- وماذا في الأمر ؟! ألم تقل لي أن أنظر إلى الأشياء من وجهةٍ أخرى ؟!

- لم أعتقد أنك قد وعيت الأمر إلى هذه الدرجة.

- ما اسمها ؟

- اسمها لور

- لور، جميلٌ أسمها،هل يمكنني التحدث لو قليلاً معها ؟

- سأحاول، لكنها .. أف، ستدرك الأمر أنت وحدك.

- حسناً ولكن .. سؤالٌ آخر . ألم تقل لي أنك ستنفق المال في عرسٍ لك ؟ لم تقل لي أنك ستكون المصور في هذا العرس ؟

- قصةٌ طويلةٌ سأشرحها لاحقاً ..

***

٢٣- اجعل الخصم يظن أنه مالك اللعبة، أو اجعله يظن أنك ضعيفٌ جداً وفاجئه في لحظةٍ لا يتوقعها .

"موسيقى الثلاثي جبران_شجن"

كانت الحفلة قد وصلت أوجها وبدأت ملامح الوطن تتجلى فيها، بدأت لور تلك التي قد عادت للحياة من جديد بالأغاني الوطنية على وقع أقدام من يرقصون فلكلوراً فلسطينياً متوشحين بالعباءة القديمة والكوفية، كان المكان يهتز راقصاً، الألوان الحمراء تغطي كل شيءٍ تقريباً ، الأضواء تجعل المكان جنةً على الأرض، كان كل شيءٍ متقناً وسعيداً، إلا هي فكانت قد تدثرت بالحيرة والحزن.

يا لتعاستها الآن، أتملك أنثى ما ملكته هي؟ أتخسر أنثى ما خسرته هي ؟! أيمكنها الإلمام بكل شيءٍ والتحسر على باقي الأشياء، من ذا يغطي وحدتها الآن ؟ من ذا يحضنها ؟!

إن حياتنا متلازمة النقص. و حتى لو اكتملت .. فالكمال هو نقصان النقص من حياتنا، أما هي، فأرادته لو ناقصاً .

رفعت رأسها إلى أن استوى وتبسمت لإحدى صديقاتها، أخذت عيناها تجولان في الأرجاء، من يرقصون فرحين ومن يتحدثون، من يحتسون العصائر ومن يدخنون كثيراً، المصورين، الموسيقيين، وعينيه ..

إن عينيه موجوعتان لا محالة، ولكن .. أآل قلبه الى ما آل إليه قلبها الآن ؟ أقد انكسر ؟ أم أن السنوات الطويلة تلك علمته كيف يكوي قلبه ولا يتوجع ؟ أعلمته قسوتها كيف يكون حجراً وأن يرد الصاع أربع؟! أتراه علمها درساً لن تنساه طوال حياتها ؟ أم أنه جعلها توقن الحب ؟

أعادت عينيها إلى يسارها الى ذلك الأشقرالمتبسم فرحاً، المفروض أنه زوجها، أغمضت عينيها، فتحتهما ثم أعادت بهما إلى مثواهما الأخير .. عينيه ..

كان متكئاً على إحدى قدميه ممسكاً بـ"كاميرةٍ" بكلتي يديه موجهاً إياها لإحداهن، ظل ثابتاً لفترة، راهنت نفسها أنه سيسرق نظرةً إليها قبل أن تكمل العد للعشرة ..

بدأت بالعد، " واحد " قالت رافعةً صوتها، لم يكن قد تحرك، أكملت " اثنان "، كان لا يزال جاثماً على قدمه صامداً صامتاً كصنم،

" ثلاثة "، لم يكن قد تحرك بعد، " أربعة "، كان جسده قد أرخى وقد أفلتت عينيه "الكاميرة" وبدأ بالاستقامة، " خمسة "، كان قد استقام كلياً، " ستة " اقترب من إحداهن موجها إليها وجه "الكاميرة" لكي ترى صورتها، " سبعة " أبتعد عن وجهها وتبسم، " ثمانية " كان قد هذب بدلته وكت بنطاله، " تسعة " التف قليلاً وأخذ نفساً ، " عشرة " أدارت وجهها وأغمضت عينيها بعد أن تيبس قلبها قبل أن تراه يدير عينيه ويسرق عينيها، هو فعل، لكنه أضحى لصاً محترفاً.. وهي شرطية أصابها الحب ربما بالعمى أو بالقدر التعيس.

فتحت عينيها من جديد، تطلعت في الأرجاء، كانت الطفلة التي وُلِدَت من الصورة تلك متشبثة بيد يارة التي تلاعبها، كانت سعيدة ،(ولن أحدد على ماذا تعود التاء ها هنا)، تبسمت لينا دون أن تدرك، كانت عينيها قد أنبتت دمعة كاملة أخيراً، كانت قوية بما يكفي لأن تحفظ كل الدمعات تلك إلى هذا الوقت بالذات، ثم سألت نفسها " وماذا الان؟".

"أحقا أحبه ؟! بعد سبع سنواتٍ من الكفر به أقد أؤمن بالحب وأعترف أنه أصابني ؟! أكنت عمياء عن أحمقٍ كان مستعداً لأن يقدم القمر هدية لي لو استطاع، كيف لي أن أحظى بأحمقٍ أفضل منه ؟!

لم يكن ذو مواصفاتٍ مثالية، لكنه كان يملك الحب بين جعبتيه، ماذا لا يصنع الحب ؟! لم تكن قامته طويلةً لكن أحلامه أطول بكثير، لم يكن جميل الوجه، كانت عيناه جميلتين فقط، عصبيٌ مزاجيٌ هو، لكن سيكون من الإلحاد أن أنكرَ أنه حاول على الأقل أن يجعلني سعيدةً لو أن كل محاولاته باءت بالفشل، أيُ آخرٍ قد يوقن بأنني المخطئة ثم يأتي متأسفاً طالباً مني المسامحة ؟ أيهم قد أتهمه بالفسوق ثم يأتي مسلماً معتذراً ؟ أيهم قد يكون مناسباً لي أكثر منه، أيهم قد يحبني إلى الهذيان؟!

كيف لي أن لا أعترف الآن يا أيمن؟ كيف لي أن أنكِرَ ما أنكرته طوال السنوات العقيمة تلك ؟ كيف لي أن أخفي رجفات يدي الآن أو أخفض صوت دقات قلبي؟ كيف لي أن أمسح من عيني عينيك وأن أحذف اسمك من ذاكرتي؟ وكيف لي أن أنزعك من شراييني ؟! كيف لي أن أنكِرَ نفسي وأنكرك ؟ نعم الآن أعترف، بعد كل تلك السنوات من المكابرة ومن النزاعات الطويلة بيني وبيني .. الأن أعترف .. لقد وقعت في شباكك مكرها.

لقد كنت خائفةً يا أيمن أن أخسر شيئاً، إن سمعة الأنثى هي أقسى ما قد تخسره، لكنني الآن لا أملك شيئاً لأخسره، لقد فقدت نفسي أمام حضرتك، فهلا تغفر لي خطيئتي وعصياني وترجمني وترحمني وتقتل

شهوتي في انتقاصك .

لكنني الآن يا أيمن أضعف من أن أقول " أحبك "، إنني امرأةٌ متزوجة، فهلا تغفر لي خطيئتي الأخرى وتبقي على حبنا حلماً لم يكتمل وقصةً لم ترق للكاتب إلا أن تكون تعيسةً وقدراً محتم وعصياناً للسعادة ..

النهاية

إذا أردت أن تكون النهاية تعيسة ٍ يمكنك التوقف هنا، ولكن من رأيي الشخصي فإنه يتوجب عليك أن تكمل، هناك نهاية افضل .

٢٤- التعادل الذي يحدث عند تفوق الآخر عليك دون أن يستطيع أن ينهي اللعبة هو تعادلٌ بنكهة الخسارة للاثنين معاً.

"موسيقى Marcha fúnebre – Chopin"

لكنني الآن يا أيمن أضعف من أن أقول " أحبك "، إنني امرأةٌ متزوجة، فهلا تغفر لي خطيئتي الأخرى وتبقي على حبنا حلماً لم يكتمل وقصةً لم ترق للكاتب إلا أن تكون تعيسةً وقدراً محتم وعصياناً للسعادة ..

وماذا الآن يمكنني أن أفعل ؟ إنني أرى حتفي يقترب، وأراكَ متبسماً يا عزيزي، أنكون أضعف من أن ننجوا ؟ أنرى النيران تلتهمنا ونقف مكتوفي الأيدي ؟! أهذا قدرنا يا أيمن ؟ أن نعيش غريبين ونفترق ونموت غريبين؟! ألن نجتمع تحت سقفٍ واحد؟ أو .. في خيمة ؟ تحت مظلة ؟ على كرسيٍ خشبيٍ ؟ على كرسيين منفردين متجاورين ؟ تحت أي سماءٍ وفق أي قدر؟ .. سأخبئكمن الشمس تحت جفني، أنا أعرف أنك تكرهها، أتخبئني من المطر عشيقك وعدوي ؟!

أقسم، سأحتسي الشاي معك في كل صباح، لن أكون خجولة ، سآكل الجبن الذي تكرهه وعشقته لأجلي أنا .. أنا أعرف، لن أقترب من الشمينت، وسأصنع لك الكنافة يومياً ، لن أضع عليها القطر بتاتا . عيناك تكفيانها، أخاف أن يصيبني السكري من إدمان عينيك، أو أخاف أن أموت جوعاً إن فقدتك.

لن أجمّل سني ذاك الذي لطالما غازلتني به ولطالما هددتك بإصلاحه وإخفاء اللذعة تلك، سألذع في كل الحروف إن شئت، لن أربط شعري مجدداً ، سأبقيه حراً إلى أن تقوم القيامة يا عزيزي، يا لنا كم نحن مضطهدون ومضطهدين .. ضحكت وهي تتذكر فلسفته.

وماذا سيحدث يا عزيزي إن بقي الأمر هكذا ؟ أنصل يوم القيامة منفردين ؟ وإذا أدركنا الجنة، أي جنة هي من دونك يا غبي! كيف لي أن أحتسي عصير العنب وحيداً ؟ وكيف لك أن تأكل الجبن من دون حضرتي؟!

والآن، أنا أعترف بأنوثتي المتجبرة التي أذاقتك الويل في حبي، أعترف بأن الأنثى أقسى من أن تقتل رجلاً ، هي فقط تدعوه إلى الحب، والحب يفعل بعدها ما يفعل الموت، ولكن أرجوك، اصنع شيئاً ، أعطني

شيئاً لأصون حبك وأنتحر .. كن قدري ..

كانت الموسيقى لا تزال تتلى .. لكن أحداً ما كان قد قرر أن ينهي الأمر بطريقةٍ خاصة، أن لا يموت صامتاً، على الأقل سيعترف بجريمته ..

كان الضجيج قد ملأ أذنيها وهي تلتقط أطراف فستانها قائلة " سأعود، بعد قليلٍ .. ربما " لوليد التي قاطعها " أين أنتِ ذاهبة ؟" بعد أن تركت مقعدها، توجهت بين المدعوين مسرعةً دامعةً راجفة اليدين، كانت تلحق بأطلاله، كانت قد رأته يدخل من الباب الجانبي إلى الداخل، تتبعته، تغمض عينيها وتفتحهما، تستنشق الهواء وتذرف أوجاعها خارجاً، الأمر يجب أن ينتهي ..

كان جالساً على الدرجة الأولى من الدرج الطويل الذي يعطي الإنسان فرصةً للمضي للطابق العلوي، كان يمسك بهاتفه واضعاً إياه على أذنه اليمنى خافضاً صوته حينما لاحظها، أغلق الهاتف واستقام ..

كانت عينيها قد غرقتا بالدمع، تطلع إليهما مباشرةً ثم اقترب منها قليلاً :

- لينا ما بك ؟

- أيمن.

- نعم لينا .

لا شيء ..

- لينا ما بك؟ هل حدث معك شيء، إنك متوترةً بسبب زفافك، الكل يحدث معه هكذا في هذا اليوم، لا تقلقي سيكون كل شيءٍ بخير.

- لا يا أيمن ولكن ..

- ولكن ماذا، هل أزعجك أحدهم ؟

- نعم، انت.

- أنا ؟ ماذا فعلت ؟

- ماذا لم تفعل يا أيمن ؟

- لا أفهم .

- الآن لا تفهم يا أيمن؟ كيف لي أن أشرح الأمر .. باختصار، الأنثى التي احببتها قبل ست سنوات أدركت أنها تحبك الآن ..

- أتقصدين ..؟

- لا أقصد شيئاً سوى ذلك ..

- لقد تأخرتِ كثيراً يا لينا .. أنت الآن متزوجة.

- أعرف، لكن الذنب ذنبك أيمن، أنت من أوقعتنا في هذا الأمر، حله الآن إذا استطعت ..

- لا أعرف لينا ..

- أيمن، قلت لك أحبك .. ماذا باستطاعتي أن أفعل أيضاً؟! حُلطذض الأمر، الذنب ذنب من عشقني أولاً، ألستَ من قلت "أن العين بالعين

والسن بالسن .."؟

- ومن سيعشقك سيموت قتلاً ؟

- كنت سأقول أن البادئ أظلم ..

وضحك هو فتبسمت ...

- إذاً ؟

- الأمر معقدٌ جداً..

- ألستَ من قلت أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام وأن الدنيا أبسط من أن نفكر فيها ؟

- نعم هي أبسط من ذلك ولكن ..

كان الباب قد طرق على دخول وليد ويارة ومازن ، كانت دمعاتها لا زالت ملاصقةً لجبينها ..

- ماذا هناك ؟ لماذا تبكين لينا

- أتجرؤين على القول لينا ؟ (قال أيمن)

- ماذا هناك ؟

- الأمر أبسط من ما نتخيل، اعترفي بالأمر ؟

كانت قد تاهت عينيها بينهما ," لا شيء وليد، مجرد لا شيء " قالت .

"ماذا هناك أيمن ؟ "صاح وليد ..

- لا شيء، كان رأسها يوجعها قليلاً .. إذاً سأعود إلى عملي أنا الآن، أتمنى

أن تكون الحفلة قد أعجبتكم .

نعم جميلة (قال وليد) ..

كان قد التف أيمن وخطى بضع الخطوات حينما كانت تدرك هي أنها الآن ستفقده إلى النهاية، نعم لقد حال وليد بينهما، القدر لا يخطئ أحداً، فكرت هي، ولكن .. أليس القدر صنيعة يدينا ؟ ألسنا من نحكمه ويحكمنا؟ أليست قادرةً على أن تغير القدر لكنها الآن تكتفي بالصمت؟ لو هي قادرةٌ الآن لقالت أنها تحبه بوسع السماء تلك، وأنها أدمنت عينيه منذ ست سنوات، لكنه القدر من يحكم امرأةً متزوجة على أن تصمت.

بدأ عقلها يتشوش كثيراً، وبدأت عيناها يذرفان دمعاً، ماذا سأقول لك يا أيمن؟ فكرت" أأقول أنني أحبك ؟! أنت تعلم أنني أحبك إلى الدرجة التي تجعلني أصمت الآن ، الأنثى يا أيمن قويةٌ إلى الدرجة التي تجعلها تصمت، كيف لي أن أعلن خيانتي وحبك ؟ كيف لي أن أنهي هذا الحفل بمصيبة ؟ لكن أي مصيبةٍ أكبر من فقدانك ؟ أي وجعٍ هو أقسى من ما يعانيه قلبي وأعانيه أنا ؟ أية نوتةٍ قد تلخص كل شيء ؟ وأي نهايةٍ هي الأنسب لقصتنا هذه ؟ أيستطيع اينشتاين ذاك أن يعيد الزمن لأقول لك من البداية أنني أحبك ؟ فلتفعل الفيزياء شيئاً يا عزيزي فأنا قد أرهقت".

استطلعت عيني وليد، كانتا جميلتين بلا حدودٍ لكنها أدركت

الآن أن مقاسهما لا يناسبانها إطلاقاً، وأنه ليس ذلك النبي المنتظر.

أن لا تتزوجي الرجل الذي يناسبك يعني أن تعدي القهوة والشاي صباحاً، لأنه هو لا يتنازل على الإطلاق ليحتسي الشاي معك، وأنتِ لا تحبينه كي تشربي قهوته، أن تصبح حياتك الزوجية وظيفةً، وأن تصبح علاقتك معه رسميةً جداً.

ستبدأ حياتكما كما كل زوجين جديدين، مغازلاتٍ جميلة، وبعضٍ من الضحكات، بعد فترة سيجف لسانه، ليخلع عن كاهليه ثوب الزوج الجديد ويرتدي ثوب المقاول، سيكون أكثر حديثكم عن "شوال" الرز الذي قارب على الانتهاء، وعن مصاريف السكن، وعن مشاكلك مع " حماتك ".

ستصحين في كل صباحٍ لتجدي رجلاً حاولت نسيانه لكن القدر لم يوافق، سيصبح البيت سجنك، وستحاولين الفرار منه كثيراً.

بعد فترةٍ ستنجبين .. وسيكون ذلك الشيء الصغير ما يجبرك في كل ليلةٍ أن تخبئي حزنك وتستمرين في بؤسك لأنك باختصارٍ صرت أماً.

بعد سن الأربعين، ستبدئين بمحاولة إخفاء تجاعيد وجهك، وجعل وجهك أكثر صفاءاً، وستحاولين إعداد المزيد من الأطباق التي يحبها زوجك وذلك للحفاظ عليه قبل أن تخطفه أخرى مع أنك وقتها

لن تكوني تحبينه، ولكنك ستحاولين الحفاظ عليه لأنه هو آخر ما تبقى لديك.

ستصبحين سيزيف هذا العصر، لترفعي ثقل هذه الدنيا على كاهليك وتجرينها إلى القمة، فتتدحرج ثانيةً فتجبرين على العودة مرارا وتكراراً .. هكذا إلى أن تموتي.

أن تتزوجي رجلاً يناسبك، معناه أن تحتسيا الماء سعيدان ، أن تتشاجرا وأنتما سعيدان، أن يقول لكِ أن الطعام لذيذٌ جداً ويقبّلَكِ قبل أن يذوقه حتى، ولا ضير إن أعددتما الطعام مع بعضيكما وأهداك حبة طماطم واحمرت وجنتاك خجلاً وقتها، أن تمدحيه على اختيار أمرٍ ما فتقولي أن ذوقه رائعٌ في الإختيارات، فيجيب " وها أكبر دليلٍ على ذلك أمامي ".

أن تتزوجي رجلاً يناسبك، معناه أن يهتم بأدق تفاصيلك، أن لا يخرج من البيت قبل أن يقول لك كم أنتِ جميلة، أن يبتسم وهو يناديك باسمك لا بـ"أم فلان"، أن يخصص لك من وقته وقتاً، وأن لا يكون لقاؤكم فقط قبل النوم أو على مائدة الطعام.

أن يكون شهياً طازجاً، أن تقدمي له خاتمك إذا ما اجتمعت الدنيا عليه لأنك تعرفين أنه دنياكِ، أن يهمل صلاة الجماعة كي يصلي معك، أن يهتم بالتواريخ، ففي القرن الواحد والعشرين أنا أؤمن بأن

الرجل الذي ينسى تاريخ ميلاد زوجته أو يوم زواجهما لا يصلح للزواج، ومن حقها أن تُطلقَ منه.

وأنت يا أيمن، من ذا يعرف تفاصيلك أكثر مني ؟! ومن ذا يعرف تفاصيلي غيرك ؟!".

كان قد وصل الباب حينما صرخت "نعم أحبه ".

قال أيمن : لم أسمع ..

ردت لينا وهي ترفع صوتها " أيمن، أنا أحبك، وليحدث ما يحدث، لا أستطيع الكتمان أكثر ".

كانت قد تطلعت إلى وجه وليد الذي تلبد، ثم قالت :" أنا أعتذر وليد ، لا يمكنني أن أكذب أكثر ".

كان قد تجهم وجهه واحمرّ قليلاً ، لكنه بقي صامتاً لم ينطق، أما هي فكانت قد أخذت نفساً وأطلقته للحياة، كانت كأنها أماتت الخوف من عنقها، كادت هي أن تفقد كل شيء، فما كانت قيمة الخسران الآن؟ الحرب؟ فلتقم الحرب ما دمنا لا نجد السقف الذي يحمينا من غضب السماء، ما الفائدة من ألذ الطعام وأشهاه إن كنا قد فقدنا حاسة التذوق؟! وما الفائدة من الثروات والخيرات الكثيرة إن فقدنا الحياة ؟! لم تجد ما تكمل به حديثها، كانت كلمة " أحبك " كافيةً لتجعل الهدوء

يبني عشاً في المكان، ماذا تفيد كل هذه الحفلة إن كانت زوجتك ليست لك ؟وأي نهاية يحملها جمودك ؟ وأي معنىً للصمت قد يكون كافياً لينهي الرواية ؟

عدة صفحات باقية، أرجوك أنهها بطريقةٍ لبقةٍ حضاريةٍ تليق بالمستوى الأدبي للقارئ وبسمعة الرواية من أولها لآخرها، لا تجعل النهاية تجعل القارئ يتمنى لو أن الرواية كانت بلا نهاية.

كان الصمت قد خيم في المكان على وقع خطى أيمن المتجهة صوبهما، وليد الذي تَصَنَّمَ مكانه وكأنه لا يعرف ماذا سيحدث الان أو ما المفروض أن يحدث، ويارة ومازن الذان اكتفيا بالصمت في تلك اللحظة، أما هي .. فكانت لأول مرةٍ لا ترتجف، لم تحمر وجنتاها كما العادة، لم تضمحل على نفسها خائفة، كانت واثقةً كمن يحفظ النص جيداً، كمن كان يردده لسبع سنواتٍ مضت، لكنها الآن مؤمنةٌ بالقدر، فليحدث ما سيحدث، قالت في نفسها.

ماذا سيحدث؟ سمعة العائلة والفتاة، التقاليد والعادات، دور المرأة، الحياة ، فكرة الطلاق أو العيش في حضن آخرٍ يعرف أنكِ لا تريدنه بتاتاً ، فكرة أن تأخذ الحفلة منحنى لعزاء ميت، صراخ والدها وضجيج والدتها، الناس التي ستضحك على القصة كثيراً ، الجرائد التي لن تبخل

عن الكتابة عن الموضوع وجعل الصفحة الاولى تتزين بـ " عروسٌ يطلق عروسته بسبب منسق الأفراح "،" نسيت الزوج وعشقت منسق الأفراح الذي جعل ليلتها مبهرة "، كل تلك الأفكار جالت في ذهنها لدقيقتين ثم رمت الأمر جانباً ، فليحدث ما سيحدث، أي خسرانٍ أكبر من خسران الإنسان ذاته !؟

وعندما يفقد الإنسان نفسه، يصبح الخسران شيئاً تافهاً.

حينما وصل أيمن، ربت على كتفي وليد وقال :

- والأن انتهى دورك.

- أنت طالقٌ لينا.

- لم أفهم، ماذا ؟ (قالت لينا متحيرة).

- أنت طالق ، (رد وليد).

- بكل تلك البساطة ؟!

- ألم قلت لك أن الدنيا أبسط من أن تتصوريها ؟!

- أيمن .. ما الأمر ؟ وكيف انتهى دوره، هل خططتم للأمر أيضاً ؟

- نعم كذلك عزيزتي.

- لم أفهم ؟

- وليد ممثل، فقط ممثل، أحب التمثيل من صغره ولم تتح له فرصةٌ ليلعب أي دورٍ بأية مسرحيةٍ، وأنا أهديته دوراً يتمناه الجميع، بطل

الرواية وحبيب سنوابيت الجميلة، أي ممثلٍ سيكون محظوظاً إلى تلك الدرجة التي يمثل فيها على أرض الواقع ؟

- أتقصد أن الأمر كان تمثيلاً فقط ؟

- نعم عزيزتي.

- لكنني التقيت به في أمريكا وأنت كنت هنا.

- أنا أرسلته إلى أمريكا لتبدأ القصة من ها هناك.

- منذ عامين وأنت تخطط للأمر ؟

- منذ ثلاثة.

- وكيف عرفت مكاني في أمريكا.

القدر جمعني مع واحدة بعد أن جمعها بك، اسمها دالا، مصابةٌ بالسرطان، كنت قد زرتيها كثيراً هناك، ولعبت معها الشطرنج وأعطيتيها عنوان منزلك، وعندما عادت إلى هنا، كنت أزور المشفى والتقيت بها، حدثت الجميع في المشفى عن جمالك، وعن عينيك الفاتنتين، وعن سنك الأمامي المخبول، عن قامتك الرفيعة وعن ضحكتك القاتلة، وبعد فترة بأنها تعرف احداهن بنفس المواصفات ، كنت مدركاً أن لا أحداً سيشبهك، إن التسع والثلاثين شبيهةً لك قد مُتنَ وهن أجنة، أنت لا أحدٌ يشبهك، أنت منفردة ..

- إذاً ، التقاني هناك، طلب الزواج هنا لتكتمل القصة.

- نعم صحيح.

- خدعتني مرةً أخرى ..

- نعم يا عزيزتي.

- ومن أين اتيت بكل هذا المال لكل هذا الأمر.

- أتفه شيءٍ يا سيدتي هو الحصول على المال، مليونيرٌ ما كان يبحث عن السعادة، وجدتها في بحثه عنها، فأهداني المال، وأنا الآن أهدي شيئاً ضئيلاً منه إلى تلك الحفلة و الباقي إلى الممثل ذاك ..

- لماذا السبت وليس الجمعة ؟ الآن قل لي ..

- ما التاريخ اليوم ؟

- ٧/٢٧ ، ٥ا ، تاريخ ميلادك، لقد صرت في..

- الخامسة والعشرين من العمر .. أتذكرين؟ لقد وعدت أمي .. لا تقرب النساء قبل الخامسة والعشرين، الآن يمكنني الاقتراب.

- وأنتم مشتركون في اللعبة ؟!

"نعم "قالت يارة ثم ضحكت .

يا لك من ماكر، قالت وهي تقهقه، التفاح الذي يملأ الأرض، عشقك الأبدي للتفاح، الورود التي أحببتها جميعا في القصر، سألت نفسي كثيراً كيف له أن يعرفها مع أنني لم أبح له بالأمر بتاتاً، سؤال .. لماذا ثمانية وأربعون طلقةً نارية أطلقت في الجو ؟ لو نقصن واحدة لاقتنعت بأنها عدد الصدف، كنت قد فكرت بالأمر.

- على مفترق الطريق الأخيرة، قبل أن يبدأ كل شيء، وهكذا يصبحن

ثمانيةً وأربعين .

أكانت تلك صدفة ؟

- قلت لك هي الصدفة الوحيدة.

- أكان كل شيءٍ خدعةً إذاً ؟!

- نعم كل شيءٍ كان خدعة .

النهاية

***

أرجوك توقف، لا يمكنك الحصول على نهايةٍ أفضل من هذه.

٢٥ بغض النظر عن كل القواعد، لا ترضى أن تكون قطعةً في الدنيا وإن كنت وزيراً، كن أنت اللاعب من فوق.

- أكان كل شيءٍ خدعةً اذاً؟!

- نعم كل شيء مجرد خدعة .

- قل لي أن زجاجة السم التي تركتها في المطبخ كانت خدعةً أيضاً؟

- أية زجاجةٍ ؟ (قال متعجباً) ..

- التي نسيتها في المطبخ قبل قليل ..

- هي الشيء الصادق الوحيد ..

قالها على صوتها وهي تضحك مخرجةً زجاجة "الأكامول" بين يديها وقد انتقصت إلى النصف .. التقطها أيمن من يدها

- ماذا فعلت يا مجنونة ؟

- " لقد شربت منها ، لست وحدك من تداعبني " قالت وهي تضحك بأعلى صوتها ،

- " إن دعابك ثقيلٌ جداً" ..

قال وهو يفتح علبة الأكامول ويتجرع نصفها الباقي .

زادت قهقهتها ، " ماذا تفعل يا مجنون ؟ "قالت.

- أداعبك كما داعبتني.

- كم تبقى من الوقت ؟

- ثماني ساعاتٍ على أكثر تقدير.

- ماذا يمكننا أن نفعل بها ؟

- تكفي لنتناول قدرٍ كافٍ من الكنافة.

- تكفي لابتلاعك ..

- ولكن هناك مفاجاةٌ واحدةٌ باقية ..

- ماذا تبقى ؟ لا تقل لي أن هذا تمثيلٌ أيضاً وأنك لم تحبني منذ البداية ؟!

بعد أن ضحك .. " ليس إلى هذه الدرجة، لقد جهزت بطاقاتٍ للسفر إلى استراليا كحلمك،لا أعرف ان كان هذا الوقت يكفي لنصل هنا، أأنت مستعدة ؟ "

" لنقم بالأمر .. " قالت ثم التفتت " وليد ".

أدار رأسه قائلا " نعم ؟ "

- أعرف أنك تحب ياسمين، كن أشجع من أيمن أرجوك، أنهيا قصتكما بنهايةٍ سعيدةٍ لا تعيسةٍ أرجوك ..

قال أيمن :_ ولكن قبل ذلك، هناك شيءٌ صغيرٌ علي فعله .. جهزي نفسك قبل أن أعود، إذاً، ستأخذ أموالك يا صديقي - موجهاً الحديث الى وليد

- مازن سيعطيها لك.

" من ذا يحتاج إلى رزمٍ من الأموال لتكون حياته أجمل ؟" " قال وليد متبسما " لقد أهديتني تجربة تغنيني عن أموال الدنيا كلها، أضف الى ذلك، أأستطيع القول انني أخذت هدية أجمل ؟!

- إذاً .. مازن أبقي الأموال لك

- وماذا لي بها ؟!

- ألا تريدها ؟

- إن ما احتاجه في دنياي موجود الى جانبي.

- إذاً أعدها الى صاحبها.

- سيتم الأمر.

- إلى اللقاء اصدقائي .. لينا، أراكِ بالمكان الذي كنا سنلتقي فيه قبل ست سنوات ..

- "أيمن

- نعم لينا ..

- ارتدي معطفاً، إن عينيك كحيفا باردتان، منذ ست سنوات أنتظر ..

- وكيف لنا أن ندخل حيفا ؟!

- من دخل قلبي أيعجز عن دخول حيفا ؟!

***

كان وجهها قد بدأت تجاعيده تتجلى، بشرتها مرهقة قد اسودت قليلاً ، عيناها متعبتان بائستان قد مات لمعانها، غطت شعرها بمنديلٍ فوضوي مرتدية عباءةً سوداء. أقدام امرأةٍ تجرها بثقل. كانت قد خرجت للتو من المشفى، لم تكن مريضةً ، صديقتها كانت، فمنذ ثلاثة أيامٍ قد مرضت صديقتها تلك، لا يعرفون إلى الآن ما بها، الطبيب يقول أنه "فايروس" ربما هو من أصابها بالمرض، تتوجع من رأسها وإلى الآن لم يدركوا ما بها، في هذه الثلاثة أيام كانت حسناء تزورها بعد الظهيرة، لكنها اليوم أصرت عليها بالبقاء، جالستها ساعةً واثنتين إلى أن أصبحت التاسعة تماماً ، على أي حالٍ لن يهم الأمر كثيراً ، منذ ذا سيسأل عنها ؟ ولدها الذي هجرها منذ أربعة أعوامٍ أو زوجها الذي فعل نفس فعلته منذ عشرين عاماً مضت ؟! أو إخوانها الذين لم تسمع عنهم شيئاً منذ زمن بعيد ..

إنه يشبه أبيه، تعترف هي الآن، الاثنان هجراها .. فكرت بالأمر وهي تقف منتظرةً أية سيارة أجرةٍ تعيدها إلى قبرها ذاك، حين توقف أحدهم، فتحت الباب الخلفي للسيارة، رمت قدمها أمامها داخل السيارة وألحقتها الأخرى ثم عادت لتفكيرها .. " كيف له أن يكون الآن ؟! أتراه أصبح سعيداً بعد هجرانها ؟ أقد اعتمد على نفسه كما كان يبغي ؟! ربما الآن قد تزوج أو ربما قد أنجب حتى، أتحرم من نعمة الأحفاد بعدما

حرمت من نعمة الزوج والابن؟ يا لهذا الحظ والفقدان، كيف سيكون لو أنجب طفلاً ؟ أسيشبهها ؟ أستكون عينيه كعينيها ؟ أنفه ربما ؟ أذناه ؟ وعندما يسأله أحدهم "هل يشبه جدته ؟" سيجيب بالنفي كما نفت شبه ابنها من أبيه ؟ أسيعيد الوقت نفسه ؟ أأرد القدر فعلتها ؟! أيُّ عصيانٍ ذلك الذي فعله ؟! أيهجر الولد أمه ويكون بعدها صالحاً ؟! كيف سيربي ابناءه ؟ ماذا سيجيب حين يسأله أحد ابناءه عن جدته ؟ أيقول انه تعلم صنعة أبيه وهجرها ؟!".

" إذاً كيف حالك ؟ " قاطع سائق السيارة الصفراء أفكارها وهو يحرك بالمرآة التي تقبع أعلى مقدمة سيارته ..

كانت قد تفاجأت منه، كيف لسائقٍ أن يحدثها هكذا؟! تمعنته من على المرآة، كان مبتسماً ، لكن ملامحه لم تبن، أدركته هي عندما أدار وجهه قليلاً ، كانت قد تبسمت من داخلها، لكنها تجهمت خارجياً ، ولم تجب ..

- قلت كيف حالك ؟

- من الله بخير، سائق " تاكسي" ؟

- وماذا في الأمر ..

- تمنيت لو يكون لك مستقبلٌ أفضل ، قلت لك أريد أن تصبح طبيباً أو

فيزيائياً ..

- لكنني لم أعدك يا أمي، ولم تشترِ كتاباً لذلك.

- ارجوك توقف جانبا .. أريد ان انزل ..

- ولكن أنا لا أريد ذلك ..

- قلت لك أنزلني ..

- لن اقف، أنا لا أريد ذلك، ولم تشتري أنت كتاباً لذلك .

ضحكت ، " لا زالت كعادتك .. مزاجيٌ مضحك".

- أقد سامحتني ؟

- على ماذا ؟ لقد اعتدت الأمر، هجرتني كما فعل والدك .

- لم يهجركِ والدي أمي، أنت من طلبت ذلك ...

- وما أدراكَ أنت ..

- لا أعرف يا أمي، لا اعرف ..

- إذاً .. كيف هي حياتك الآن ؟

- جميلة، على الأقل أفعل ما أريد ..

- سعيدٌ لأجلك، لقد تحررت من سجني ..

- كان سجناً جميلاً ، لكنه يبقى سجناً يا أمي ..

- هل تزوجت ؟

- قلتِ لي ان لا أقربهن قبل الخامسة والعشرين،ولكن .. سؤالٌ واحدٌ ،

لماذا سن الخامسة والعشرين بالذات ؟

- صراحةً ، لا أعرف .. كنت أريد ابعادك عنهن وأن تبقى لي، وخُيأ لي أن سن الخامسة والعشرين سيكون مناسباً جدا لتنتظره ..

- وماذا تأكل ؟ لقد كنت طفلاً مدللاً ، لا أعتقد أنك تعلمت الطهي ..

بعد أن ضحك " آكل من المطاعم في الغالب، لكني اشتقت إلى طعامك. هلا دعوتني للعشاء ؟ ".

"لم لا ؟" قالت وهي تبتسم ..

***

- اسبقيني إلى البيت، سأوقف السيارة جانباً وسألحق بك.

- لا تتأخر، وأرجوك لا تهرب، على الأقل في هذه الليلة.

- لن أتأخر ، ولن أهرب .. بالذات في هذه الليلة.

ترجلت من السيارة، فتحت بوابة بيتهم الصغيرة، صعدت الدرجات السبع ركضاً مبتسمةً ، لقد عاد ابنها أخيراً ، أول مرةٍ لا تكابر وتبيح لقلبها

أدرك أن من وصل هذه الصفحة يفكر بقتلي الآن بعدما عرف سبب تسمية الرواية ..ولكن ما زلت مصرا على سن الخامسة والعشرين، أخترع سببك أنت.

أن يفرح ولو قليلاً ، فتحت باب بيتها، أحست بصوت شيءٍ على الأرض وقبل أن تضغط على المفتاح الذي يشعل الأضواء .. بهتت ..

كانت شمعتان كبيرتان أشعلتا للتو قد أضاءتا الصالة ها هناك، كانت هناك حركةٌ لشخصٍ ما ، وقفت هي مذهولةً تماما بعد أن انطفأت الشمعتان وأضاء هو الضوء ..

كانت عيناه البنيتان لامعتين، لحيته مهذبةٌ قصيرةٌ جداً وشعره مرتبٌ بعناية، يقف مرتدياً قميصاً أبيضاً وبنطالاً أسوداً .. متوترٌ هو، لقد غيرته العشرون سنةً التي قد مضت، وجهه مجعدٌ قليلاً ، وقد ترهل جسده، لكنه لا زال أنيقاً كما كان رغم كل الحبوب التي تملأ وجنتيه .

كانت الطاولة قد زُيِّنت ببعضٍ من الشموع ووردةٍ نائمةٍ على بطنها وحيدةً ، وعشاءٌ كان هو قد أعده وثلاثة كراسٍ وضعت إليها ..

كان أيمن قد وصل للتو، ورأى جمودهما الاثنين.

"إذاً ، سيبرد العشاء" امسك بيد أمه وقال "لا تكابري، يكفيك عشرون عاماً" ..وأجلسها إلى الطاولة بعد أن رأى والده جالساً هناك، كانت قد احمرت عيناها من بدايات الدمع ..

- ولكنه هو الذي هجرني ..

- اتصل بك مراراً ، أرسل رسائل بما يكفي .. يكفيك مكابرةٌ أمي، إذاً إلى

متى ستبقين هكذا؟ أتنكرين أنك لا زلتِ تحبينه ؟

لا أعرف، أهو يفعل ؟

" أحبها " .. قال له أيمن، لكن الصمت جعل الأمر أكثر تعقيداً ، أكمل أيمن

" منذ سبع سنواتٍ وهو يقف أمام بيتك فقط لينظر إليك في كل صباح،

أليس هذا حباً ؟ "

- سبع سنواتٍ ؟

- أمي، يا لك .. صاحب الدكانة خالد، ألم تشكي للحظةٍ أن يكون والدي ؟

- صاحب الدكانة ؟

- نعم هو أمي، ماذا بك ..

- وكيف دخلت هنا ؟

- لقد نسخت مفتاحاً قبل أن أهاجر عندما أضعته مرة ، تذكري .. كنت

أخطط للعودة ..

- خططت للأمر جيداً .

- نعم أمي .

- لست تعمل سائقاً إذاً ؟

- بتاتاً ..

- وكيف عرفت أنني في المشفى ؟

- يا للحظ، مرضت صديقتك منذ ثلاثة أيامٍ.

- لا تقل لي أنها مشتركةٌ في الأمر أيضاً ..

- نعم تماماً يا أمي .. إذاً ألن تقولا أنكما تحبان بعضيكما ؟ سيأتي المأذون بعد قليلٍ، ولا أفضِّلُ أن يشاركنا الطعام

- ولكن ..

"سأغلق أذني أقسم ".. ووضع يديه على اذنيه ، لكن قسمه كان كاذباً لأول مرة ..

- اذا .. لنبدأ بالطعام، إنني أتضور جوعا ، لم نأكل ثلاثتنا على مائدةٍ واحدةٍ منذ عشرين عاماً يا أمي ..

كان شهياً وكأنه العشاء الأخير .. لقد كان عشاءاً أخيراً ..

***

في آخر ليلةٍ لهما في الدنيا لم يلمسها حتى، كان قد وعدها أن يلمسها في الجنة، كانا قد أمضيا الليلة بكاملها يتغازلان ويتحدثان عن سنواتهما الماضية بعد أن علمته كيفية ربط حذاءه ..

وقبل أن يشهق شهيق الموت الأخير .. سألها : "بعد كل ما حدث، بعد كل تلك السنوات العجاف، أكان ذلك حباً ؟! "

لكنها كانت قد فارقت الحياة .. ولم تجب ...

النهاية

بعد عدة شهور نشرت الصحف عن فضيحةٍ لشابين هربا من أهليهما ليمارسا الجنس في البلاد المحتلة بحيفا .. والرب عاقبهم بموتهم ..

إذا أردت النهاية بدون الابتعاد عن الواقع البئيس، يمكنك مزع هذه الصفحة وكأنها لم تكن ..

" ذلك الفيزيائي .. استطاع حل كل تلك المسائل وعجز عن حل مسألة عشقه".

***

عن الكاتب:

الاسم : معاذ جهاد مسالمة

العمر: 21 سنة

العمل : طالب كلية هندسة في جامعة بيرزيت

صدر للكاتب : لم يصدر له أي كتاب، وهذه الرواية قد صدرت بالخطأ.

للتواصل : muathjehad@gmail.com

Fb/muath.j.m

Fb/latqrbalnsa2

الجدليات:

١ عندما يدرك الإنسان بأنه عاشقٌ .. يدون شيئاً ..

٢ قبل أن تضيع تذكر.. أين يمكن أن تجد حياتك ؟

٣ لاعب الشطرنج لا يموت ..

(الجدليات هي ألغاز حليها يؤدي إلى ألغاز أخرى ، وهكذا إلى أن تصل إلى الحل النهائي ، وقتها ستأخذ نصف أرباح الرواية .. ملاحظة : الجدليات الثلاثة فوق دون أهمية قبل تاريخ١٠/١٠/٢٠١٦)

" لا تقرأ هذه الرواية لأنك لن تستفيد منها شيئاً "

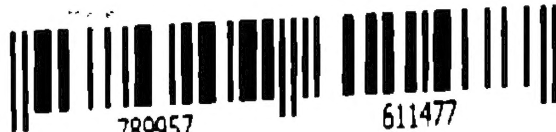
الكاتب

عشقيه مؤمناً ، لا تنظري إلى طول لحيته، الايمان ليس باللحى،
نظري إلى طيبته، هو سيحبك ويدافع عنك كما عقائد دينه، سيتذكرك
كما الصلاة، ويدعو الله في كل صلاة أن تكوني له، سيصوم عن كل أنثى
غيرك، سيزكي عينيه إن شئتِ ، وسيدعو الله أن تكوني له في الجنة
إن لم يستطع إليك في الدنيا سبيلا، لا تصافحيه، اجعلي نفسك كما الجنة،
وهل يصل الإنسان إلى الجنة دون أن يشقى ؟!

القاعدة رقم 12 : إذا أحسست في أي جزءٍ من الرواية أن هذا الأمر بالذات قد حدث معك .
لا تكمل القراءة، الكاتب غير مسؤولٍ عن ما سيحدث تباعاً .

الغاية للنشر والتوزيع

الأردن - صويلح - شارع الملكة رانيا العبدالله - مجمع البداد 2.
هاتف ، 0096265349438 - 0096278900917
الرمز البريدي، 11910، ص.ب 2649 - E.mail. dafalgaya@yahoo.com


9 789957 611477

ملاحظة أخيرة : هذه الرواية لا ينصح أحد بقراءتها ..
"الكاتب"